النصرة لسيد العترة

في حرب البصرة

الشيخ المفيد

[47]

المقدمة : في سبب تأليف الكتاب :

الحمد لله الذي ضمن النصر لناصريه وأعان على الحق بتوفيقه متبعيه وخذل من عند عن دينه وألحد فيه وصلاته على صفوته من خلقه ومحبيه محمد وآله المخصوصين بالطهارة والتنزيه.

و بعد سألت أيدك الله بتوفيقه أن أورد لك ذكر الاختلاف بين أهل القبلة في حديث الفتنة بالبصرة وما كان بين أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام)

[48]

و بين عائشة وطلحة والزبير من الحرب المهولة في ذلك والمقال ومذهب كل فريق من الأمة فيه على شرح له وبيان وإثبات سبب هذه الفتنة والأخبار التي جاءت فيما جرى بين القوم من القتال والفعال فإن كل كتاب صنف في هذا الفن قد تضمن أخبارا تلتبس معانيها على جمهور الناس ولم يأت أحد من المصنفين بذكر الحرب في هذه الفتنة على الترتيب والنظام بل خلطوا الأخبار فيها خلطا لم يحصل معه تصور الخلل فيما كان بين الجميع فيه على الظهور والتبيان للذي جاء.

فقد جمعت لك أيدك الله كل ما صدر عنهم وأثبته في هذا الكتاب برهانا يفضي الناظر فيه إلى صحة الاعتقاد في أحكام القوم بأسمائهم بأعمالهم وما فيها من الكفر والإيمان والطاعة والعصيان والتبين والضلال لتعلم وفقك الله بالنظر والاعتبار وتخرج بذلك من التقليد الموبق لصاحبه لتظفر بالحق ويزول عنك الاشتباه الذي التبس عليك الأمر فيما كان هناك وأجبتك إلى ما سألت معتصما بالله عز وجل وسائلا لك التوفيق والرشاد وبالله أستعين.

[49]

القول في اختلاف الأمة في فتنة الجمل وأحكام القتال فيها :

أما المتولون للقتال في هذه الفتنة فقد أنبأنا عملهم فيها عن اعتقادهم ودلت ظواهرهم في ذلك على بواطنهم فيه إذ العلم يحيط بأن أمير المؤمنين عليا (عليه السلام) وولده وأهله من بني هاشم وأتباعه من المهاجرين والأنصار وغيرهم من المؤمنين لم يسلكوا فيما باشروه من الحرب وسعوا فيه من القتل واستباحة الدماء طريق المجرمين لذلك الطالبين به العاجل والتاركين به ثواب الآجل بل كان ظاهرهم في ذلك والمعلوم من حالهم وقصدهم التدين به والقربة إلى الله سبحانه بعمله والاجتهاد فيه وأن تركه والإعراض عنه موبق من الأعمال والتقصير فيه موجب لاستحقاق العقاب.

ألا ترى إلى ما اشتهر :

من قول أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد سئل عن قتاله للقوم : لم أجد إلا قتالهم أو الكفر بما أنزل على محمد (صلى الله عليه وآله وسلم).

[50]

و قول عمار بن ياسر رضي الله عنه :

أيها الناس والله ما أسلموا ولكنهم استسلموا وأسروا الكفر فلما وجدوا له أعوانا أظهروه.

في أمثال هذين القولين من جماعة أجلة من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) يطول بشرحها الكتاب فهم تلائم معاني كلامهم في ذلك ظواهر فعالهم والمعلوم من قصودهم وهذا ما لا مرية فيه بين العلماء وإنما يشتبه الأمر فيه على الجهلاء الذين لم يسمعوا الأخبار ولا عثروا بتأمل الآثار.

و كذلك الأمر محيط بأن ظاهر عائشة وطلحة والزبير , وكثير ممن كان في حيزهم التدين ; بقتال أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنصاره و, القربة إلى الله سبحانه وتعالى باستفراغ الجهد فيه , وأنهم كانوا يريدون - على ما زعموا - وجه الله والطلب بدم الخليفة المظلوم عندهم المقتول بغير حق وأنهم لا يسعهم فيما أضمروه من اعتقادهم إلا الذي فعلوه ; فوضح من ذلك أن كلا من الفريقين يصوب رأيه فيما فعل ويخطئ صاحبه فيما صنع ويشهد لنفسه بالنجاة ويشهد على صاحبه بالضلال والهلاك.

إلا أن أمير المؤمنين (عليه السلام) صرح بالحكم على محاربيه ووسمهم بالغدر والنكث وأخبر أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمره بقتالهم وفرض عليه جهادهم.

[51]

و لم يحفظ عن محاربيه فيه شيء ولا سمة له بمثل ذلك وإن كان المعلوم من رأيهم التخطئة له في القتال والحكم عليه في مقامه على الأمر والامتناع من رده شورى بينهم وتسليم قتلة عثمان إليهم بالزلل عن الحق وترك الواجب عندهم والصواب.

و كان مذهب سعد بن مالك أبي وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة الأنصاري وأسامة بن زيد وأمثالهم ممن رأى القعود عن الحرب والتبديع لمن تولاها الحكم على أمير المؤمنين والحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن علي (عليه السلام) وجميع ولد أبي طالب وكافة أتباع أمير المؤمنين (عليه السلام) من بني هاشم والمهاجرين والأنصار والمتدينين بنصرته المتبعين له على رأيه في الجهاد بالضلال والخطإ في المقال والفعال والتبديع لهم في ذلك على كل حال ; وكذلك كان مذهبهم في عائشة وطلحة والزبير ومن كان على رأيهم في قتال أمير المؤمنين (عليه السلام) وأنهم بذلك ضلال عن الحق عادلون عن الصواب مبدعون في استحلال دماء أهل الإسلام , ولم يحفظ عنهم في الطائفتين ولا في إحداهما تسمية بالفسوق ولا إخراجهم بما تولوه من الحرب والقتال عن الإيمان.

[53]

فصل ; آراء أهل الفرق في المتحاربين في حرب الجمل :

آراء الحشوية :

الخلاف الذي حكيناه عن السلف بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الفتنة المذكورة قد تشعب وزاد على ما أثبتناه عمن سميناه في الخلاف فقالت العامة الحشوية المنتسبة إلى السنة على ما زعموا في ذلك أقاويل مشهورة وذهبوا مذاهب ظهرت عنهم مذكورة.

[54]

رأي سعد بن أبي وقاص وأتباعه :

فمنهم طائفة اتبعت رأي سعد بن أبي وقاص وشركائه من المعتزلة عن الفريقين ومذهبهم في إنكار القتال وحكموا بالخطإ على أمير المؤمنين والحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن علي وعبد الله بن عباس وخزيمة بن ثابت ذي الشهادتين وأبي أيوب الأنصاري وأبي الهيثم بن التيهان وعمار بن ياسر وقيس بن سعد بن عباده وأمثالهم من وجوه المهاجرين ونقباء الأنصار وعائشة وطلحة والزبير وجميع من اتبعهم في الحرب واستحل معهم القتال وشهدوا عليهم جميعا فيما صنعوه بالزلل عن الصواب ووقفوا فيهم مع ذلك ولم يقطعوا لهم بعقاب ورجوا لهم الرحمة والغفران وكان الرجاء لهم في ذلك أقوى عندهم من الخوف عليهم من العقاب.

رأي فرقة أخرى منهم:

و منهم طائفة أخرى قالت بتخطئة الجميع كما قال الأولون منهم في ذلك وقطعوا على أن أمير المؤمنين والحسن والحسين (عليهما السلام) وابن عباس وعمار بن ياسر

[55]

و خزيمة ذا الشهادتين وإن كانوا قد زلوا في سفك الدماء في القتال فإنه مغفور لهم ذلك لما قدموا من عظيم طاعتهم لله تعالى وجهادهم مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وصحبتهم له ومواساتهم إياه ; وكذلك قولهم في عائشة وطلحة والزبير ومن شاركهم في القتال ممن له صحبة وسالف جهاد , وأما من سوى الصحابة من الفريقين فهم بقتالهم واستحلالهم الدماء من أهل النار ; وحكوا عن بعض مشيختهم وأئمتهم في الدين إنه كان يقول نجا القادة وهلك الأتباع , وفرقوا بين الصحابي وغيره في ذلك.

بحديث رووه عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إنه قال لبعض المسلمين ممن أدركه ولم تكن له صحبة وقد سامى رجلا من الصحابة إياكم وأصحابي لو أنفق أحدكم مثل أحد ذهبا ما بلغ مدى أحدهم ولا نصفه.

رأي فرقة مستضعفة :

و منهم فرقة أخرى قالت لا ينبغي لأحد أن يخوض في ذكر الصحابة وما جرى

[56]

بينهم من تنازع واختلاف وتباين وقتال ولا يتعرض بالنظر في ذلك ولا الفكر فيه ويعرض عنه جانبا وإن استطاع أن لا يسمع شيئا من الأخبار الواردة به فليفعل فإنه إن خالف هذه الوصاة وأصغى إلى الخبر باختلاف الصحابة أو تكلم بحرف واحد أو تسرع إلى الحكم عليهم بشيء يشين المسلم فقد أبدع في الدين وخالف الشرع وعدل عن قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يحذر مما حذره منه.

بقوله (صلى الله عليه وآله وسلم) إياكم وما شجر بين أصحابي.

و قد زعموا أن الرواية بذكر أصحاب السقيفة ومقتل عثمان والجمل وصفين بدعة والتصنيف في ذلك ضلال والاستماع إلى شيء منه يكسب الآثام وهذه فرقة مستضعفة من الحشوية يميل إلى قولها جمع كثير ممن شاهدناه من العامة ويدعو إليه المتظاهرون بالورع والزهد والصمت وطلب السلامة وحفظ اللسان وهم بذلك بعداء عن العلم وأهله جهال أغمار.

رأي فرقة تدعي المعرفة بالفقه :

و قالت فرقة من العامة تختص بمذاهب الحشوية غير أنها تتعاطى النظر وتدعي المعرفة بالفقه وتزعم أنها من أهل الاعتبار إن علي بن أبي طالب (عليه السلام) ومن كان في حيزه من المهاجرين والأنصار وسائر الناس وعائشة وطلحة

[57]

و الزبير وأتباعهم جميعا معا كانوا على صواب فيما انتهوا إليه من التباين والاختلاف والحرب والقتال وسفك الدماء وضرب الرقاب فإن فرضهم الذي تعين عليهم من طريق الاجتهاد هو ذلك بعينه دون ما سواه لم يخرجوا بشيء منه عن طاعة الله ولا دخلوا به في شيء منه إلى معصيته وأنهم كانوا على الهدى والصواب ولو قصروا عنه مع الاجتهاد المؤدي إليه لضلوا عن الحق وخالفوا السبيل والرشاد وزعموا أنهم كانوا جميعا مع الحال التي انتهوا إليها من سفك الدماء وقتل النفوس والخروج عن الأموال والديار على أتم مصافاة ومودة وموالاة ومخالصة في الضمائر والنيات واستدلوا على ذلك وزعموا بأن قالوا وجدنا كل فريق من الفريقين متعلقا بحجة تعذره فيما أتاه وتوجب عليه العمل بما صنعه وذلك أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان مذهبه تحريم قتل الجماعة بالواحد وإن اشتركوا في قتله معا وهو مذهب مشهور من مذاهب أصحاب الاجتهاد ولم يثبت عنده أيضا أن المعروفين بقتل عثمان تولوه على ما ادعي عليهم من ذلك فلم يسعه تسليم القوم إلى من التمسهم منه ليقتلوهم بعثمان ووجب عليه باجتهاده الدفاع عنهم بكل حال.

[58]

و كان مذهب عائشة وطلحة والزبير قود الجماعة بالواحد من الناس وهو مذهب عمر بن الخطاب وغيره من الصحابة وجماعة من التابعين وبه دان جماعة من الفقهاء وأصحاب الاجتهاد وثبت عندهم أن الجماعة ليقتلون بالرجل الواحد وأن أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يسلمهم ليقتلوهم بعثمان وأن الناس قد تولوا قتله واشتركوا في دمه وكان إماما عندهم مرضيا قتل

بغير حق فلم يسعهم ترك المطالبة بدمه والاستقادة من قاتله وبذل الجهد في ذلك.

و اختلف الفريقان في ذلك لما ذكروه من الاجتهاد وعمل كل فريق منهم على رأيه وكان بذلك مأجورا وعند الله تعالى مشكورا وإن كانوا قد سفكوا فيه الدماء وبذلوا فيه الأموال وهذا مذهب جماعة قد شاهدتهم وكلمتهم وهم في وقتنا هذا خلق كثير وجم غفير.

فممن كلمتهم فيه من مشيخة أصحاب المخلوق المعروف بأبي بكر التمار الملقب بدرزان وكان في وقته شيخ أصحاب عبد الله بن سعيد بن كلاب وأكبرهم سنا وأكثرهم تقدما في مجالس الكلام.

و منهم محارب الصيداني المكنى بأبي العلاء خليفة أبي السائب في القضاء ومنهم المعروف بالرشفي.

[59]

و منهم المكنى بأبي عبد الله المعروف بابن مجاهد البصري الأشعري صاحب الباهلي تلميذ علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري.

و منهم المعروف بأبي بكر بن الطيب والمعروف بابن الباقلاني.

و منهم أبو العباس بن أبي الحسين بن أبي عمرو القاضي.

و جميع من سميت ممن جاريته في هذا الباب من أصحاب المخلوق بعضهم كلابية وبعضهم أشعرية وإليه يذهب في وقتنا هذا جمهور أصحاب الشافعي ببغداد والبصرة وخوزستان وبلاد فارس وخراسان وغيرها من الأمصار لا أعرف شافعيا له ذكر في قومه إلا وهو يذهب إلى هذا المذهب ليبعد به عن قول الشيعة وأهل الاعتزال.

[60]

آراء المعتزلة :

رأي واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد : واختلف في ذلك المعتزلة أيضا كاختلاف الحشوية فقال إماماهم المقدمان وشيخاهم المعظمان اللذان هما أصلان للاعتزال وافتتحا للمعتقدين فيه الكلام وهما فخر الجماعة منهم وجمالهم الذين لا يعدلون به سواه واصل بن عطاء الغزال وعمرو بن عبيد بن باب المكاري إن أحد الفريقين ضال في البصرة مضل فاسق خارج من الإيمان والإسلام ملعون مستحق الخلود في النار والفريق الآخر هاد مهدي مصيب مستحق للثواب والخلود في الجنات غير أنهم زعموا أنه لا دليل على

[61]

تعيين الفريق الضال ولا برهان على المهتدي ولا بينة يتوصل بها إلى تمييز أحدهما من الآخر في ذلك بحال من الأحوال وأنه لا يجوز أن يكون علي بن أبي طالب والحسن والحسين (عليهما السلام) ومحمد بن علي (عليه السلام) وعبد الله وقثم

والفضل وعبيد الله بنو العباس وعبد الله بن جعفر الطيار وعمار بن ياسر وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين وأبو أيوب الأنصاري وأبو الهيثم بن التيهان وكافة شيعة علي (عليه السلام) وأتباعه من المهاجرين والأنصار وأهل بدر وبيعة الرضوان وأهل الدين المتحيزين إليه والمتحققين بسمة الإسلام هم الفريق الضال والفاسق الباغي الخارج عن الإيمان والإسلام والعدو لله والبريء من دينه والملعون المستحق للخلود في النار وتكون عائشة وطلحة والزبير والحكم بن أبي العاص ومروان ابنه وعبد الله بن أبي سرح والوليد بن عقبة وعبد الله بن عامر بن كريز بن عبد شمس ومن كان في حيزهم من أهل البصرة هم الفريق المهدي الموفق إلى الله المصيب في حربه المستحق للإعظام والإجلال والخلود في الجنان قالا جميعا نعم ما ننكر ذلك ولا نؤمن به إذ لا دليل يمنع من الحكم به على ما ذكرناه بحال وكما أن قولنا ذلك في علي (عليه السلام) وأصحابه فكذلك هو في من حاربهم فإنا لسنا ننكر أنهم وأتباعهم على السوء ولسنا ننكر أن يكونوا هم الفريق الضال الملعون العدو لله البريء من دينه المستحق للخلود في النار وأن يكون علي (عليه السلام) وأصحابه هم الفريق الهادي المهتدي المتولي لله المجاهد في سبيله المستحق بقتاله عائشة وطلحة والزبير وقتل

[62]

من قتل منهم الجنة وعظيم الثواب قالا ومنزلة الفريقين كمنزلة المتلاعنين فيهما فاسق لا يعلمه على التمييز له والتعيين إلا الله عز وجل.

و هذه مقالة مشهورة عن هذين الرجلين قد سطرها الجاحظ عنهما في كتابه الموسوم بفضيلة المعتزلة وحكاها أصحاب المقالات عنهما ولم تختلف العلماء في المذاهب في صحتها عن الرجلين المذكورين وأنهما خرجا من الدنيا على التدين بها والاعتقاد لها بلا ارتياب.

رأي أبي الهذيل العلاف :

و حكى أحمد بن يحيى أن أبا الهذيل العلاف كان على هذا المذهب في أمير المؤمنين (عليه السلام) وعائشة وطلحة والزبير متبعا فيه إماميه المذكورين ولم يزل عليه إلى أن مات.

رأي أبي بكر الأصم :

و قال شيخ المعتزلة أيضا ومتكلمها في الفقه وأحكام الشريعة على أصولها

[63]

الأصم , المكنى بأبي بكر , الملقب بخربان : أنا أقف في كل من الفريقين فلا أحكم له بهدى ولا ضلال ولا أقطع على أحدهما بشيء من ذلك في التفصيل ولا الإجمال لكني أقول إن كان علي بن أبي طالب (عليه السلام) قصد بحرب عائشة وطلحة والزبير كف الفساد ومنع الفتنة في الأرض ودفعهم عن التغلب على الإمرة والعدوان على العباد فإنه مصيب مأجور وإن كان أراد

بذلك الجبرية والاستبداد بالأمر بغير مشورة من العلماء والإمرة على الناس بالقهر لهم على ذلك والإضرار فهو ضال مضل من أهل النار قال وإنما قلت ذلك لخفاء الأمر علي فيه واستتار النيات في معناه واشتباه أسباب الباطل فيه باستتار الحق عند العقلاء.

قال : وكذلك قولي في الفريق الآخر ; أقول إن عائشة وطلحة والزبير إن كانوا قصدوا بقتالهم علي بن أبي طالب وأصحابه منعهم من الاستبداد بالأمر من دون رضا العلماء به وأرادوا الطلب بدم عثمان والاقتصاص له من ظالميه برد الأمر شورى ليختار المسلمون من يرون فهم بذلك هداة أبرار مستحقون للثواب وإن كانوا أرادوا بذلك الدنيا والعصبية والإفساد في الأمر وتولي الأمر بغير رضا العلماء فهم بذلك ضلال مستحقون اللعنة والخلود في النار ; غير أنه لا دليل لي على أغراضهم فيه ولا حجة تظهر في معناه من أعمالهم فلذلك وقفت فيهم كما وقفت في علي وأصحابه كما بينت وإن كان طلحة والزبير أحسن حالا من علي فيما أتاه.

[64]

رأي هشام الفوطي وعباد بن سليمان :

و قال هشام الفوطي وصاحبه عباد بن سليمان الصيمري وهذان الرجلان أيضا من أئمة المعتزلة إن عليا وطلحة والزبير وعائشة في جماعة من أتباع الفريقين كانوا على حق وهدى وصواب وكان الباقون من أصحابهم على ضلال وبوار وذلك أن عائشة وطلحة والزبير إنما خرجوا إلى البصرة لينظروا في دم عثمان فيأخذوا بثأره من ظالميه وأرادوا بذلك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وطلبوا به وجه الله تعالى.

و خرج علي بن أبي طالب ليتفق معهم على الرأي والتدبير في مصالح الإسلام وأهله وكف السعي في الفتنة ومنع العامة مما ليس إليهم بل هو إلى وجوه العلماء وليقع التراضي بينهم على إنصاف واجتهاد في طلب الحق والاجتماع على الرأي.

فلما تراءى الجمعان تسرع غوغاؤهم إلى القتال فانتشب الحرب بينهم على غير اختيار من القادة والرؤساء وخرج الأمر عن أيديهم في تلافي ذلك فكان من الإيقاع في الفتنة وسفك الدماء ما لم يؤثره علي وطلحة والزبير وعائشة ووجوه أصحابهم من الفضلاء فهلك بذلك الأتباع ونجا الرؤساء.

[65]

و هذا يشبه ما قدمنا حكايته عن بعض العامة من وجه ويخالفه من وجه آخر تميز به الرجلان من الكافة ودفعا فيه علم الاضطرار وجحد المعروف بالعيان.

رأي سائر المعتزلة :

و قال باقي المعتزلة كبشر بن المعتمر وأبي موسى المردار وجعفر بن مبشر والإسكافي والخياط والشحام وأبي مجالد والبلخي والجبائي فيمن اتبعهم من أهل الاعتزال وجماعة الشيعة من الإمامية والزيدية إن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان

[66]

محقا في جميع حروبه مصيبا بقتال أهل البصرة والشام والنهروان مأجورا على ذلك مؤديا فرض الله تعالى في الجهاد وإن كل من خرج عليه وحاربه في جميع المواطن ضلال عن الهدى مستحقون بحربه والخلاف عليه النار غير أن من سميناه من المعتزلة خاصة استثنوا عائشة وطلحة والزبير من الحكم باستحقاق العقاب وزعموا أنهم خرجوا من ذلك إلى استحقاق الثواب بالتوبة والندم على ما فرط منهم في القتال فحكموا بضد الظاهر من الفعال المعلوم منهم والمقال وضعفوا في دعواهم عما هو صناعتهم من الحجاج وأظنهم اتقوا به من العامة وتقربوا بإظهاره إلى أمراء الزمان إذ لا شبهة تعترض أمثالهم من العلماء بالأخبار والنظار المتميزين بالكلام من أهل التقليد في فساد هذا الاعتقاد.

و خالف من سميناه من المعتزلة في هذا الباب الأصم خاصة فإنه زعم أن معاوية كان إماما محقا لإجماع الأمة عليه فيما قال بعد قتل أمير المؤمنين (عليه السلام) مع تظاهره بالشك منه في إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) حسبما حكينا عنه فيما سلف قبل هذا المكان وكل من سمينا منهم سوى الأصم مع تصويبه أمير المؤمنين (عليه السلام) وتفسيق محاربيه يقطع على معاوية وعمرو بن العاص في خلافهما أمير المؤمنين (عليه السلام) واستحلالهما حربه بالنار وأنهما خرجا من الدنيا

[67]

على الفسق الموبق لصاحبه الموجب عليه دوام العقاب وأن جميع من مات على اعتقاد إمامة معاوية وتصويبه في قتال أمير المؤمنين (عليه السلام) فهو عندهم ضال عن الهدى وخارج عن الإسلام مستحق للخلود في النار.

و قد وافق من سميناه من المعتزلة وكافة الشيعة الخوارج في تخطئة معاوية وعمرو بن العاص وتضليلهما في قتال أمير المؤمنين (عليه السلام) وجماعة من المرجئة وأصحاب الحديث من المجبرة غير أن هذين الفريقين وقفا في عذابهما ولم يقطعا

[68]

على دخولهما النار ورجوا لهما ولمحاربي أمير المؤمنين (عليه السلام) من أصحابهما وغيرهم ممن ظاهره الإسلام العفو من الله تعالى وقولهم في الخوارج كذلك مع حكمهم عليهم بالضلال.

[69]

رأي الخوارج :

و قالت الخوارج بأجمعها إن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان مصيبا في قتال أهل البصرة وأهل الشام وأنهم كانوا بقتاله ضلالا كفارا مستحقين للخلود في عذاب النار وادعوا مع ذلك أنه أخطأ بكفه عن قتال أهل الشام حين رفعوا المصاحف واحتالوا بذلك للكف عن قتالهم وشهدوا على أنفسهم بالإثم لوفاقهم في ذلك الرأي وكفهم عن قتال البغاة إلا أنهم زعموا لما ندموا على ذلك وتابوا منه ودعوا إلى القتال خرجوا من عهدة الضلال ورجعوا إلى ما كانوا عليه من الإسلام والإيمان وأن أمير المؤمنين (عليه

السلام) لما لم يجبهم إلى القتال وأقام على الموادعة لمعاوية وأهل الشام كان مرتدا بذلك عن الإسلام خارجا من الدين.

و شبهتهم في هذا الباب مضمحلة لا يلتبس فسادها على أهل الاعتبار وذلك أن أمير المؤمنين (عليه السلام) إنما كف عن قتال القوم لخذلان أصحابه في الحال وتركهم النصرة له وكفهم عن القتال فاضطروه بذلك إلى الإجابة لما دعوه إليه من تحكيم الكتاب ولم يجز له قتالهم من بعد لمكان العهد لهم في مدة الهدنة التي اضطر إليها للفساد في نقض العهود وحظر ذلك في كل ملة وخاصة ملة الإسلام.

[70]

رأي الشيعة :

و أجمعت الشيعة على الحكم بكفر محاربي أمير المؤمنين (عليه السلام) ولكنهم لم يخرجوهم بذلك عن حكم ملة الإسلام إذ كان كفرهم من طريق التأويل كفر ملة ولم يكن كفر ردة عن الشرع مع إقامتهم على الجملة منه وإظهار الشهادتين والاعتصام بذلك عن كفر الردة المخرج عن الإسلام وإن كانوا بكفرهم خارجين عن الإيمان مستحقين به اللعنة والخلود في النار حسبما قدمناه.

و كل من قطع على ضلال محاربي أمير المؤمنين (عليه السلام) من المعتزلة فهو يحكم عليهم بالفسق واستحقاق الخلود في النار ولا يطلق عليهم الكفر ولا يحكم عليهم بالإكفار ; والخوارج تكفر أهل البصرة والشام وتخرجهم بكفرهم الذي اعتقدوه فيهم ووسموهم به عن ملة الإسلام ; ومنهم من يسمهم بالشرك ويزيد على حكمه فيهم بالإكفار.

[71]

فهذه جمل القول فيما اختلف فيه أهل القبلة من أحكام الفتنة بالبصرة والمقتولين بها ممن ذكرناه وأحكام صفين والنهروان وقد تحريت القول فيها بالمحفوظ عن أرباب المذاهب المشهور عنهم عند العلماء وإن كان بعضها قد انقرض معتقدوه وحصل على فساد القول به الإجماع وبعضها له معتقد قبل ولم ينقرضوا إلى هذا الزمان وليس على فساده إجماع وإن كان في بطلانه أدلة واضحة لمن تأملها من ذوي الألباب.

و أنا بمشيئة الله وعونه أذكر طرفا من الاحتجاج على كل فريق منهم خالف الحق وأثبت من الأخبار الواردة في صواب فعل أمير المؤمنين (عليه السلام) وحقه في حروبه وأحكامه مختصرا يغني عن الإطالة بما ينتشر به الكلام وأشفع ذلك بما يتلوه ويتصل به من ذكر أسباب الفتنة بالبصرة على ما ضمنت من ذلك في أول الكتاب.

[73]

عصمة أمير المؤمنين (عليه السلام)

باب : القول على صواب فعل أمير المؤمنين (عليه السلام) في حروبه كلها :

و حقه في جميع أقواله وأفعاله والتوفيق المقرون بآرائه وبطلان مقال من خالف ذلك من خصمائه وأعدائه.

فمن ذلك وضوح الحجة على عصمته من الخطإ في الدين والزلل فيه والعصمة له من ذلك يتوصل إليها بضربين :

أحدهما : الاعتبار.

و الآخر : الوثوق بما ورد من الأخبار.

فأما طريق الاعتبار الموصول إلى عصمته (عليه السلام) فهو : الدليل على إمامته وفرض طاعته على الأنام إذ الإمام لا بد من أن يكون معصوما كعصمة الأنبياء (عليهم السلام) بأدلة كثيرة قد أثبتناها في مواضع من كتبنا المعروفة في الإمامة والأجوبة عن المسائل الخاصة في هذا الباب.

فمن ذلك : أن الأئمة قدوة في الدين وأن معنى الائتمام هو الاقتداء وقد ثبت أن

[74]

حقيقة الاقتداء هو الاتباع للمقتدى به فيما فعل وقال من حيث كان حجة فيه دون الاتباع لقيام الأدلة على صواب ما فعل وقال بسوى ذلك من الأشياء إذ لو كان الاقتداء هو الاتباع للمقتدى به من جهة حجة سواه على ذلك كان كل وفاق لذي نحلة في قول له أو فعل لا من جهة قوله وفعله بل لحجة سواه اقتداء به وائتماما وذلك باطل لوفاقنا الكفار من اليهود والنصارى وغيرهم من أهل الباطل والضلال في بعض أقوالهم وأفعالهم من حيث قامت الأدلة على صواب ذلك فيهم لا من حيث ما رأوه وقالوه وفعلوه وذلك باطل بلا ارتياب.

و من ذلك : أحد أسباب الحاجة إلى الأئمة هو جواز الغلط على الرعية وارتفاع العصمة عنها ليكون من ورائها يسدد الغالط منها ويقومه عند الاعوجاج وينبهه عند السهو منه والإغفال ويتولى إقامة الحد عليه فيما جناه فلو لم تكن الأئمة المعصومون معصومين كما أثبتناه لشاركت الرعية فيما تحتاج إليه مما ذكرناه وكانت تحتاج إلى أئمة عليها ولا تستغني عن رعاة لها وساسة تكون من ورائها وذلك باطل بالإجماع على أن الأئمة أغنياء عن إمام.

و غير ما ذكرناه من الأدلة على عصمتها كثير وهو موجود في أماكنه من كتبنا على بيان للوجوه واستقصاء فإذا ثبتت عصمة الأئمة (عليه السلام) حسبما وصفناه وأجمعت الأمة على أنه لو كان بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إماما على الفور تجب طاعته على الأنام وجب القطع على أنه أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) دون غيره ممن ادعيت له الإمامة في تلك الحال للإجماع على أنه لم تكن لواحد ممن ذكروه العصمة التي أوجبناها بالنظر الصحيح لأئمة الإسلام وإجماع الشيعة

[75]

الإمامية على أن علي بن أبي طالب (عليه السلام) كان مخصوصا بها من بين الأنام إذ لو لم يكن الأمر كذلك لخرج الحق عن إجماع أهل الصلاة وفسد ما في العقول من وجوب العصمة لأئمة المسلمين بما ذكرناه وإذا ثبت عصمة أمير المؤمنين (عليه السلام) من الخطإ ووجب مشاركته للرسول في معناه ومساواته فيها ثبت أنه كان مصيبا في كل ما فعل وقال ووجب القطع على خطإ مخالفيه وضلالهم في حربه واستحقاقهم بذلك العقاب وهذا بين لمن تدبره والله الموفق للصواب.

و من ذلك : ثبوت الحاجة إلى الإمامة باتفاق وفساد ثبوت الإمامة من جهة الشورى والآراء فإذا ثبت ذلك وجب النص على الأئمة وفي وجوبه تثبت إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) إذ الأمر بين رجلين أحدهما يوجب الإمامة بالنص ويقطع على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن جهته دون ما سواها من الجهات ; والآخر يمنع من ذلك ويجوزها بالرأي وإذا فسد هذا الفريق لفساد ما ذهبوا إليه من عقد الإمامة بالرأي ولم يصح خروج الحق عن أئمة الإسلام ثبت إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

و أما طريق الوثوق بالآثار , فمما يدل على إمامته (عليه السلام) من نص القرآن قوله تعالى اسمه إِنَّما وَلِيُّكُمُ اللَّهُ ورَسُولُهُ والَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاةَ ويُؤْتُونَ الزَّكاةَ وهُمْ راكِعُونَ.

و هذا خطاب متوجه إلى جماعة جعل الله لهم أولياء أضيفوا إليهم بالذكر والله وليهم ورسوله ومن عبر عنه بأنه من الذين آمنوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وهم راكعون يعني حال ركوعهم بدلالة أنه لو أراد سبحانه بالخطاب جميع المكلفين

[76]

لكان هو المضاف ومحال إضافة الشيء إلى نفسه وإنما تصح إضافته إلى غيره وإذا لم تكن طائفة تختص بكونها أولياء لغيرها وليس لذلك الغير مثل ما اختصت به في الولاء وتفرد من جملتهم من عناه الله بالإيمان والزكاة في حال ركوعه لم يبق إلا ما ذهبت إليه الشيعة من ولاية علي أمير المؤمنين (عليه السلام) على الأمة من حيث الإمامة له عليها وفرض الطاعة ولم يكن أحد يدعى له الزكاة في حال ركوعه إلا أمير المؤمنين (عليه السلام) فقد ثبتت إمامته بذلك الترتيب الذي رتبناه وفي ثبوت إمامته ثبوت ما قدمناه فصح أنه مصيب في جميع أقواله وأفعاله وتخطئة مخالفيه حسبما شرحناه.

دليل آخر : ومن الخبر ما أجمع عليه أهل القبلة ولم يتنازع في صحة الخبر به من أهل العلم بالرواية والآثار اثنان.

و هو قول النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) : أنت مني بمنزله هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.

[77]

فأوجب له بذلك منه جميع ما كان لهارون من موسى في المنازل إلا ما استثناه من النبوة وفي ذلك أن الله تعالى قد فرض طاعته على أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) كما كان فرض طاعة هارون على أمة موسى وجعله إماما لهم كما كان هارون

إماما لقوم موسى وأن هذه المنزلة واجبة له بعد مضي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كما كانت تجب لهارون لو بقي بعد أخيه موسى ولم يجز خروجه عنها بحال وفي ذلك ثبوت إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام).

و الإمامة تدل على عصمة صاحبها كما بيناه فيما سلف ووصفناه ; والعصمة تقضي فيمن وجبت له بالصواب في الأقوال والأفعال على ما أثبتناه فيما تقدم من الكلام وفي ذلك بيان عن صواب أمير المؤمنين (عليه السلام) في حروبه كلها وأفعاله بأجمعها وأقواله بأسرها وخطإ مخالفيه وضلالهم عن هداه وقد أشبعنا الماضي من كلامنا في ذلك بيانا له والمنة لله.

و في هذه الأدلة لأهل الخلاف من المعتزلة والحشوية والخوارج أسئلة قد أجبنا عنها في مواضعها من غير هذا الكتاب وأسقطنا شبهاتهم بدليل البرهان ولم نوردها هاهنا لغنانا عن ذلك بثبوتها فيما سواه وإنما اقتصرنا على ذكر هذه الأدلة ووجوهها وعدلنا عن إيراد ما في معناها والمتفرع عليه لإثبات رسم الحجاج في صواب أمير المؤمنين (عليه السلام) وفساد مذهب الناكثين فيه والإيماء إلى أصول ذلك ليقف عليه من نظر في كتابنا هذا ويعلم العمدة بما فيه ويستوفي معانيه فإن أحب ذلك يجده في مواضعه المختصة به لنا ولغيرنا من متكلمي عصابة الحق ولأن الغرض من هذا الكتاب ما لا يفتقر إلى هذه الأدلة من براهين إصابة أمير المؤمنين (عليه السلام) في

[78]

حروبه وخطإ مخالفيه ومحاربيه فإنا سنذكره فيما يلي هذا الفصل من الكلام ونوضح الحجة فيه على أصول مخالفينا أيضا في طريق الإمامة وثبوتها عندهم من جهة الآراء وإنكارهم ما نذهب إليه من قصور طريقها على النص والتوفيق كما قدمناه وبيناه من الغرض فيه ووصفناه.

[79]

الدليل على أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان مصيبا في حروبه كلها :

و من الدليل على أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان مصيبا في حروبه كلها وأن مخالفيه في ذلك على ضلال ما تظاهرت به الروايات عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) :

من قوله : حربك يا علي حربي وسلمك يا علي سلمي.

و قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : يا علي أنا حرب لمن حاربك وسلم لمن سالمك.

و هذان القولان مرويان من طريقي العامة والخاصة والمنتسبة من أصحاب الحديث إلى السنة والمنتسبين منهم إلى الشيعة لم يعترض أحد من العلماء الطعن على سندهما ولا ادعى إنسان من أهل المعرفة بالآثار كذب رواتهما وما كان هذا سبيله وجب تسليمه والعمل به إذ لو كان

[80]

باطلا لما خلت الأمة من عالم منها ينكره ويكذب رواته ولا سلم من طعن فيه ولعرف سبب تخرصه وافتعاله ولأقيم دليل الله سبحانه على بطلانه وفي سلامة هذين الخبرين من جميع ما ذكرناه حجة واضحة على ثبوتهما حسبما بيناه.

و من ذلك :.

الرواية المستفيضة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أنه قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) : تقاتل يا علي على تأويل القرآن كما قاتلت على تنزيله.

و قوله لسهيل بن عمر ومن حضر معه لخطابه على رد من أسلم من مواليهم : لتنتهن يا معشر قريش أو ليبعث الله عليكم رجلا يضربكم على تأويل القرآن كما ضربتكم على تنزيله فقال له بعض أصحابه من هو يا رسول الله ؟ هو فلان ؟

قال : لا.

قال : ففلان ؟

قال : لا ; ولكنه خاصف النعل في الحجرة.

فنظروا ; فإذا علي (عليه السلام) في الحجرة يخصف نعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

و من ذلك :.

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأمير المؤمنين (عليه السلام) : تقاتل بعدي الناكثين والقاسطين والمارقين.

و القول في هذه الرواية كالأخبار التي تقدمت قد سلمت من طاعن في سندها بحجة ومن قيام دليل على بطلان ثبوتها وسلم لروايتها الفريقان فدل على صحتها.

و من ذلك :

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : علي مع الحق والحق مع علي اللهم أدر الحق مع علي حيثما دار.

و هذا أيضا خبر قد رواه محدثو العامة وأثبتوه في الصحيح عندهم ولم يعترض أحدهم لتعليل سنده ولا أقدم منهم مقدم على تكذيب ناقله وليس توجد حجة في العقل ولا السمع على فساده فوجب الاعتقاد بصحته وصوابه.

و من ذلك :.

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وانصر من نصره واخذل من خذله.

و هذا في الرواية أشهر من أن يحتاج معه إلى جمع السند له وهو أيضا مسلم عند نقلة الأخبار.

و قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعلي (عليه السلام) : قاتل الله من قاتلك وعادى من عاداك.

و الخبر بذلك مشهور وعند أهل الرواية معروف مذكور.

و من ذلك :.

قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : من آذى عليا فقد آذاني ومن آذاني فقد آذى الله تعالى.

[82]

فحكم أن الأذى له (عليه السلام) أذى الله والأذى لله جل اسمه هلاك مخرج عن الإيمان قال الله عز وجل إِنَّ الَّذِينَ يُؤْذُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فِي الدُّنْيا والْآخِرَةِ وأَعَدَّ لَهُمْ عَذاباً مُهِيناً.

و أمثال ما أثبتناه من هذه الأخبار في معانيها الدالة على صواب أمير المؤمنين (عليه السلام) وخطإ مخالفيه كثيرة إن عملنا على إيراد جميعها طال به الكتاب وانتشر به الخطاب وفيما أثبتناه منه للحق كفاية للغرض الذي نأمله إن شاء الله تعالى.

[83]

فصل : الاعتراض بأن الدليل من الأخبار الآحاد والجواب عنه :

فإن قال قائل : إن كنتم قد اعتمدتم على هذه الأخبار في عصمة أمير المؤمنين (عليه السلام) وهي آحاد ليست من المتواتر الذي يمنع على قائليه الافتعال فما الفصل بينكم وبين خصومكم فيما يتعلقون به من أمثالها عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في فضائل فلان وفلان ومعاوية بن أبي سفيان ؟

قيل له : الأخبار التي يتعلق بها أهل الخلاف في دعوى فضائل من سميت على ضربين:

أحدهما :لا تنكر صحته وإن كان خصومنا منفردين بنقله إذ ليس فينا مشارك لهم في شيء منه كما شاركنا الخصوم في نقل ما أثبتناه من فضائل أمير المؤمنين (عليه السلام) إلا أنهم يغلطون في دعوى التفضيل لهم به على ما يتخيلون في معناه.

و الآخر : مقطوع بفساده عندنا بأدلة واضحة لا تخفى على أهل الاعتبار وليست مما تساوي أخبارنا التي قدمناها لقطعنا على بطلان ما تفردوا به من ذلك وطعننا على رواتها واستدلالنا على فسادها وإجماع مخالفينا على رواية ما رويناه مما قد

[84]

بيناه وتسليمه وتخليده صحفهم كما ذكرنا وعدولهم عن الطعن في شيء منه حسبما وصفناه وما كان هذا سبيله ليس يكون الأمر فيه كذلك إلا لاعتقاد القوم صحته وتسخيرهم لنقله وتسليمهم لرواته إذ كانت العادة جارية بأن كل شيء يتعلق به متعلق في حجاج مخالفيه ونصرة مذهبه المتفرد به دون خصمه وكان في الإقرار به شبهة على صحة مقالته المباينة لمقال مخالفيه فإنه لا يخلو من دافع له وجاحد وطاعن فيما يروم إبطاله إلا أن تميز الحجة في صوابه وأن يكون ملطوفا له في اعتقاده أو مسخرا للإقرار به حجة لله تعالى في صحته ودليلا على ثبوته وبرهانا منه على نصرته وقوة المحتج به وتأييد الحق فيه بلطف من لطائفه.

فإذا كان الأمر في هذا الباب على ما بيناه وثبت تسليم الفريقين لأخبارنا مع اختلافهم في الاعتقاد على ما ذكرناه وصح الاختلاف بيننا وبين خصومنا في الاحتجاج بالأخبار وبراهينها حسبما اعتمدناه سقط توهم المخالف لما تخيله من المساواة بين الأمرين وتظناه.

[85]

إنكار الخوارج والأموية والعثمانية فضل أمير المؤمنين (عليه السلام) :

فإن عارضوا بالخوارج وقالوا : هم يدفعون ما أثبتموه من الأخبار الدالة على عصمة أمير المؤمنين (عليه السلام) وذكروا الأموية وما يعرف من سلوكهم وظاهر أمرهم في جحد ما رويناه وقالوا حكمكم في جحد أخبارنا كحكمهم في جحد أخباركم سواء وإلا فما الفصل بين الأمرين ؟

فإنه يقال لهم : الفصل بيننا وبين من عارضتم به من الخوارج في دفع النقل ظاهر لذوي الاعتبار وذلك أن الخوارج ليسوا من أهل النقل والرواية ولا يعرفون بحفظ الآثار ولا الاعتماد على الأخبار لإكفارهم الأمة جميعا واتهام كل فريق منهم فيما يروونه واعتمادهم لذلك على ظاهر القرآن وإنكارهم ما خرج عن الكتاب من جميع الفرائض والأحكام ومن كان هذا طريقه ودينه وسبيله في اعتقاده ومذهبه في النقل والأخبار لم يعتن بخلافه فيها على حال.

فأما سبيل الأموية وطريق العثمانية : فسبب جحودهم لفضائل أمير المؤمنين

[86]

(عليه السلام) معروف ; وهو الحرص على دولتهم والعصبية لملوكهم وجبابرتهم وهم كالخوارج في سقوط الاعتراض بهم فيما طريقه النقل وبعده عن علمهم ونبوهم عن فهمه وإطراحهم للعمل به وقد انقرضوا مع ذلك بحمد الله ومنه حتى لم يبق منهم أحد ينسب إلى فضل على حال ولا منهم من يذكر في جملة العلماء لخلافه في شيء من أحكام الملة فسقط الاعتراض بهم كسقوط الاعتراض بالمارقة فيما تعتمد فيه على الأخبار مع أن الخوارج متى تعاطت الطعن في أخبارنا التي أثبتناها في الحجة على عصمة أمير المؤمنين (عليه السلام) فإنما يقطعونها بالطعن على رواتها في دينها المخالف لما تدين به من إكفار علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعثمان وطلحة والزبير وعائشة ابنة أبي بكر وإكفار من تولى واحدا منهم أو اعتقد أنه من أهل الإسلام وذلك طعن يعم جميع نقلة الدين من الملة فسقط لذلك قدحهم في الأخبار وليس كذلك طعوننا في نقل ما تفردت به الناصبة في الحديث لأنا نطعن في رواته لكذبهم فيه وقيام الحجة على بطلان معانيه دون الطعن في عقائدهم وإن كانت عندنا فاسدة فوضح الفرق بيننا وبين من عارضنا من الخصوم برأيه في الأخبار على ما شرحناه.

[87]

باب آخر ; من القول في صواب أمير المؤمنين (عليه السلام) في حروبه و خطإ مخالفيه وضلالهم عن الحق

قد بينا أن الحكم على محاربي أمير المؤمنين (عليه السلام) بالضلال والقضاء له في حربه بالصواب إذا بني القول فيه على إمامته المنصوصة وعصمته الواجبة له بما قدمناه ثبت القطع على حقه في كل ما فعل وقال وإذا صحت الأخبار التي ذكرناها فيما قبل هذا المكان ومضمونها من حكم النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على محاربيه بالفسق المخرج عن الإيمان لم يكن طريق إلى الشك في صوابه وخطإ مخالفيه على ما بيناه وفيما أسلفناه في ذلك مقنع لذوي الألباب وغنى لهم في الحجة على خصومهم فيما سواه ونحن نبين القول في ذلك أيضا بعد الذي تقدم في معناه على مذهب خصومنا في الإمامة وثبوت البعد لهم من ذوي الرأي حسب اختلافهم في عدد يتم به العقد واجتماعهم على ما اتفقوا عليه في هذا الباب ليعلم الناظر في كتابنا هذا قوة الحق وتمكن ناصريه من الاحتجاج له والله الموفق للصواب.

[89]

فصل ; في البيعة لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

قد ثبت بمتواتر الأخبار ومتظاهر الأحاديث والآثار أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان معتزلا للفتنة بقتل عثمان وأنه بعد عن منزله في المدينة لئلا تتطرق عليه الظنون برغبته في البيعة للأمرة على الناس وأن الصحابة لما كان من أمر عثمان ما كان التمسوه وبحثوا عن مكانه حتى وجدوه فصاروا إليه وسألوه القيام بأمر الأمة وشكوا إليه ما يخافونه من فساد الأمة فكره إجابتهم إلى ذلك على الفور والبدار لما علمه من عاقبة الأمور وإقدام القوم على الخلاف عليه والمظاهرة له بالعداوة والشنئان فلم يمنعهم إباؤه من الإجابة عن الإلحاح فيما دعوه إليه وأذكروه

[90]

بالله عز وجل وقالوا له إنه لا يصلح للإمامة بالمسلمين سواك ولا نجد أحدا يقوم بهذا الأمر غيرك فاتق الله في الدين وكافة المسلمين.

فامتحنهم عند ذلك بذكر من نكث بيعته بعد أن أعطاها بيده على الإيثار وأومأ لهم إلى مبايعة أحد الرجلين وضمن النصرة لهما متى أرادا لإصلاح الدين وحياطة الإسلام فأبى القوم عليه تأمير من سواه والبيعة لمن عداه.

و بلغ ذلك طلحة والزبير فصارا إليه راغبين في بيعته منتظرين للرضا بتقدمه فيهما وإمامته عليهما فامتنع الاستظهار فألحا عليه في قبول بيعتهما له واتفقت الجماعة كلها على الرضا به وترك العدول عنه إلى سواه وقالوا إن لم تجبنا إلى ما دعوناك إليه من تقليد الأمر وقبول البيعة انفتق في الإسلام ما لا يمكن رتقه وانصدع في الدين ما لا يستطاع شعبه.

فلما سمع ذلك منهم بعد الذي ذكرناه من الإباء عليهم والامتناع لتأكيد الحجة لنفسه بسط (عليه السلام) يده لبيعتهم فتداكوا عليه تداك الإبل على حياضها يوم ورودها حتى شقوا أعطافه ووطئوا ابنيه الحسن والحسين (عليهما السلام) بأرجلهم لشدة ازدحامهم عليه وحرصهم على البيعة له والصفقة بها على يده رغبة بتقديمه على كافتهم وتوليته أمر جماعتهم لا يجدون عنه معدلا ولا يخطر ببالهم سواه لهم موئلا فتمت بيعته بالمهاجرين والبدريين والأنصار والعقبيين المجاهدين في الدين والسابقين إلى الإسلام من المؤمنين وأهل البلاء الحسن مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) من الخيرة البررة الصالحين.

[91]

و لم تكن بيعته (عليه السلام) مقصورة على واحد واثنين وثلاثة ونحوها في العدد ; كما كانت بيعة أبي بكر مقصورة على بعض أصحابه على بشير بن سعد فتمت بها عنده , ثم اتبعه عليها من تابعه من الناس.

و قال بعضهم : بل تمت ببشير بن سعد وعمر بن الخطاب.

و قال آخرون منهم : بل تمت بالرجلين المذكورين وأبي عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبي حذيفة ; واعتمدوا في ذلك على أن البيعة للإمام لا تتم بأقل من أربعة نفر من المسلمين.

و قال بعضهم : بل تمت بخمسة نفر بشير بن سعد وأسيد بن خضير من الأنصار وعمر وأبو عبيدة وسالم من المهاجرين ; ثم بايعه الناس بعد تمامها بالخمسة المذكورين.

و ممن ذهب إلى هذا المذهب الجبائي وابنه والبقية من أصحابهما في هذا الزمان.

و قالوا في بيعة عمر بن الخطاب مثل ذلك ; فزعم من يذهب إلى أن البيعة تتم بواحد من الناس وهم جماعة من المتكلمين منهم الخياط والبلخي وأبو مجالد ومن ذهب مذهبهم من أصحاب الاختيار أن الإمامة تمت لعمر بأبي بكر وحده وبعقده له إياه دون من سواه.

و كذلك قالوا في عثمان بن عفان والعقد له إنه تم بعبد الرحمن بن عوف خاصة وخالفهم على ذلك من أضاف إلى المذكورين غيرهم في العقد فزعم أن بيعة عمر انفردت من الاختيار له عن الإمام وعثمان إنما تم له الأمر ببيعة بقية أهل الشورى

[92]

و هم خمسة نفر أحدهم عبد الرحمن فاعترفت الجماعة من مخالفينا بما هو حجة عليهم في الاختلاف على أئمتهم وبشذوذ العاقدين لهم وانحصار عددهم بمن ذكرناه.

و ثبتت البيعة لأمير المؤمنين (عليه السلام) بإجماع من حوته مدينة الرسول من المهاجرين والأنصار وأهل بيعه الرضوان ومن انضاف إليهم من أهل مصر والعراق في تلك الحال من الصحابة

والتابعين لهم بإحسان ولم يدع أحد من الناس أنها تمت له بواحد مذكور ولا إنسان مشهور ولا بعدد محصور فيقال تمت بيعته بفلان واحد أو فلان وفلان كما قيل في بيعة أبي بكر وعمر وعثمان.

وجوب طاعة أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و إذا ثبت بالإجماع من وجوه المسلمين وأفاضل المؤمنين والأنصار والمهاجرين العقد على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) والبيعة له على الطوع والإيثار وكان العقد على الوجه الذي ثبتت به إمامة الثلاثة قبله عند الخصوم بالاختيار وعلى أوكد منه بما ذكرناه في الرغبة إليه في ذلك من الإجماع عليه ممن سميناه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان حسبما بيناه ثبت فرض طاعته وحرم على كل واحد من الخلق التعرض لخلافه ومعصيته ووضح الحق في الحكم على مخالفيه ومحاربيه بالضلال عن هدايته والقضاء بباطل مخالفة أمره وفسقهم بالخروج عن طاعته لما أوجب الله تعالى من طاعة أولياء أمره في محكم كتابه حيث يقول يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا

[93]

اللَّهَ وأَطِيعُوا الرَّسُولَ وأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فقرن طاعة الأئمة بطاعته ودل على أن المعصية لهم كمعصيته على حد سواء في حكمه وقضيته وأجمع أهل القبلة مع من ذكرناه على فسق محاربي أئمة العدل وفجورهم بما يرتكبونه بحكم السمع والعقل.

و إذا لم يكن أمير المؤمنين (عليه السلام) أحدث بعد البيعة العامة له ما يخرجه عن العدالة ولا كان قبلها على ظاهر خيانة في الدين ولا خرج عن الإمامة كان المارق عن طاعته ضالا فكيف إذا أضاف إلى ذلك حربا له واستحلالا لدمه ودماء المسلمين معه ويبغي بذلك في الأرض فسادا يوجب عليه التنكيل بأنواع العقاب المذكور في نص الكتاب من قوله تعالى إِنَّما جَزاءُ الَّذِينَ يُحارِبُونَ اللَّهَ ورَسُولَهُ ويَسْعَوْنَ فِي الْأَرْضِ فَساداً أَنْ يُقَتَّلُوا أَوْ يُصَلَّبُوا أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وأَرْجُلُهُمْ مِنْ خِلافٍ أَوْ يُنْفَوْا مِنَ الْأَرْضِ.

و هذا بين لمن لم يحجب عنه الهوى ويصد عن فهمه العمى والله ولي التوفيق.

[94]

فصل ; في المتخلفين عن أمير المؤمنين (عليه السلام) :

فإن قال قائل كيف يتم لكم دعوى الإجماع على بيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد علمتم أن الأخبار قد ثبتت بتخلف سعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمر بن الخطاب وأسامة بن زيد ومحمد بن مسلمة ومظاهرتهم له بالخلاف فيما رآه من القتال.

قيل له أما تأخر من سميت عن الخروج مع أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى البصرة فمشهور ورأيهم في القعود عن القتال معه ظاهر معروف وليس ذلك بمناف لبيعتهم له على الإيثار ولا مضاد للتسليم لإمامته على الاختيار والذي ادعى عليه

الامتناع في البيعة أشكل عليه الأمر فظن أنهم لو تأخروا عن نصرته لكان ذلك منهم لامتناعهم عن بيعته وليس الأمر كما توهم لأنه قد يعرض للإنسان شك فيمن تيقن سلطانه في صوابه ولا يرى السلطان حمله على ما هو شاك فيه لضرب من الرأي يقتضيه الحال في صواب التدبير وقد يعتقد الإنسان أيضا صواب غيره في شيء ويحمله الهوى على خلافه فتظهر فيما صار إليه من ذلك شبهة تعذره عند كثير من الناس في فعاله وليس كل من اعتقد طاعة إمامه كان مضطرا إلى وفاقه بل قد يجتمع الاعتقاد لحق

[95]

الرئيس المقدم في الدين مع العصيان له في بعض أوامره ونواهيه ولو لا أن ذلك كذلك لما عصى الله تعالى من يعرفه ولا خالف نبيه من يؤمن به وليس هذا من مذهب خصومنا في الإمامة فتوضح عنه بما يكسر شبهة مدعية على أن الأخبار قد وردت بإذعان القوم بالبيعة مع إقامتهم على ترك المساعدة والنصرة وتضمنت عذرا لهم زعموا في ذلك وجاءت بما كان من أمير المؤمنين (عليه السلام) فيما أظهروه من إنكاره له بحسب ما اقتضته الحال في مثله من الخطإ فيما ارتكبوه.

فروى أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي في كتابه الذي صنفه في حرب البصرة عن أصحابه وروى غيره من أمثاله من الرواة للسير عن سلفهم وأصحابهم : أن أمير المؤمنين (عليه السلام) لما هم بالمسير إلى البصرة بلغه عن سعد بن أبي وقاص وابن مسلمة وأسامة بن زيد وابن عمر تثاقل عنه فبعث إليهم فلما حضروا قال لهم قد بلغني عنكم هنات كرهتها وأنا لا أكرهكم على المسير معي أ لستم على بيعتي ؟

قالوا : بلى.

قال : فما الذي يقعدكم عن صحبتي ؟

فقال له سعد : إني أكره الخروج في هذا الحرب لئلا أصيب مؤمنا فإن أعطيتني سيفا يعرف المؤمن من الكافر قاتلت معك.

و قال له أسامة : أنت أعز الخلق علي ولكني عاهدت الله أن لا أقاتل أهل لا إله إلا الله ; وكان أسامة قد أهوى برمحه في عهد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى رجل في الحرب من المشركين فخافه الرجل فقال لا إله إلا الله فشجره

[96]

بالرمح فقتله وبلغ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خبره فقال يا أسامة أ قتلت رجلا يشهد أن لا إله إلا الله ؟

فقال يا رسول الله : إنما قالها تعوذا.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) له : أ لا شققت قلبه ؟

فزعم أسامة أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمره أن يقاتل بالسيف ما قاتل المشركين فإذا قاتل المسلمين ضرب بسيفه الحجر فكسره.

و قال عبد الله بن عمر : لست أعرف في هذا الحرب شيئا أسألك ألا تحملني على ما لا أعرف.

فقال لهم أمير المؤمنين (عليه السلام) : ليس كل مفتون معاتب , أ لستم على بيعتي ؟

قالوا : بلى.

قال : انصرفوا فسيغني الله تعالى عنكم.

فقد اعترفوا له (عليه السلام) بالبيعة وأقاموا في تأخرهم عنه معاذير لم يقبلها منهم , وأخبر أنهم بترك الجهاد معه مفتونون ولم ير الإنكار عليهم في الحال بأكثر مما أبداه من ذكر زللهم عن الصواب في خلافه والشهادة بفتنتهم بترك وفاقهم له لأن الدلائل الظاهرة على حقه تغني عن محاجتهم بالكلام ومعرفته بباطن أمرهم الذي أظهروا خلافه في الاعتذار يسقط عنه فرض التنبيه الذي يحتاج إليه أهل الرقدة عن البيان وقد قال الله تعالى في تأكيد ما ذكرناه وحجة على من وصفناه بَلِ الْإِنْسانُ عَلى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ ولَوْ أَلْقى مَعاذِيرَهُ.

[97]

كلام بعض العلماء في ذكر أسباب تخلف القوم :

و قد ذكر بعض العلماء أن أسباب القوم في تأخرهم عن نصرة أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد البيعة له معروفة وأن الذي أظهروه من الأعذار في خلافه خداع منهم وتمويه وستر على أنفسهم مما استبطنوه منه خوفا من الفضيحة فيه , فقال : أما سعد بن مالك ; فسبب قعوده عن نصرة أمير المؤمنين (عليه السلام) الحسد له والطمع الذي كان منه في مقامه الذي يرجوه فلما خاب من أمله حمله الحسد على خذلانه والمباينة له في الرأي.

قال : والذي أفسد سعدا وأطمعه فيما ليس له بأهل وجرأة على مسامات أمير المؤمنين (عليه السلام) , عمر بن الخطاب , بإدخاله إياه في الشورى وتأهيله إياه للخلافة وإيهامه لذلك أنه محل للإمامة فأقدم عليه وأفسد حاله في الدنيا والدين حتى خرج منها صفرا مما كان يرتجيه.

و أما أسامة بن زيد : فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) كان ولاه في مرضه الذي توفي فيه على أبي بكر وعمر وعثمان فلما مضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لسبيله انصرف القوم عن معسكره وخدعوه بتسميته مدة حياتهم له بالإمرة مع

[98]

تقدمهم عليه بالخلافة وصانعوه بذلك بما خالفوه فيه من السمع له والمسير معه والطاعة واغتر بخداعهم وتقبل منهم مصانعتهم وكان يعلم أن أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يسمح له بالخداع ولا يصانعه مصانعة القوم ويحذفه من التسمية التي

جعلوها له ولا يرفعه عن منزلته ويسير به سيرته في عبيده وموالي نعمته إذ كان ولاؤه بالعتق الذي كان من إنزاعه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لأبيه بعد استرقاقه فصار كذلك بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) غير أنه منه في الولاء فكره الانحطاط عن رتبته التي رتبها القوم فيه ولم يجد إلى التخلص من ذلك إلا كفر النعمة والمباينة لسيده والخلاف لمولاه فحمل نفسه على ذلك لما ذكرناه.

و أما محمد بن مسلمة : فإنه كان صديق عثمان بن عفان وخاصته وبطانته فحملته العصبية له على معاونة الطالبين بثأره وكره أن يتظاهر بالكون في حيز المحاربين لهم المباينين طريقهم ولم ير بمقتضى الحال ولا شيعه وريده معاونة أعدائه ولا سمحت نفسه بذلك فأظهر من العذر بتأخره عن نصرة أمير المؤمنين (عليه السلام) بخلاف باطنه منه مماكرة وسترا للقبيح من سريرته.

و أما عبد الله بن عمر : فإنه كان ضعيف العقل كثير الجهل ماقتا لأمير المؤمنين وراثة الخلف عن السلف ما يرثونه من المودة والعداوة وكان أمير المؤمنين (عليه السلام) قد أشجاه مع ذلك بهدر دم أخيه عبيد الله لقتله الهرمزان وأجلاه عن المدينة وشرده عن البلاد لا يأمن على نفسه من الظفر به فيسقط قودا فلم تسمح نفسه

[99]

بطاعة أمير المؤمنين (عليه السلام) ولا أمكنه المقت من الانقياد له لنصرته وتجاهل بما أبداه من الحيرة في قتال البغاة والشك في سبب ذلك وحجته.

و روي هذا الكلام بعينه عن أمير المؤمنين (عليه السلام) في أسباب تأخر القوم عنه فإن صحت الرواية بذلك فهو أوكد لحجته وإن لم تثبت كفى في برهانه أن قائله من أهل العلم له صحة فكر وصفاء فطنة.

على أنا لو سلمنا لخصومنا ما ادعوه من امتناع سعد وابن مسلمة وأسامة وابن عمر من بيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) وكراهتهم لها واعتزالهم إياها وأضفنا إليهم في ذلك أمثالهم ممن ظاهره بالعداوة كزيد بن ثابت وحسان بن ثابت ومروان بن الحكم بن أبي العاص وعبد الله بن الزبير وولد عثمان بن عفان ; وجماعة ممن كان معهم في الدار يوم الحصار ; وسفهاء بني أمية المعروفين بمقت بني هاشم وعداوتهم والمباينة لهم في الجاهلية والإسلام بالخلاف ; لما قدح فيما اعتمدنا من دليل إمامته (عليه السلام) الذي بنينا القول فيه على مذاهب الخصوم من الحشوية والمرجئة والخوارج وأهل الاعتزال وقاعدتهم في ثبوت البيعة بالاختيار من أهل الرأي إذ كنا لم نقل في ذلك بإجماع كافة أهل الإسلام وإنما اعتمدنا ما يثبت عند العقل على أمور القوم في بيعة أهل الفضل منهم والاجتهاد واستظهرنا في التأكيد لذلك بذكر إجماع المهاجرين الأولين وعيون الأنصار وفضلاء المسلمين ممن حوته المدينة يومئذ

و التابعين بإحسان والخيرة الصالحين من أهل الحجاز والعراق ومصر وغيرها من البلاد الذين كانوا حاضرين بالمدينة يومئذ لأنهم كانوا بأجمعهم سوى من يعتصم بخلافه الخصوم ومحصور عددهم لقلتهم رضوا بإمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) ورغبوا إليه في تولي الأمر وسألوه ورأوا أن لا يستحق لها سواه وتابعوه على الطوع منهم والإيثار وبذلوا نفوسهم من بعد البيعة له في الجهاد واعتقدوا أن التأخر عن طاعته في قتال أعدائه ضلال موبق وفسق مخرج عن الإيمان.

و البيعة عند مخالفينا تتم ببعض من ذكرناه إذ كانوا خمسه نفر على قول فريق منهم.

أو أربعة على قول آخرين.

أو اثنين على مذهب فريق آخر.

بل تتم عند أكثرهم بواحد حسبما قدمناه.

فكيف يخل مع ذلك بدليلنا الذي ذكرناه في إمامته (عليه السلام) خلاف النفر الذين تعلق بذكرهم في القعود عن القتال من تعلق أو بما ظهر بعد البيعة من خلاف مرتكبها ومباينة معاوية بن أبي سفيان وعمرو بن العاص بعد الذي كان من مراسلتهما أمير المؤمنين (عليه السلام) بالبيعة والطاعة بشرط إقرارهما على ما ولاهما عليه عثمان من الأعمال ; فلما أبى ذلك خوفا من الله تعالى وتقوى تظاهرا بالخلاف لو لا أن خصومنا جهال أغمار لا معرفة لهم بوجوه النظر ولا علم لهم بالأخبار.

باب ذكر جماعة ممن بايع أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و نحن نذكر الآن من جملة مبايعي أمير المؤمنين (عليه السلام) الراضين بإمامته الباذلين أنفسهم في طاعته بعد الذي أجملناه من الخبر عنهم حتى يعرف المنصف بوقوفه على أسمائهم تحقيق ما وصفناه من غايتهم في الدين وتقدمهم في الإسلام ومكانهم من نبي الهدى (صلى الله عليه وآله وسلم) وأن الواحد منهم لو تولى العقد لإمام لانعقد الأمر به خاصة عند خصومنا فضلا عن جماعتهم وعلى مذهبهم فيما يدعونه من ثبوت الإمامة بالاختيار وآراء الرجال وتضمحل بذلك عنده شبهات الأموية فيما راموه من القدح في دليلنا بما ذكروه من خلاف من سموه حسبما قدمناه.

فممن بايع أمير المؤمنين (عليه السلام) بغير ارتياب ودان بإمامته على الإجماع والاتفاق واعتقد فرض طاعته والتحريم لخلافه ومعصيته الحاضرون معه في حرب البصرة وهم ألف وخمسمائة رجل من وجوه المهاجرين الأولين السابقين إلى الإسلام والأنصار البدريين العقبيين وأهل بيعة الرضوان من جملتهم سبعمائة من المهاجرين وثمانمائة من الأنصار سوى أبنائهم وحلفائهم ومواليهم وغيرهم من بطون العرب والتابعين بإحسان على ما جاء به الثبت من الأخبار.

[102]

بيعة المهاجرين :

فمن جملة المهاجرين:

1- عمار بن ياسر رضي الله عنه : صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ووليه وأخص الأصحاب كان به والثقة قبل البعثة وبعدها وأنصر الناس له وأشدهم جهادا في طاعته المعذب في الله تعالى اسمه أبوه وأمه في أول الإسلام الذي لم يكن لأحد من الصحابة في المحنة ما كان له ولا نال أحد منهم في الدين من المكروه والصبر على الإسلام كما ناله لم تأخذه في الله لومة لائم والمقيم مع شدة البلاء على الإيمان الذي اختص من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بمدائح لم يسبقه فيها سواه من صحابته كلها مع شهادته له بالجنة مع القطع والبيان لإنذار من قتله والتبشير لقاتله بالنار على ما اتفق عليه أهل النقل من حملة الآثار.

فمن ذلك :.

قول رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) :إن الجنة لتشتاق إلى عمار وأنها إليه أشوق منه إليها.

[103]

و قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : بشروا قاتل عمار وسالبه بالنار.

و قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : عمار جلدة بين عيني وأنفي.

و قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : لا تؤذوني في عمار.

و قوله (صلى الله عليه وآله وسلم) : عمار مليء إيمانا وعلما.

في أمثال ذلك من المدائح والتعظيمات التي اختص بها على ما ذكرناه.

2- ثم الحصين بن الحارث بن عبد المطلب.

3- والطفيل بن الحارث المهاجران البدريان.

4- ومسطح بن أثاثة.

5- وجهجاح بن سعيد الغفاري.

6- وعبد الرحمن بن حنبل الجمحي.

7- وعبد الله.

8- ومحمد ابنا بديل الخزاعي.

9- والحارث بن عوف أبو واقد الليثي.

10- والبراء بن عازب.

11- وزيد بن صوحان.

12- ويزيد بن نويرة الذي شهد له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بالجنة.

13- وهاشم بن عتبة المرقال.

14- وبريدة الأسلمي.

15- وعمرو بن الحمق الخزاعي وهجرته إلى الله ورسوله معروفة ومكانه منه (صلى الله عليه وآله وسلم) مشهور ومدحه (صلى الله عليه وآله وسلم) له مذكور.

16- والحارث بن سراقة.

17- وأبو أسيد بن ربيعة.

18- ومسعود بن أبي عمر.

19- وعبد الله بن عقيل.

20- وعمرو بن محصن.

21- وعدي بن حاتم.

22- وعقبة بن عامر.

و من في عدادهم ممن أدرك عصر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم).

23- كحجر بن عدي الكندي.

24- وشداد بن أوس.

في نظرائهما من الأصحاب وأمثال من تقدم ذكره من المهاجرين على طبقاتهم في التقى ومراتبهم في الدين ممن يطول بتعداد ذكره الكلام فيه.

بيعة الأنصار :

و من الأنصار :

1- أبو أيوب خالد بن زيد صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

2- وخزيمة بن ثابت ذو الشهادتين.

3- وأبو الهيثم بن التيهان.

4- وأبو سعيد الخدري.

5- وعبادة بن الصامت.

6- وسهل.

7- وعثمان ابنا حنيف.

8- وأبو عياش الزرقي فارس رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يوم أحد.

9- وزيد بن أرقم.

10- وسعيد.

11- وقيس ابنا سعد بن عبادة.

12- وجابر بن عبد الله بن حزام.

13- ومسعود بن أسلم.

14- وعامر بن أجبل.

15- وسهل بن سعيد.

16- والنعمان بن عجلان.

[106]

17- وسعد بن زياد.

18- ورفاعة بن سعد.

19- ومخلد.

20- وخالد ابنا أبي خالد.

21- وضرار بن الصامت.

22- ومسعود بن قيس.

23- وعمرو بن بلال.

24- وعمارة بن أوس.

25- ومرة الساعدي.

26- ورفاعة بن رافع بن مالك الزرقي.

27- وجبلة بن عمرو الساعدي.

28- وعمرو بن حزم.

29- وسهل بن سعد الساعدي.

في أمثالهم من الأنصار الذين بايعوا البيعتين وصلوا القبلتين واختصوا من مدائح القرآن والثناء عليهم من نبي الهدى (عليه السلام) بما لم يختلف فيه من أهل العلم اثنان وممن لو أثبتنا أسماءهم لطال بها الكتاب ولم يحتمل استيفاء العدد الذي حددناه.

[107]

بيعة بني هاشم :

و من بني هاشم أهل بيت النبوة ومعدن الرسالة ومهبط الوحي ومختلف الملائكة (عليه السلام).

1- الحسن.

2- والحسين سبطا نبي الرحمة (صلى الله عليه وآله وسلم) وسيدا شباب أهل الجنة (عليه السلام).

3- ومحمد بن الحنفية.

4- وعبد الله بن جعفر.

5- ومحمد.

6- وعون أخواه.

7- وعبد الله بن عباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

8- والفضل.

9- وقثم.

10- وعبيد الله إخوته.

11- وعتبة بن أبي لهب.

12- وعبد الله بن الزبير بن عبد المطلب.

13- وعبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب.

و كافة بني هاشم وبني عبد المطلب.

[108]

بيعة سائر الشيعة :

و من يلحق بهم في الذكر من أوليائهم وعليه شيعتهم وأهل الفضل في الدين والإيمان والعلم والفقه والقرآن المنقطعين إلى الله تعالى بالعبادة والجهاد والتمسك بحقائق الإيمان.

1- محمد بن أبي بكر ربيب أمير المؤمنين (عليه السلام) وحبيبه.

2- ومحمد بن أبي حذيفة وليه وخاصته المستشهد في طاعته.

3- ومالك بن الحارث الأشتر النخعي سيفه المخلص في ولايته.

4- وثابت بن قيس النخعي.

5- وكميل بن زياد.

6- وصعصعة بن صوحان العبدي.

7- وعمرو بن زرارة النخعي.

8- وعبد الله بن الأرقم.

9- وزيد بن الملفق.

10- وسليمان بن صرد الخزاعي.

11- وقبيصة بن جابر.

12- وعبد الله.

[109]

13- ومحمد ابنا بديل الخزاعي.

14- وعبد الرحمن بن عديس البلوى.

15- وأويس القرني.

16- وهند الجملي.

17- وجندب الأزدي.

18- والأشعث بن سوار.

19- وحكيم بن جبلة.

20- ورشيد الهجري.

21- ومعقل بن قيس بن حنظلة.

22- وسويد بن الحارث.

23- وسعد بن مبشر.

24- وعبد الله بن وال.

25- ومالك بن ضمرة.

26- والحارث الهمداني.

27- وحبة بن جوين العرني.

ممن كانوا بالمدينة عند قتل عثمان وأطبقوا على الرضا بأمير المؤمنين (عليه السلام) فبايعوه على حرب من حارب وسلم من سالم وأن لا يولوا في نصرته الأدبار فحضروا معه في مشاهده كلها لا يتأخر عنه منهم أحد حتى مضى الشهيد منهم على نصرته وبقي المتأخر منهم على حجته حتى مضى أمير المؤمنين (عليه السلام) لسبيله وكان من بقي منهم بعده على ولايته والاعتقاد لفضله على الكافة وإمامته وإذا كان الأمر في بيعته حسب ما ذكرناه والإجماع ممن سميناه ونعتناه على الرضا به والطاعة له والاعتقاد

[110]

كما وصفناه بطل اعتراض المعترض في ثبوت إمامته بتأخر من سميناه من البيعة وتفردهم عن الحرب معه ووضح بحصر عددهم أن الإجماع كان من كافة أهل الهجرة عليه إذ لو كان هناك سوى النفر المعدودين في خلاف أمير المؤمنين (عليه السلام) لشركهم في الرأي وذكرهم الناس في جملتهم وأحصوهم في عددهم وألحقوهم بهم فيما انفردوا به من جماعتهم ولم يكن لغيرهم ذكر في ذلك فصح ما حكمنا به من اتفاق المهاجرين والأنصار وأهل بدر وأهل بيعة الرضوان والتابعين بإحسان على إمامته (عليه السلام) كما قدمناه فيما سلف وذكرناه والمنة لله.

[111]

فصل ; في نفي الإجبار على البيعة :

فإن قال قائل قد وجدتكم فيما احتججتم به على مخالفيكم في إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) وثبوتها الموجب لضلال مخالفيه وخروجهم بحربه عن الإيمان بعقد الصحابة له على الاختيار ورغبتهم إليه في توليه أمورهم ومسألتهم إياه ذلك وإبائه عليهم حتى اجتمع المسلمون وإلحاح من بايعه طوعا من المهاجرين والأنصار وقد جاءت الأخبار بضد ذلك وأنه كان قاهرا للأمة مجبرا لها على البيعة مكرها في ذلك الناس فروى الواقدي عن هاشم بن عاصم عن المنذر بن الجهم قال سألت عبد الله بن ثعلبة

كيف كانت بيعة علي (عليه السلام) قال رأيت بيعة رأسها الأشتر يقول من لم يبايع ضربت عنقه وحكيم بن جبلة وذووهما فما ظنك بما يكون أجبر فيه جبرا ثم قال أشهد لرأيت الناس يحشرون إلى بيعته فيتفرقون فيؤتى بهم فيضربون ويعسفون فبايع من بايع وانفلت من انفلت وروى أيضا عن

[112]

سعيد بن المسيب قال لقيت سعيد بن زيد بن نفيل فقلت بايعت قال ما أصنع إن لم أفعل قتلني الأشتر وذووه قال وقد عرف الناس أن طلحة والزبير كانا يقولان بايعنا مكرهين وروي عنهما أنهما قالا بايعناه بأيدينا ولم تبايعه قلوبنا.

و الخبر مشهور عن طلحة بن عبيد الله أنه كان يقول بايعت واللج على رقبتي قال وإذا كانت البيعة لعلي (عليه السلام) قهرا وإضرارا وإكراها للناس وإجبارا لم تثبت إمامته ولم تثبت بيعته كأبي بكر وعمر وعثمان.

فيقال للمعترض لما حكيناه والمائل عما ذكرناه : أما الواقدي فعثماني المذهب معروف بالميل عن علي أمير المؤمنين (عليه السلام) والذي روي عنه ما روي من إكراه الناس على البيعة لأمير المؤمنين فبالزور له والتخرص عليه بإضافة الأباطيل إليه.

و قد ثبت أن شهادة المشاجر مردودة بالإجماع وحديث الخصم فيما قدح به من عدالة خصمه مطروح بالاتفاق وقول المتهم الظنين غير مقبول بلا اختلاف فلا حجة في الحديث المذكور عن ابن ثعلبة ولو سلم من جميع ما وصفناه من الطعون فيه فإنه خبر واحد يضاد المتواتر الوارد بخلاف معناه فكيف وهو من الوهن على ما بيناه.

و أما خبر ابن المسيب عن سعيد بن زيد بن نفيل فقد صرح فيه بإقرار سعيد بالبيعة ودعواهم أنه بايع خوفا من الأشتر باطلة إذ كان ظاهره بخلاف ما ادعاه فيه وليس كل من خاف شيئا فقد وقع خوفه موقعه بل أكثر من يخاف متوهم للبعد

[113]

ظان للباطل متخيل للفاسد ولم يذكر سعيد شيئا من أمارات خوفه فتكون له حجة فيما ادعاه ولم يقل أحد إن الأشتر ولا غيره من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) كلموا ممتنعا من بيعته في الحال ولا ضربوا أحدا منهم بسوط ولا نهروه فضلا عن القتل وضرب الرقاب فكيف يخاف سعيد من الأشتر مع ما ذكرناه وأنى يكون لخوفه وجه صحيح على ما تظناه وهذا يدل على كذب الواقدي فيما أضافه إلى سعيد بن زيد من الخوف وأخبر عنه أو على تمويه سعيد فيما ادعاه.

و أما قول طلحة والزبير إنهما بايعا مكرهين فالكلام فيه كالكلام على ابن المسيب عن سعيد والتهمة لهما في ذلك أوكد لأنهما جعلاه عذرا في نكثهما البيعة والخروج عن الطاعة وطلب الرئاسة والإمرة فلم يجدا إلى ذلك سبيلا مع ما كان منهما في ظاهر الحال من البيعة على الطوع بلا إجبار إلا بدعوى الإكراه والإحالة في ذلك على الضمائر والبواطن التي لا يعلمها إلا الله

تعالى اسمه وقد ثبت في حكم الإسلام الأخذ لهما بمقتضى الإقرار منهما في البيعة والقضاء عليهما بلزوم الطاعة لهما لمن بايعاه والخلاف عليهما لإمامهما الذي اعترفا ببيعتهما له وصفقا بأيديهما على يده بالعقد له على ظاهر الرضا والإيثار وسقوط دعواهما للباطن المضاد للحكم الظاهر من ذلك وما زعماه من حكم الكراهة في قلوبهما على ما ادعياه.

مع أن ظهور مشاحتهما لأمير المؤمنين (عليه السلام) ومظاهرتهما بالعداوة له وبلوغهما في ذلك الغاية من ضرب الرقاب وسفك الدماء يبطل دعواهما على ما يقدح في عدالته ويؤثر في إمامته ويمنعه حقا له على كل حال.

على أنه لو ثبت الإكراه في بيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) لمن ادعى المخالفون إكراهه لم يقدح ذلك في إمامته على أصول شيعته الدائنين بالنص عليه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لأن للإمام المنصوص عليه المفترض الطاعة على الأنام أن

[114]

يكره من أبى طاعته ويضربه بالسوط والسيف على ذلك حتى يفيء إلى أمر الله تعالى والانقياد له ويأمن بذلك ما يحذر من فتنته وفساده.

و لا يؤثر أيضا في إمامته على مذهب المخالفين القائلين بالاختيار لأنه إذا بايع عندهم من أهل الفضل عدد محصور ثبت له العقد ووجبت له الطاعة وكان له إكراه من أبى البيعة ورام الخلاف والعصيان وإعمال السوط والسيف في ردعه عن ذلك وإكراهه على الطاعة والدخول مع الجماعة.

و معلوم أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قد بايعه على الرضا به من لا يحصى عددهم كثرة ممن جاهد معه في حروبه وبذل دمه في نصرته من المهاجرين البدريين والأنصار العقبيين وأهل بيعة الرضوان والتابعين بإحسان ممن أثبتنا أسماء بعضهم فيما سبق هذا الفصل من الكتاب فبطل ما تعلق به الخصم من دعوى الإكراه لمن سموه والجبر في ذلك على ما ادعوه والاعتماد على أخبار شواذ به يبطلها الظاهر والمنتشر في خلافها من الأخبار.

[115]

إكراه قوم على بيعة أبي بكر :

على أنه يقال للخصم إن كان الخبر بإكراه قوم على بيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) يقدح في إمامته عندك فقد جاءت الأخبار متواترة بإكراه من أكره على بيعة أبي بكر وعمر وعثمان فيجب أن تقطع على فساد إمامتهم بذلك وإلا كنت مناقضا عند العقلاء.

أ لا ترى أن المعلوم المنتشر بلا ارتياب مباينة الأنصار في بيعة أبي بكر ودعائها إلى العقد لسعد بن عبادة رضي الله عنه

وإنكارها بيعة سواه وتضمنها على صرف الأمر عن قريش وشروعها في ذلك حتى اختلفت كلمتهم وأفشى أمرهم بشير بن سعد منهم وبايع أبا بكر حسدا لابن عمه وضنا عليه بالرئاسة وكراهة الاتباع له والتقديم على نفسه فوقعت الفتنة وسلت السيوف ودعا عمر بن الخطاب إلى قتل سعد بن عبادة وحرض عليه في ذلك وقال اقتلوا سعدا قتل الله سعدا.

فخافت الأنصار من ظفرها وجنايته عليها فحملوا سعدا من السقيفة

[116]

بين جماعة منهم لضعفه عن النهوض بنفسه لمرض كان به في الحال وانحاز إليه أهل بيته كارهين لبيعة من عقدت له منكرين لما تم لأبي بكر متوعدين فيه بالخلاف.

و جاءت الأخبار متظافرة بإنكار الزبير بن العوام لبيعة أبي بكر وخروجه بالسيف مصلتا للقتال فتكاثر القوم عليه حتى أخذوه من يده وضربوه بالأحجار فكسروه وجاءوا به ملببا لأبي بكر حتى بايع مكرها على غير اختيار.

و لما حضر سلمان الفارسي رضي الله عنه منكرا لأمرهم ومتكلما في ذلك بلسانه ومفصحا فيه بلسان العرب فامتنع عن البيعة حتى وجئ عنقه بأيديهم وصار كالسلقة الحمراء.

و ما كان من إنكار العباس بن عبد المطلب عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صرف الأمر عن بني هاشم وبيعتهم لمن بايعوا ودعائه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى بسط يده ليبايعه على الأمر فقال له أمدد يدك يا ابن أخي أبايعك ليقول الناس

[117]

عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بايع ابن عمه فلا يختلف عليك اثنان.

و قول أبي سفيان صخر بن حرب بأعلى صوته يا بني هاشم أ رضيم أن يلي عليكم بنو تيم بن مرة حكاما على العرب ومتى طمعت أن تتقدم على بني هاشم بالأمر انهضوا لدفع هؤلاء القوم عما تمالئوا عليه ظلما لكم أما والله لئن شئتم لأملأنها عليهم خيلا ورجالا ثم أنشأ يقول :

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم *** ولا سيما تيم بن مرة أو عدي

فما الأمر إلا فيكم وإليكم *** وليس لها إلا أبو حسن علي

أبا حسن فاشدد بها كف حازم *** فإنك بالأمر الذي يرتجى ملي

إجبار عمر على بيعة أبي بكر :

و لما اجتمع من اجتمع إلى دار فاطمة (عليه السلام) من بني هاشم وغيرهم للتحيز عن أبي بكر وإظهار الخلاف عليه أنفذ عمر بن الخطاب قنفذا وقال له أخرجهم من البيت فإن خرجوا وإلا فاجمع الأحطاب على بابه وأعلمهم أنهم إن لم يخرجوا

للبيعة أضرمت البيت عليهم نارا ثم قام بنفسه في جماعة منهم المغيرة بن شعبة الثقفي وسالم مولى أبي حذيفة حتى صاروا إلى باب علي (عليه السلام) فنادى ;

[118]

يا فاطمة بنت رسول الله : أخرجي من اعتصم ببيتك ليبايع ويدخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا والله أضرمت عليهم نارا في حديث مشهور.

و لما عرف أهل اليمامة تقلد أبي بكر أنكروا أمره وامتنعوا من حمل الزكاة حتى أنفذ إليهم الجيوش فقتلهم وحكم عليهم بالردة عن الإسلام وفي إنكار أهل اليمامة بيعة أبي بكر يقول الحطيئة الشاعر العبسي :

أطعنا رسول الله ما كان بيننا *** فيا عجبا ما كان ملك أبي بكر

أ نؤتى أبا بكر إذا قام بعده *** فتلك لعمر الله قاصمة الظهر

و كان عبد الله بن أبي سفيان بن الحارث بن عبد المطلب خارجا عن المدينة فدخلها وقد بويع أبو بكر فوقف في وسط المسجد وأنشأ يقول :

ما كنت أحسب أن الأمر منتقل *** عن هاشم ثم منها عن أبي الحسن

أ ليس أول من صلى لقبلتهم *** وأعرف الناس بالآثار والسنن

و آخر الناس عهدا بالنبي ومن *** جبريل عون له بالغسل والكفن

من فيه ما فيهم لا يمترون به *** وليس في القوم ما فيه من الحسن

فما الذي ردكم عنه فنعلمه *** ها إن بيعتكم من أول الفتن

و روى أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي عن محمد بن سائب الكلبي وأبي

[119]

صالح ورواه أيضا عن رجاله عن زائدة بن قدامة قال : كان جماعة من الأعراب قد دخلوا المدينة ليمتاروا منها فشغل الناس عنهم بموت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فشهدوا البيعة وحضروا الأمر فأنفذ إليهم عمر واستدعاهم وقال لهم خذوا بالحظ والمعونة على بيعة خليفة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واخرجوا إلى الناس واحشروهم ليبايعوا فمن امتنع فاضربوا رأسه وجبينه.

قال : فو الله لقد رأيت الأعراب قد تحزموا واتشحوا بالأزر الصنعانية وأخذوا بأيديهم الخشب وخرجوا حتى خبطوا الناس خبطا وجاءوا بهم مكرهين إلى البيعة.

و أمثال ما ذكرناه من الأخبار في قهر الناس على بيعة أبي بكر وحملهم عليها بالاضطرار كثيرة ولو رمنا إيرادها لم يتسع لهذا الكتاب فإن كان الذي ما ادعاه المخالف من إكراه من أكره على بيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) دليلا على فسادها مع ضعف الحديث بذلك فيكون ثبوت الأخبار بما شرحناه من الأدلة على بيعة أبي بكر موضحة عن بطلانها.

[120]

كراهة وجوه المهاجرين استخلاف عمر :

هذا والأمة مجتمعة على أن أبا بكر لما أراد استخلاف عمر بن الخطاب حضره وجوه المهاجرين وفيهم طلحة والزبير وسعد بن أبي وقاص , فقالوا : ما تقول لربك إذا وليت علينا هذا الفظ الغليظ , فإنا لم نكن نطيقه وهو رعية لك فكيف إذا ولي الأمر ؟ فاتق الله في الإسلام وأهله ولا تسلطه على الناس.

فغضب أبو بكر وقال : أجلسوني , أجلسوني.

فأجلس , واستند إلى صدور الرجال من ضعفه ثم قال لهم : أ بالله تخوفوني , إن كل واحد منكم قد طمع في هذا الأمر ; فلما سمع ما أريده لعمر , ورم لذلك أنفه , لكأني بكم وقد جاءتكم فعمدتم على التأمر واستعمال الستور ونضائد الديباج لتتخذوها كسروية , لا والله لا أجبتكم إلى ما تريدون , أني إذا لقيت ربي فسألني من استخلفت عليهم ؟

قلت : استخلفت عليهم خير أهلهم.

[121]

و هذا خبر مشهور لا يتنازع فيه العلماء وهو متضمن لعقد أبي بكر الأمر لعمر على كراهة ممن ذكرناه وقهر لهم وإجبار عليهم فيجب على مقال الخصم أن تكون إمامة عمر بن الخطاب فاسدة لأنها على كراهة ممن عددناه.

[122]

الشورى واعتزال أمير المؤمنين (عليه السلام) عن بيعة عثمان :

قال : ولما كان في يوم الشورى حضر عمار بن ياسر رضي الله عنه فقام في الناس وقال : إن وليتموها عليا سمعنا وأطعنا , وإن وليتموها عثمان سمعنا وعصينا.

فقام الوليد بن عقبة وقال : يا معشر الناس من أهل الشورى إن وليتموها عثمان سمعنا وأطعنا , وإن وليتموها عليا سمعنا وعصينا.

فانتهره عمار وقال له : متى كان مثلك يا فاسق يعترض في أمور المسلمين وأسباب جمعها , وتسابا وتناوشا حتى حيل بينهما.

فقال المقداد رضي الله عنه من وراء الباب , يا معشر المسلمين : إن وليتموها أحدا من القوم فلا تولوها من لم يحضر بدرا وانهزم يوم أحد ولم يحضر بيعة الرضوان وولى الدبر يوم التقى الجمعان.

فقال له عثمان : أما والله لئن وليتها لأردنك إلى زيك الأول.

و لما صفق عبد الرحمن يده على يد عثمان ; همس أمير المؤمنين (عليه السلام) وقال :

[123]

مال الرجل إلى صهره ونبذ دينه وراء ظهره ; وأقبل على عبد الرحمن , فقال : والله ما أملت منه إلا ما أمل صاحبك من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم.

و انصرف مظهرا النكير على عبد الرحمن واعتزل بيعة عثمان فلم يبايعه حتى كان من أمره مع المسلمين ما كان ; وقد عرفت الخاصة والعامة ما أظهره أمير المؤمنين (عليه السلام) من كراهته من تقدم عليه وتظلمه منهم.

فقال في مقام بعد مقام : اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم ظلموني حقي ومنعوني إرثي وتمالئوا علي.

و قال : لم أزل مظلوما منذ قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

و قال :لقد عهد إلي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أن الأمة ستغدر بي من بعده.

[124]

و قال : لقد ظلمت عدد الحجر والمدر.

و قال : اللهم أجز قريشا عني الجوازي فقد قطعت رحمي ودفعتني عن حقي وأغرت بي سفهاء الناس وخاطرت بدمي.

[125]

فصل ; خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم بيعته :

و لما أفضى الأمر إليه (عليه السلام) رقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

قد مضت أمور كنتم فيها غير محمودي الرأي أما إني لو أشاء أن أقول لقلت عفى الله عما سلف سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب همته بطنه وفرجه يا ويله لو قص جناحه وقطع رأسه لكان خيرا له.

و استمر في الخطبة إلى آخرها وفيها عجائب من فصيح الكلام وغرائب من بديع المقال والعلماء متفقون عليها عنه (عليه السلام) وقد ذكرها أبو عبيدة معمر بن المثنى وفسر غريب الكلام فيها وأوردها المدائني في كتبه وذكرها الجاحظ مع نصبه وعداوته لأمير المؤمنين (عليه السلام) في كتابه الموسوم بالبيان والتبيين.

[126]

الخطبة الشقشقية :

فأما خطبته (عليه السلام) التي رواها عنه عبد الله بن عباس رحمه الله فهي أشهر من أن ندل عليها ونتحمل لثبوتها وهي التي يقول في أولها :

أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير لكني سدلت دونها ثوبا وطويت عنها كشحا أرى تراثي نهبا فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق شجى.

حتى أتى على الشورى فيها , فقال : فجعلني عمر سادس ستة زعم أني أحدهم فيا لله وللشورى متى اختلج الريب في مع الأولين منهم حتى صرت أقرن بهذه النظائر ولكني أسففت مع القوم حين أسفوا وطرت معهم حين طاروا انتظارا للمدة والأجل.

[127]

في كلام طويل اختصرناه هاهنا ; فدل ما ذكرناه عنه (عليه السلام) على كراهيته من تقدم عليه وإنكاره ما صنعوه في ذلك وخصومنا لعنادهم الحق وتجاهلهم يجعلون الأخبار الشاذة في كراهة نفر معدودين لبيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) قدحا في إمامته ولا يجعلون ما ذكرناه من خلاف وجوه المسلمين وعامة المؤمنين والأنصار والمهاجرين في إمامة الثلاثة النفر المذكورين حجة في بطلانها ولا إنكارهم لذلك وكراهتهم لها قدحا فيها ويدعون مع ذلك بعجبهم وجرأتهم وقلة أمانتهم إجماع الأمة عليهم إن هذا لشيء عجيب.

و إني مثبت طرفا من الأخبار التي جاءت ببيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأنها كانت على وفاق ما ذكرت في أول الباب من الرغبة إليه في قبولها منهم والإيثار لتقدمه عليهم والاختيار منهم ليتأيد ما قصدنا الإيضاح عنه من ثبوت إمامته على أصول الموافقين من شيعته والمخالفين لهم في ذلك حسب ما بيناه إن شاء الله.

[128]

امتناع أمير المؤمنين (عليه السلام) من قبول الخلافة :

فممن روى خبر البيعة وما كانت عليه من الحال أبو مخنف لوط بن يحيى الأزدي في كتابه المصنف في حرب البصرة عن سيف بن عمر عن محمد بن عبد الله بن سوادة وطلحة بن الأعلم وأبي عثمان أجمع قالوا : بقيت المدينة بعد قتل عثمان خمسة أيام أميرها الغافقي بن حرب والناس يلتمسون من يجيبهم إلى هذا الأمر فلا يجدون فيأتي المصريون عليا فيختبئ منهم ويلوذ بحيطان المدينة فإذا أتوه يأبى عليهم.

قال : وروى إسحاق بن راشد عن عبد الحميد بن عبد الرحمن عن ابن أبزى قال : أ لا أحدثك ما رأت عيناي وسمعت أذناي ؟ ; لما التقى الناس عند بيت المال , قال علي لطلحة : ابسط يدك أبايعك.

فقال طلحة : أنت أحق بهذا الأمر مني ; وقد اجتمع لك من أهواء الناس ما لم يجتمع لي.

فقال (عليه السلام) له : ما خشينا غيرك.

فقال طلحة : لا تخش , فو الله لا تؤتى من قبلي.

و قام عمار بن ياسر وأبو الهيثم بن التيهان ورفاعة بن رافع بن مالك بن العجلان وأبو أيوب خالد بن زيد , فقالوا لعلي : إن هذا الأمر قد فسد وقد رأيت ما صنع عثمان وما أتاه من خلاف الكتاب والسنة , فابسط يدك نبايعك لتصلح من أمر الأمة ما قد فسد.

[129]

فاستقال علي (عليه السلام) , وقال : قد رأيتم ما صنع بي وعرفتم رأي القوم فلا حاجة لي فيهم.

فاقبلوا على الأنصار فقالوا : يا معاشر الأنصار أنتم أنصار الله وأنصار رسوله وبرسوله أكرمكم الله تعالى وقد علمتم فضل علي وسابقته في الإسلام وقرابته ومكانته التي كانت له من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإن ولي أنالكم خيرا.

فقال القوم : نحن أرضى الناس به ما نريد به بدلا.

ثم اجتمعوا عليه فلم يزالوا به حتى بايعوه.

و بإسناده عن أبي الهيثم بن التيهان أنه قال : يا معاشر الأنصار قد عرفتم رأيي ونصحي ومكاني من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واختياره إياي فردوا هذا الأمر إلي أقدمكم إسلاما وأولاكم برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لعل الله أن يجمع به ألفتكم ويحقن به دماءكم فأجابه القوم بالسمع والطاعة.

و روى سيف عن رجاله قال : اجتمع الناس إلى علي (عليه السلام) سألوه أن ينظر في أمورهم وبذلوا له البيعة فقال لهم التمسوا غيري فقالوا ننشدك الله أ ما ترى الفتنة أ لا تخاف الله في ضياع هذه الأمة فلما ألحوا عليه قال لهم إني إن أجبتكم حملتكم على ما أعلمه وإن تركتموني كنت كأحدكم فقالوا قد رضينا بحكمك وما فينا مخالف لك فاحملنا على ما تراه ثم بايعته الجماعة.

[130]

بيعة طلحة والزبير لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

و روى أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الثقفي عن عثمان بن أبي شيبة عن عبد الله بن إدريس عن محمد بن عجلان عن زيد بن أسلم قال : جاء طلحة والزبير إلى علي (عليه السلام) وهو متعوذ بحيطان المدينة فدخلا عليه وقالا له ابسط يدك نبايعك فإن الناس لا يرضون إلا بك.

فقال لهما : لا حاجة لي في ذلك ; لئن أكون لكما وزيرا خير من أن أكون لكما أميرا ; فليبسط من شاء منكما يده أبايعه.

فقالا : إن الناس لا يؤثرون غيرك ولا يعدلون عنك إلى سواك ; فابسط يدك نبايعك أول الناس.

فقال : إن بيعتي لا تكون سرا فامهلا حتى أخرج إلى المسجد.

فقالا : بل نبايعك هاهنا ثم نبايعك في المسجد , فبايعاه أول الناس ; ثم بايعه الناس على المنبر , أولهم طلحة بن عبيد الله , وكانت يده شلاء , فصعد المنبر إليه فصفق على يده ; ورجل من بني أسد يزجر الطير قائم ينظر إليه.

فلما رأى أول يد صفقت على يد أمير المؤمنين (عليه السلام) يد طلحة وهي شلاء , قال : إنا لله وإنا إليه راجعون , أول يد صفقت على يده شلاء , يوشك أن لا يتم هذا الأمر.

ثم نزل طلحة والزبير وبايعه الناس بعدهما.

[131]

و هذه الأخبار مع شهرتها وانتشارها في كتب السير وعند كافة العلماء وظهورها واستفاضتها تتضمن نقيض ما ادعاه المخالف من إكراه أمير المؤمنين (عليه السلام) على البيعة وتبطل ما تعلق به من ذلك من شك في الخبر الذي أورده الواقدي عن العثمانية المتظاهرين بعداوة أمير المؤمنين (عليه السلام).

على أن الواقدي قد أثبت في كتابه الذي صنفه في حرب البصرة ما يوافق الأخبار التي قدمنا ذكرها ويضاد ما خالفها في معناه فقال حدثني عبد الله بن جعفر عن عثمان بن محمد قال : لما قتل عثمان أقبل الناس على علي (عليه السلام) ليبايعوه فتأبى عليهم , فقالوا : بايعنا لا نخلف.

فأبى عليهم.

فمدوا يده وبسطوها وقبضوها , فقالوا : بايعنا لا نجد غيرك ولا نرضى إلا بك.

و روى إسماعيل بن محمد عن محمد بن سعد عن أبيه قال : أرسل علي بن أبي طالب (عليه السلام) إلى أبي ليبايع فقال له إذا لم يبق غيري بايعتك فقال علي (عليه السلام) خلوا سعدا وأرسل إلى أسامة بن زيد فقال له أسامة أنا أطوع لك ولكن أعصي الخروج بالسيف فقال له علي (عليه السلام) لم أكره أحدا على بيعتي فقد بان أن جميع من بايعه كان مؤثرا له راغبا إليه في ذلك على ما قدمناه والحمد لله.

[132]

بطلان آراء أهل الفرق :

قال الشيخ المفيد أبو عبد الله أدام الله تأييده قد دللنا على إمامة أمير المؤمنين (عليه السلام) من جهة النص عليه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وباختيار له من ذوي العقول والعلم والفضل والرأي على ما يذهب إليه المخالفون في ثبوت الإمامة وانعقادها وأنبأنا عن عصمته (عليه السلام) بما سلف وشرحنا القول في طريقها وأوضحناه وذكرنا الأخبار الواردة من

طريق الخاصة والعامة في وجوب حقه وبرهان صوابه وتحريم خلافه وفي ذلك إبطال ما ذهب إليه كافة خصومنا على اختلافهم في تصويب محاربيه والوقوف في ذلك والشك فيه وفي ما أصلناه من ذلك ورسمناه في معناه غنى عن تكلف كلام في فساد مذهب واصل بن عطاء وعمرو بن عبيد على ما شرحناه عنهما في صدر هذا الكتاب من شبهات المذهب الرذل وإبطال مذهب الأصم وأتباعه ونقض شبهات الحشوية في تصويب الجماعة وإفساد ما ذهب إليه كل فريق منهم في تخطئتهم بأسرهم وإقامة البرهان على صحة ما ذهب إليه الشيعة ومن شاركهم من قبائل المعتزلة والمرجئة والخوارج وتصويب أمير المؤمنين في حرب البصرة والشام وتخطئة محاربيه في هذين المقامين وضلالهم في ذلك عن طريق الرشاد وفيما أثبتناه من عصمته (عليه السلام) وحقه أيضا دليل مقنع في إبطال مذهب الخوارج المبدعة في إنكار التحكيم وترك القتال عند الموادعة حسب ما قدمناه.

و نحن نشفع ذلك بأسباب فتنة البصرة على ما بطن منها عن كثير من الناس

[133]

و ظهر منها للجمهور ونورد بعد هذا الباب الذي ذكرناه الأخبار الواردة بصورة الأمر في القتال وكيفية ما جرى فيه على ترتيب ذلك في مواضعه المقتضية لذكره فيها ونأتي به على الترتيب والنظام إن شاء الله تعالى.

[135]

فصل ; في نكث البيعة من قبل طلحة والزبير :

فأما ظاهر سبب الفتنة بالبصرة فهو ما أحدثه طلحة والزبير من نكث البيعة التي بذلاها لأمير المؤمنين (عليه السلام) طوعا واختيارا وإيثارا وخروجهما من المدينة إلى مكة على إظهار منهما لابتغاء العمرة فلما وصلاها اجتمعا على عائشة وعمال عثمان الهاربين بأموال المسلمين إلى مكة طمعا فيما احتجنوه منها وخوفا من أمير المؤمنين (عليه السلام) واتفاق رأيهم على الطلب بدم عثمان والتعلق عليه في ذلك بانحياز قتلة عثمان وحاصريه وخاذليه من المهاجرين والأنصار وأهل مصر والعراق إلى علي (عليه السلام) وكونهم جندا له وأنصارا واختصاصهم به في حربهم منه ومظاهرته لهم بالجميل وقوله فيهم الحسن من الكلام وترك إنكار ما صنعوه بعثمان والإعراض عنهم في ذلك والمصير معهم في جنده إلى ما ذكرناه وشبهوا بذلك على الضعفاء واغتروا به السفهاء وأوهموهم في ذلك بظلم عثمان والبراءة من شيء يستحق به

[136]

ما صنع به القوم من إحصاره وخلعه والمنازعة إلى دمه فأجاب إلى مرادهم من الفتنة من استغووه بما وصفناه وقصدوا البصرة لعلمهم أن جمهور أهلها من شيعة عثمان وأصحاب عامله وابن عمه الذي كان بها وهو عبد الله بن عامر بن كريز فكان ذلك منهم ظاهرا وباطنه بخلافه كما تدل عليه الأخبار ويوضح عن صحة الحكم به الاعتبار ألا ترى أن طلحة والزبير وعائشة بإجماع العلماء بالسير والآثار هم الذين أوكدوا خلع عثمان وحصره وقتله وأن أمير المؤمنين (عليه السلام) لم يزل يدفعهم عن

ذلك ويلطف في منعهم عنه ويبذل الجهد في إصلاح حاله مع المنكرين عليه العائبين له بأفعاله المحتجين عليه بإحداثه فمن أنكر ما ذكرناه أو شك في شيء مما وصفناه فهو بعيد من علم الأخبار ناء عن معرفة السير والفتن والآثار مكابر يحمل نفسه على جحد الاضطرار وهذا باب لا تحسن مكالمة الخصوم فيه إلا مع الإنصاف والاطلاع على ما جاءت به الأخبار ومخالطة العلماء من أهل الاختبار وأما من لا معرفة له بالروايات أو منقطع عنها إلى صناعة الكلام أو عامي له غفلة أو مترف مشغول باللذات فلا وجه لمجاراته في هذا الباب وأمثاله مما طريقه السمع والأخبار وسبيله ملاقاة الخاصة والعلماء واستفادة ما عندهم من علم على ما ذكرناه.

[137]

فصل في أسباب الخروج على عثمان :

و نحن نثبت بتوفيق الله مختصرا من الأخبار فيما ذكرناه من كون طلحة والزبير وعائشة فيما صنعوه في أيام عثمان من أوكد أسباب ما تم عليه من الخلع والحصر وسفك الدم والفساد فمن ذلك ما رواه أبو حذيفة إسحاق بن بشر القرشي وأثبته في كتابه الذي صنفه في مقتل عثمان وكان هذا الرجل أعني أبا حذيفة من وجوه أصحاب الحديث المنتسبين إلى السنة والمباينين للشيعة لا يتهم فيما يرويه لمفارقة خصومه ولا يظن به تخرص فيما يجتنيه من جميع الأخبار فقال حدثني محمد بن إسحاق عن الزهري قال : قدم أهل مصر في ستمائة راكب عليهم عبد الرحمن بن عديس البلوي فنزلوا ذا خشب وفيهم كنانة بن بشر الكندي وأبو عمرو بن بديل بن ورقاء الخزاعي وأبو عروة الليثي واجتمع إليهم حكيم بن جبلة العبدي في طائفة من أهل البصرة وكميل بن زياد ومالك الأشتر وصعصعة بن صوحان وحجر بن عدي في جماعة من قراء أهل الكوفة الذين كانوا سيرهم عثمان

[138]

منها إلى الشام حين شكوا أحداثه التي أنكرها عليه المهاجرون والأنصار ; فاجتمع القوم على عيب عثمان وجهروا بذكر أحداثه ; فمر بهم عمر بن عبد الله الأصم وزياد بن النضر , فقالا لهم : إن شئتم بلغنا عنكم أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فإن أمرنكم أن تقدموا فاقدموا.

فقالوا لهما : افعلا واقصدا عليا آخر الناس.

فانطلق الرجلان فبدءا بعائشة وأزواج النبي بعدها ثم انبئا أصحابه وأخبراهم الخبر فأمروهم أن يقدموا المدينة وصارا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فأخبراه واستأذناه للقوم في دخول المدينة , فقال لهما : أتيتما أحدا قبلي ؟

قالا : نعم.

أتينا عائشة , وأزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بعدها , وأصحابه من المهاجرين والأنصار , فأمروهم أن يقدموا.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : لكني لا آمرهم بذلك , يستعتبونه ممن قرب , فإن أعتبهم فهو خير لهم وإن أبى فهم أعلم.

فرجع الرجلان إليهم جميعا وتسرع إليهم جماعة من المدينة فاجتمعوا مع أهل الحسب وذوي المروءات.

فلما بلغ عثمان اجتماعهم أرسل إلى علي (عليه السلام) , فقال له : اخرج يا أبا الحسن إلى هؤلاء القوم وردهم عما جاءوا إليه.

فخرج إليهم , فلما رأوه رحبوا به , وقالوا له : قد علمت يا أبا الحسن ما أحدثه هذا الرجل من الأعمال الخبيثة وما يلقاه المسلمون منه ومن عماله وكنا لقيناه واستعتبناه فلم يعتبنا وكلمناه فلم يصغ إلى كلامنا وأغراه ذلك بنا وقد جئنا نطالبه بالاعتزال عن إمرة المسلمين واستأذنا في ذلك الأنصار والمهاجرين وأزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أمهات المؤمنين فأذنوا لنا في ورود المدينة ونحن على ذلك.

فقال لهم أمير المؤمنين (عليه السلام) : يا هؤلاء تريثوا

[139]

لا تسرعوا إلى شيء لا تعرف عاقبته , فإنا كنا قد عتبناه على هذا في شيء وأنه قد رجع عنه فارجعوا.

فقالوا : هيهات يا أبا الحسن , لا نقنع منه إلا بالاعتزال عن هذا الأمر ليقوم به من يوثق بأمانته.

فرجع أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى عثمان وخبره بمقالتهم.

فخرج عثمان حتى أتى المنبر فخطب الناس وجعل يتكلم ويدعو إلى نصرته ودفاع القوم عنه.

فقام إليه عمرو بن العاص , فقال : يا عثمان إنك قد ركبت الناس بالنهابير وقد ركبوها منك فتب إلى الله.

فقال له عثمان : وإنك لهاهنا يا ابن النابغة , ثم رفع يديه إلى السماء , وقال : أتوب إلى الله , اللهم إني أتوب إليك , اللهم إني أتوب إليك.

فأنفذ أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى القوم بما جرى من عثمان وما صار إليه من التوبة والإقلاع.

فساروا إلى المدينة بأجمعهم وسار إليهم عمرو بن معديكرب في ناس كثير فجعل عمرو يحرض على عثمان ويذكر أثرته ثم جعل يقول :

أما هلكنا ولا يبكي لنا أحد *** قالت قريش إلا تلك المقادير

و نحن في الصف قد تدمي حواجبنا *** نعطي السوية مما أخلص الكير

نعطى السوية يوم الضرب قد علموا *** ولا سوية إذ كانت دنانير

و انضم إليهم من المهاجرين طلحة والزبير وجمهور الأنصار على ذلك.

فخرج إليهم أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال لهم : يا هؤلاء اتقوا الله ما لكم وللرجل ؟ أ ما رجع

[140]

عما أنكرتموه ؟ أ ما تاب على المنبر توبة جهر بها ؟ ولم يزل يلطف بهم حتى سكنت فورتهم.

ثم سأله أهل مصر أن يلقاه في عزل عبد الله بن سعد بن أبي سرح عنهم , واقترح أهل الكوفة عزل سعيد بن العاص عنهم , وسأل أهل النهروان أ ن يصرف ابن كريز عنهم , ويعدل عما كان عليه من منكر الأفعال.

فدخل أمير المؤمنين (عليه السلام) على عثمان ولم يزل به حتى أعطاه ما أراد القوم من ذلك , وبذل لهم العهود والمواثيق.

فخرج أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى القوم بما ضمنه له عثمان ولم يزل بهم حتى تفرقوا , وتوجه كل قوم إلى بلادهم.

فلما سار أهل مصر ببعض الطريق نظروا وإذا راكب على الطريق مسرع فلما دنا تأملوه فإذا هو غلام لعثمان على ناقة من نوقه فاسترابوا به , فقالوا له : أين تذهب ؟

فقال : بعثني عثمان في حاجة له.

قالوا : إلى أين بعثك ؟

فأرتج عليه وتلعثم في كلامه , فنهروه وزبروه.

فقال : أنفذني إلى مصر.

فقالوا : فيم أنفذك ؟

فقال : لا أعلم.

فزادت استرابتهم به , ففتشوه , فلم يجدوا معه شيئا.

فأخذوا إداوته ففتشوها , فإذا فيها كتاب من عثمان إلى عبد الله بن أبي سرح , وهو :

إذا أتاك كتابي هذا فاضرب عنق أبي عمرو بن بديل وعبد الرحمن البلوى واقطع أيدي وأرجل علقمة وكنانة وعروة ثم دعهم يتشحطون بدمائهم فإذا ماتوا فأوقفهم على جذوع النخل.

فلما رأوا ذلك قبضوا على الغلام , وعادوا إلى المدينة ; فاستأذنوا علي بن أبي طالب (عليه السلام) ودفعوا إليه الكتاب.

ففزع (عليه السلام) لذلك , فدخل على عثمان. فقال :

[141]

إنك وسطتني أمرا بذلت الجهد فيه لك وفي نصيحتك واستوهبت لك من القوم.

فقال عثمان : فما ذا ؟

فأخرج إليه الكتاب , ففضه وقرأه , ثم أنكره.

فقال له علي (عليه السلام) : أ تعرف الخط ؟

قال : الخط يتشابه.

قال : أ تعرف الختم ؟

قال : الختم ينقش عليه.

قال : فهذا البعير الذي على باب دارك تعرفه ؟

قال : هو بعيري ولم آمر أحدا بأخذه ولا بركوبه.

قال : فغلامك من أنفذه ؟

قال : أنفذ بغير أمري.

فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) : أما أنا فمعتزلك وشأنك وأصحابك وخرج من عنده ودخل داره وأغلق عليه بابه ولم يأذن لأحد من القوم في الوصول إليه.

و خرج إليهم طلحة والزبير , فقالا لهم : قد اعتزل علي بن أبي طالب (عليه السلام) وانتدبنا معكم على هذا الرجل.

فاجتمع القوم على حصره , فلما علم عثمان أن القوم قد حصروه وحقق العزيمة على خلعه كتب إلى معاوية يستدعيه بجنود الشام وكتب إلى عبد الله بن عامر يستدعيه بجنود البصرة وفارس لينصر بهم ويدفعهم عن نفسه ; وعرف أهل مصر والعراق والحجاز أنه قد استنفر عليهم أهل الشام وشيعته من أهل البصرة وفارس وخوزستان ; فجدوا في حصاره وتولى ذلك منه طلحة والزبير ومنعاه الماء وضيقا عليه , وكان طلحة على حرس الدار يمنع كل أحد يدخل إليه شيئا من الطعام والشراب ويمنع من في الدار أن يخرج منها إلى غيرها.

[142]

فصل ; في براءة أمير المؤمنين (عليه السلام) من التأليب على عثمان :

فهل تخفى على عاقل براءة أمير المؤمنين (عليه السلام) مما قرفه به ناكثو عهده من التأليب على عثمان والسعي في دمه مع ما رويناه من الحديث عمن سميناه أم هل يرتاب عاقل فيما فعله طلحة والزبير فيما تولياه من حصر عثمان حتى آل ذلك إلى قتله وهما من بعده يقرفان عليا فيما تولياه ويدعيان لأنفسهما البراءة مما صنعاه ويجعلان شبهتهما في استحلال قتاله (عليه السلام) دعوى الباطل المعروف بهتانا ممن ادعاه وهذا يكشف أن الأمر فيما ادعياه وأظهراه من الطلب بدم عثمان كان بخلافه على ما بيناه.

و مما جاءت به الأخبار فيما تولاه طلحة والزبير من عثمان ما رواه أبو إسحاق عن صلة بن زفر قال : رأيت طلحة والزبير يرفلان في أدراعهما في قتل عثمان ثم جاءا من بعد إلى علي (عليه السلام) فبايعاه طائعين غير مكرهين ثم صنعا ما صنعا.

[143]

و روى أبو حذيفة القرشي عن الحصين بن عبد الرحمن عن عمرو بن جاوان عن الأحنف بن قيس قال : قدمت المدينة وساق حديثا طويلا من أمر عثمان إلى أن قال :

فلما لقحت الفتنة والناس قد اجتمعوا على حصر عثمان وهو على خطر أتيت طلحة والزبير فقلت لهما ما أرى هذا الرجل إلا مقتولا فمن تأمراني أن أبايع ترضيانه لي.

فقالا : عليا.

فخرجت حتى أتيت مكة وبها عائشة فدخلت عليها , فقلت : إني لأحسب هذا الرجل مقتولا فمن تأمريني أن أبايع ؟

فقالت : بايع عليا.

فقضيت حجتي , ثم مررت بالمدينة وقد قتل عثمان فبايعت عليا.

ثم عدت إلى البصرة , فإذا عائشة وطلحة والزبير قد جاءونا يطلبون بدم عثمان ويأمروننا بقتال علي بن أبي طالب ; فطال عجبي من ذلك.

و روى أبو حذيفة عن رجاله : أنه لما اجتمع الناس على عثمان , انفذوا إليه : اخلع نفسك.

فقال : لا أخلع سربالا سربلنيه الله تعالى.

و كتب إلى معاوية يستدعيه بجنود الشام وإلى عبد الله بن عامر بن كريز يستدعيه بجنود البصرة ; وخرج عثمان حتى

صعد المنبر.

فلما بدأ بالخطبة , قام إليه رجل من الأنصار , فقال له : أقم كتاب الله يا عثمان.

فقال : هو لك.

ثم أعادها ثانية.

فقال : هو لك.

فأعادها ثالثة.

فتقنع وجلس.

فقام ناس من الأنصار فخلصوه.

و حصب عثمان بالحصى حتى سقط مغشيا عليه , فحملته بنو أمية حتى أدخلوه الدار.

و جاء علي (عليه السلام) يسأل عن خبره وحاله , فثارت بنو أمية إليه بصوت واحد : يا علي كدرت علينا العيش وعملت بنا العمل ; والله لئن بلغت الذي تريد لنخبثن عليك الدنيا.

فخرج علي مغضبا.

فقال القوم للعباس بن الزبرقان بن زيد ; وكانت أخته تحت الحارث بن الحكم أخي

[144]

مروان بن الحكم :اتبع الرجل فقل له ; ما لك ولابن عمك ؟

فاتبعه , فقال له ذلك.

فقال (عليه السلام) وهو مغضب فعل الله وفعل يجني ما يجني وأسأل عن أمره وأتهم مع ذلك أما والله لو لا مكاني لاجتز الذي فيه عينا عثمان.

[145]

موقف طلحة من عثمان :

و لما أبى عثمان أن يخلع نفسه تولى طلحة والزبير حصاره والناس معهما على ذلك فحصروه حصرا شديدا ومنعوه الماء.

فأنفذ إلى علي (عليه السلام) يقول : إن طلحة والزبير قد قتلاني بالعطش والموت بالسلاح , أحسن.

فخرج علي (عليه السلام) معتمدا على يد المسور بن مخرمة الزهري حتى دخل على طلحة بن عبيد الله وهو جالس في

داره يبري نبلا وعليه قميص هندي ; فلما رآه طلحة رحب به ووسع له على الوسادة , فقال له علي (عليه السلام) : إن عثمان قد أرسل إلى أنكم قد قتلتموه عطشا وأن ذلك ليس بالحسن والقتل بالسلاح أحسن له وكنت آليت على نفسي أن لا أرد عنه أحدا بعد أهل مصر وأنا أحب أن تدخلوا عليه الماء حتى تروا رأيكم فيه.

فقال طلحة : لا والله , لا نعمة عينا له , ولا نتركه يأكل ولا يشرب.

فقال علي (عليه السلام) : ما كنت أظن أن أكلم أحدا من قريش فيردني ; دع ما كنت فيه يا طلحة.

فقال طلحة : ما كنت أنت يا علي في ذلك من شيء.

فقام علي (عليه السلام) مغضبا , وقال : ستعلم يا ابن الحضرمية : أكون في ذلك من شيء أم لا ؟ ثم انصرف.

[146]

و روى أبو حذيفة إسحاق بن بشر القرشي أيضا قال حدثني يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : والله إني لأنظر إلى طلحة وعثمان محصور وهو على فرس أدهم وبيده الرمح يجول حول الدار وكأني أنظر إلى بياض ما وراء الدرع .

موقف الزبير من عثمان :

و روى أبو إسحاق قال : لما اشتد بعثمان الحصار عمل بنو أمية على إخراجه ليلا إلى مكة , وعرف الناس ذلك فجعلوا عليه حرسا , وكان على الحرس طلحة بن عبيد الله , وهو أول من رمى بسهم في دار عثمان.

قال : وأطلع عثمان وقد اشتد به الحصار وظمئ من العطش , فنادى : أيها الناس اسقونا شربة من الماء وأطعمونا مما رزقكم الله.

فناداه الزبير بن العوام : يا نعثل , لا والله , لا تذوقه.

و روى أبو حذيفة القرشي عن الأعمش عن حبيب بن أبي ثابت عن تغلبة بن يزيد الحماني قال : أتيت الزبير وهو عند أحجار الزيت فقلت له يا أبا عبد الله قد حيل بين أهل الدار وبين الماء فنظر نحوهم وقال وحِيلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ.

[147]

فهذه الأحاديث من جملة كثيرة في هذا المعنى وهي كاشفة عما ذكرناه من إدغال القوم من التظاهر بطلب دم عثمان وهم تولوا سفكه ولم يظهر أحد منهم إلا الذم عليه.

و لما بايع الناس عليا (عليه السلام) أظهروا الندم على ما فرط منهم وقرفوه بما صنعوا وأثاروا الفتنة التي رجع عليهم

منها ما كانوا أملوه فيها منه وهو الظاهر منهم والباطن كان مخالفا للظاهر منهم فيما ادعوه بعثمان.

فصل ; في موقف عائشة من عثمان :

فأما أخبار تأليب عائشة على عثمان فهي أظهر مما وردت به الأخبار في تأليب طلحة والزبير عليه فمن ذلك ما رواه محمد بن إسحاق صاحب السيرة عن مشايخه عن حكيم بن عبد الله قال : دخلت يوما بالمدينة المسجد فإذا كف مرتفعة وصاحب الكف يقول :

أيها الناس العهد قريب هاتان نعلا رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقميصه , كأني أرى ذلك القميص يلوح , وأن فيكم فرعون هذه الأمة , فإذا هي عائشة , وعثمان يقول لها : اسكتي.

ثم يقول للناس : إنها امرأة وعقلها عقل النساء , فلا تصغوا إلى قولها.

و روى الحسن بن سعد قال : رفعت عائشة ورقة من المصحف بين عودتين من

[148]

وراء حجلتها وعثمان قائم , ثم قالت : يا عثمان ; أقم ما في هذا الكتاب.

فقال : لتنتهن عما أنت عليه أو لأدخلن عليك جمر النار.

فقالت له عائشة : أما والله لئن فعلت ذلك بنساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ليلعنك الله ورسوله وهذا قميص رسول الله لم يتغير وقد غيرت سنته يا نعثل.

و روى ليث بن أبي سليم عن ثابت بن عجلان الأنصاري عن ابن أبي عامر مولى الأنصار قال : كنت في المسجد فمر عثمان فنادته عائشة : يا غدر , يا فجر , أخفرت أمانتك وضيعت رعيتك ولو لا الصلوات الخمس لمشى إليك الرجال حتى يذبحوك ذبح الشاة.

فقال عثمان ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا لِلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وامْرَأَتَ لُوطٍ كانَتا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبادِنا صالِحَيْنِ فَخانَتاهُما فَلَمْ يُغْنِيا عَنْهُما مِنَ اللَّهِ شَيْئاً وقِيلَ ادْخُلَا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ.

و روى محمد بن إسحاق والمدائني وأبو حذيفة قال : لما عرفت عائشة أن الرجل مقتول تجهزت إلى مكة فجاءها مروان بن الحكم وسعيد بن العاص فقالا لها :

إنا لنظن أن الرجل مقتول وأنت قادرة على الدفع عنه فإن تقيمي يدفع الله بك عنه.

[149]

قالت : ما أنا بقاعدة وقد قدمت ركابي وغررت غرائري وأوجبت الحج على نفسي.

فخرج من عندها مروان بن الحكم وهو يقول :

و حرق قيس على البلاد *** حتى إذا اضطرمت أجذما

فسمعته عائشة فقالت ; أيها المتمثل هلم قد سمعت ما تقول : أ تراني في شك من صاحبك والله لوددت أنه في غرارة من غرائري حتى إذا مررت بالبحر قذفته فيه.

فقال مروان : قد والله تبنيت , قد والله تبنيت.

قال : وسارت عائشة , فاستقبلها ابن عباس بمنزل يقال له الصلعاء وابن عباس يريد المدينة ; فقالت له : يا ابن عباس إنك قد أوتيت عقلا وبيانا فإياك أن ترد الناس عن قتل هذا الطاغية.

و هذه أيضا جمله من كثير ورد بها أخبار في تأليب عائشة على عثمان والسعي في دمه اقتصرنا عليها كراهة الإملال بالتطويل وفيها أوضح دليل على أن ما تظاهرته من بعد بالطلب بدمه والمباينة لأمير المؤمنين (عليه السلام) وجمع الجموع لحربه والاجتهاد في نقض عهده وأمره وسفك دمه لم يكن الباطن فيه كالظاهر بل كان لغير ذلك فيما اشتهر عند المعتبرين لأعمال القوم قديما وحديثا وأغراضهم في الأفعال

[150]

و ما فيه من صريح القول عنهم في عداوته (عليه السلام) فليتأمل أولو الأبصار فيما رويناه وليمعن النظر أهل الاعتبار فيما حكيناه يجد الأمر فيه على ما وصفناه والله المستعان.

[151]

فصل ; في ندم طلحة والزبير على البيعة :

قد قدمنا من القول فيما كان عمل عليه طلحة والزبير في خلاف أمير المؤمنين (عليه السلام) والمباينة له والتحيز عنه وهما لما كرها ولايته وأنكرا إمرته ولم يؤثرا من الناس بيعته لما كانا عليه من الطمع في الولاية للأمر دونه والتأمر على الناس بذلك ففاتهما منه ما أملاه وندما على إفراطهما فيما صنعاه مع التسخير لهما من الله تعالى في بذل بيعتهما له (عليه السلام) طوعا واختيارا سنح لهما الاعتلال في تسويغ خلافهما له بدعوى إكراهه لهما على البيعة فتعلقا بذلك وجعلاه حجة لهما في خلافه وظنا به تمام الشبهة التي قصداها بغمر الأمر على الجهال فلما وضح لهما تهافت ما اعتمداه في ذلك بظهور اختيارهما لبيعته وإيثارهما لتقدمه عليهما والرضا بإمامته واشتهر ذلك عند الكافة من الخاصة والعامة وعلما أنه لا حجة لهما في دفع الظاهر بدعوى الباطن وأنه لو تم لهما التلبيس بدعوى الكراهية الباطنية لم تتم لهما حجة لأنه لا يسع لأحد كراهة بيعة المحق ولا يسوغ لأحد خلاف

المهاجرين والأنصار في الرضا بما يجتمعون عليه من الرضا بإمامة المرتضى في ظاهر الحال فكيف بمن يرضى برضا الله عنه في الظاهر والباطن على كل حال ولأنهما لم يجدا شبهة يتعلقان بها في كراهة إمامة أمير المؤمنين

[152]

(عليه السلام) مع جمعه للفضل وتقدم الإيمان والذب عن الإسلام والجهاد في الدين والبلاء الحسن مع الرسول والعلم الظاهر الذي لا يختلف في فضله اثنان من العلماء مع الزهد في الدنيا والورع عن محارم الله وحسن التدبير وصواب الرأي والرحم الماسة منه برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وما كان فيه من الأمور الدالة على استحقاقه التقدم على كافة الأنام من الأمة فإنه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم يول عليه واليا قط ولا أنفذه في سرية إلا وهو أميرها وسيدها ورئيسها وقائدها وعظيمها وأنه لم يفسد أحد على عهد النبي أمرا فندبه إليه إلا قوى في تلافي فارطه وكان الأمر إذا أعضل في شيء ناطه به فأنجزه وكفى به وأغناه وفزع إليه من بعده (صلى الله عليه وآله وسلم) من تقدمه في مقامه عند معضل الأمور فاستعلموا منه ما كان خافيا عليهم من أحكام الملة وصواب التدبير في مصالح الأمة فعلم طلحة والزبير أن التعلق في خلافه بكراهة البيعة له شبهة داحضة لا تثبت بها حجة عند أحد من الفضلاء والعلماء وأنه لو ثبت ما ادعياه من إكراههما على البيعة لكان أسوء لحالهما عند الأمة ولكان له (عليه السلام) في حكم الشريعة ذلك إذ للإمام القهر على طاعته والإكراه على الإجابة إلى ما يلزم الأمة من كف الفتنة وشمول المصلحة فلما علم الرجلان ذلك ووضح لهما ما ذكرناه في معانيه ولم يكونا ممن يخيل عليهما فساد الدعوى لما ادعياه وقصورهما به عن غرضهما فيه عدلا إلى التظاهر بطلب دم عثمان وزعما أن الذي كان منهما قد تابا عنه وادعيا أن التوبة لا تصح أن تتم لهما إلا ببذل الجهد في طلب قاتليه والاقتصاص من ظالميه واشتبه الأمر بما سارا إليه مما ذكرناه عنهما على المستضعفين واستغويا به كثيرا من العامة البعداء عن فقه الدين.

[153]

لحاق عائشة بالناكثين وعصيانها أمر الله :

و سلكت عائشة في خلافها لأمير المؤمنين (عليه السلام) مسلكهما في ذلك فتظاهرت به من الطلب بدم عثمان والاقتصاص من قاتله ومعلوم في شريعة المسلمين أن ذلك ليس لهما ولا إليهما وأنهما فيما تكلفاه منه على شبهة باطلة عند الناظرين لأنهما لم يكونا أولياء لدم عثمان ولا بينه وبينهما نسب يسوغهما للتخاصم في دمه ولا إلى النساء أيضا الدخول في شيء من ذلك على وجه من الوجوه إذ ليس عليهن جهاد ولا لهن أمر ولا نهي في البلاد والعباد لا سيما مع ما خص الله به أزواج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في الحكم المضاد لما صنعته هذه المرأة وتبينت بالخلاف فيه للدين وقص الله تعالى في محكم التنزيل حيث يقول جل اسمه يا أَيُّهَا النَّبِيُّ قُلْ لِأَزْواجِكَ وبَناتِكَ ونِساءِ الْمُؤْمِنِينَ يُدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلَابِيبِهِنَّ ذلِكَ أَدْنى أَنْ يُعْرَفْنَ

وفرض عليهن سبحانه التحصن والتجلبب ولا يتعرفن إلى أحد ففعلت هذه بضد ذلك من التبرج وهتك الحجاب وإطراح الجلباب وإظهار الصورة وإبداء الشخص والتهتك بين العامة فيما لا عذر لها فيه مع ما ارتكبته من قتال ولي الله الذي فرض عليها إعظامه وإجلاله ووجب عليها طاعته وحرم عليها معصيته وسفكت فيما صنعت دماء المؤمنين وأثارت الفتنة التي شانت بها المسلمين وأنى يواطئ ذلك ما أمرها الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) به.

[154]

في الحديث المشهور فقد قيل : دخل ابن أم مكتوم وهو أعمى على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) فقال لها قبل دخوله ادخلي الخباء يا عائشة فاستتري به من هذا الرجل.

فقالت , يا رسول الله : إنه أعمى ولن يراني.

فقال لها : إن لم يراك فإنك ترينه.

و قال الله سبحانه فيما أدب به أصحاب نبيه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلَّا أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلى طَعامٍ غَيْرَ ناظِرِينَ إِناهُ ولكِنْ إِذا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذلِكُمْ كانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ فَيَسْتَحْيِي مِنْكُمْ واللَّهُ لا يَسْتَحْيِي مِنَ الْحَقِّ وإِذا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتاعاً فَسْئَلُوهُنَّ مِنْ وَراءِ حِجابٍ ذلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وقُلُوبِهِنَّ وما كانَ لَكُمْ أَنْ تُؤْذُوا رَسُولَ اللَّهِ ولا أَنْ تَنْكِحُوا أَزْواجَهُ مِنْ بَعْدِهِ أَبَداً إِنَّ ذلِكُمْ كانَ عِنْدَ اللَّهِ عَظِيماً.

فبين الله عز اسمه أن خطاب المؤمنين من أصحابه لأزواج نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) يسوءه ويؤذيه وأن الانبساط لهن يشق عليه ويؤلمه وصانهن لصيانته وحراسته.

فنهى أن يؤنس بإحداهن أو يسألن متاعا إلا من وراء حجاب.

و نهى عن التلبث في بيته بعد نيل الحاجة من طعامه وغير ذلك لئلا يطول مقامهم فيه فتأنس أزواجه بهم أو يأنسون بكلامهن.

فكيف يكون هذا يوافق لما فعلته المرأة من مخالطتها للقوم ومسافرتها معهم وإطالة النجوى لهم وكونها بمحل من لا يحتشم في خطاب وكلام وأمر ونهي ويؤنس بها في كل حال وتصير بذلك كأمير العسكر وقائد الجيش الذي لا يتمكن من الاستخفاء عن أصحابه بحال ; إن هذا لعجيب عند من

[155]

فكر فيه والحكم بالعصيان به لله عز وجل والإطراح لأمره والاستخفاف بنواهيه غير مشكل على كل ذي عقل ومن اشتبه عليه ضلالها فهو ممن يعد من الأموات هذا مع قول الله عز وجل يا نِساءَ النَّبِيِّ لَسْتُنَّ كَأَحَدٍ مِنَ النِّساءِ إِنِ اتَّقَيْتُنَّ فَلا تَخْضَعْنَ

بِالْقَوْلِ فَيَطْمَعَ الَّذِي فِي قَلْبِهِ مَرَضٌ وقُلْنَ قَوْلًا مَعْرُوفاً وقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى.

و معلوم عند كل ذي لب عرف الشرع ودان بالإسلام أن أزواج عثمان وبناته وبنات عمه من بني أمية الذين هن أمس رحما به من عائشة لو تكلفن ما تكلفته لكن عاصيات خارجات عن شرف الإسلام ; فما ظنك بالبعيدة نسبا النائية عنه عقلا ومذهبا المقرفة قتله الساعية في دمه الداعية إلى خلعه المانعة عن تصرفه وما الذي أحدثه بعد إنكارها عليه مما يوجب رجوعها عما كانت عليه معتقدة ؟ وهل تراه أحدث عملا صالحا بعد قتله ؟ أو أحياه الله لها فسألها نصرته أم أوحى الله إليها من باطن أمره ما كان مستورا عنها ؟

كلا لكن الأمر فيما قصدته من حرب أمير المؤمنين (عليه السلام) وتظاهرت عليه به من عداوته كان أظهر وأشهر من أن تخفيه بالعلل والأباطيل وقد اجتمع أهل النقل عنها على ما ذكرناه في باطن الأمر وأوضحناه عنه في وجوه الحجاج وبيناه.

[157]

فصل ; في بغض عائشة لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

فمن ذلك ما رواه كافة العلماء عنها أنها كانت تقول : لم يزل بيني وبين علي من التباعد ما يكون بين الأحماء.

و قالت في خبرها عن قصة الذين رموها بصفوان بن المعطل وما كان منها في غزوة بني المصطلق وهجر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لها وإعراضه عنها واستشارته في أمرها أسامة بن زيد قالت : وكان عبدا صالحا مأمونا.

و ذكر له قذف القوم بصفوان , فقال له أسامة : لا تظن يا رسول الله إلا خيرا , فإن المرأة مأمونة , وصفوان عبد صالح.

ثم استشار عليا (عليه السلام) فقال له يا رسول الله صلى الله عليك : النساء كثيرة وسل بريرة خادمتها وابحث عن خبرها منها.

[158]

فقال له رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : فتول أنت يا علي تقريرها.

فقطع لها علي (عليه السلام) عسبا من النخل وخلا بها يسألها عني ويتهددها ويرهبها ; لا جرم أني لا أحب عليا أبدا.

فهذا تصريح منها ببغضها له ومقتها إياه ولم يكن ذلك منه (عليه السلام) إلا النصيحة لله ولرسوله واجتهاده في الرأي ونصحه وامتثاله لأمر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومسارعته إلى طاعته.

و من ذلك : ما رواه كافة العلماء من حديث عكرمة وابن عباس وأن عكرمة خبره : عن حديث حدثته عائشة في مرض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الذي توفي فيه حتى انتهت من ذلك إلى قولها : فخرج رسول الله (صلى الله عليه وآله

وسلم) متوكئا على رجلين من أهل بيته أحدهما الفضل بن العباس.

فقال عبد الله بن العباس لعكرمة : فلم تسم لك الآخر.

قال : لا والله ما سمته.

فقال : أ تدري من هو ؟

قال : لا.

قال : ذلك علي بن أبي طالب (عليه السلام) ; وما كانت والله أمنا تذكره بخير وهي تستطيع.

[159]

و الرواية المشهورة عن ابن عباس حين أنفذه أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى عائشة وهي بالبصرة نازلة في قصر ابن خلف يأمرها بالرحيل إلى وطنها والرجوع إلى بيتها والحديث مشهور قد ثبت في كتب الجمل وغيرها أن ابن عباس قال لها : إن أمير المؤمنين (عليه السلام) يأمرك أن ترتحلي إلى بيتك.

فقالت : رحم الله أمير المؤمنين وإن تربدت له وجوه ورغمت له معاطس.

هذا مع الأخبار التي لا ريب فيها ولا مرية في صحتها لاتفاق الرواة عليها أنها لما قتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) جاء الناعي فنعاه لأهل المدينة فلما سمعت عائشة بنعيه استبشرت وتمثلت بقول الشاعر :

فإن يك ناعيا فلقد نعاه *** بناع ليس في فيه التراب

فقالت لها زينب بنت أبي سلمة : أ لعلي تقولين هذا ؟

فتضاحكت ثم قالت : انسى فإذا نسيت فذكروني ; ثم خرت ساجدة شكرا على ما بلغها من قتله ورفعت رأسها وهي تقول :

فألقت عصاها واستقر بها النوى *** كما قر عينا بالإياب المسافر

هذا وقد روي عن مسروق أنه قال : دخلت عليها فاستدعت غلاما باسم

[160]

عبد الرحمن فسألتها عنه.

فقالت : عبدي.

فقلت : كيف سميته بعبد الرحمن

قالت : حبا لعبد الرحمن بن ملجم قاتل علي.

و الخبر المشهور أنه لما بعث إليها أمير المؤمنين (عليه السلام) بالبصرة أن ارتحلي عن هذه البلدة.

قالت : لا أريم مكاني هذا.

فقال لها : أم والله لترتحلن أو لأنفذن إليك نسوة من بكر بن وائل يأخذنك بشقاق حداد.

فقالت لرسوله : أنا أرتحل فبالله أحلف ما كان مكان أبغض إلي من مكان يكون هو فيه.

و أمثال هذا مما لو أثبتناه لطال به الكتاب.

[161]

تناقض مواقف عائشة :

و مما يؤكد ما ذكرناه من غرض القوم في مباينة أمير المؤمنين (عليه السلام) ومظاهرته بالخلاف وأنه لم يكن لإقامة حق واجتهاد رأي في إصابة طاعة وحوزة مثوبة بل كان لضغائن بينه وبينهم لأسباب سالفة وآنفة وطمع في عاجل وحسد له وبغي عليه وأن حكم المرأة فيما ذكرناه ظاهر لذوي الاعتبار ما أجمع على نقله رواة الآثار ونقلة السير والأخبار أنه : لما قتل عثمان بن عفان خرج النعاة إلى الآفاق فلما وصل بعضهم إلى مكة سمعت بذلك عائشة فاستبشرت بقتله وقالت : قتلته أعماله إنه أحرق كتاب الله وأمات سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقتله الله.

قالت : ومن بايع الناس ؟

فقال لها الناعي : لم أبرح من المدينة حتى أخذ طلحة بن عبيد الله نعاجا لعثمان وعمل مفاتيح لأبواب بيت المال ولا شك أن الناس قد بايعوه ; فقال : إيها ذا الإصبع قد وجدوك لها كافيا وبها محسنا.

ثم قالت : شدوا رحلي فقد قضيت عمرتي لأتوجه إلى منزلي.

فلما شد رحلها واستوت على مركبها سارت

[162]

حتى بلغت سرفا - موضع معروف بهذا الاسم - لقيها عبيد ابن أم كلاب , فقالت له : ما الخبر ؟

فقال : قتل عثمان.

فقالت : قتل نعثل ; فقالت : خبرني عن قصته وكيف كان أمره ؟

فقال : لما أحاط الناس بالدار وبه رأيت طلحة بن عبيد الله قد غلب على الأمر واتخذ مفاتيح على بيوت الأموال والخزائن وتهيأ ليبايع له ; فلما قتل عثمان مال الناس إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) ولم يعدلوا به طلحة ولا غيره وخرجوا في طلب علي يقدمهم الأشتر ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر حتى أتوا عليا (عليه السلام) وهو في بيت سكن فيه ; فقالوا له : بايعنا على الطاعة لك.

فتلكأ ساعة.

فقال الأشتر : يا علي إن الناس لا يعدلون بك غيرك فبايع قبل أن تختلف الناس.

قال ; وفي الجماعة : طلحة والزبير.

فظننت أن سيكون بين طلحة والزبير وعلي كلام قبل ذلك.

فقال الأشتر لطلحة : قم يا طلحة فبايع ; قم يا زبير فبايع ; فما تنتظران ؟

فقاما فبايعا , وأنا أرى أيديهما على يده يصفقانها ببيعته.

ثم صعد علي بن أبي طالب (عليه السلام) المنبر فتكلم بكلام لا أحفظه إلا أن الناس بايعوه يومئذ على المنبر وبايعوه من الغد.

فلما كان اليوم الثالث خرجت ولا أعلم ما جرى بعدي.

فقالت : يا أخا بني بكر أنت رأيت طلحة بايع عليا ؟

فقلت : إي والله ; رأيته بايعه وما قلت إلا ما رأيت طلحة والزبير أول من بايعه.

فقالت : إنا لله , أكره والله الرجل , وغصب علي بن أبي طالب أمرهم , وقتل خليفة الله مظلوما ; ردوا بغالي , ردوا بغالي.

فرجعت إلى مكة.

قال : وسرت معها فجعلت تسألني في المسير , وجعلت أخبرها بما كان.

فقالت لي : هذا بعدي , وما كنت أظن أن الناس يعدلون عن طلحة

مع بلائه يوم أحد.

قلت : فإن كان بالبلاء فصاحبه الذي بويع أشد بلاء وعناء.

فقالت : يا أخا بني بكر لم أسألك غير هذا ; فإذا دخلت مكة وسألك الناس ما رد أم المؤمنين فقل القيام بدم عثمان والطلب به.

و جاءها يعلى بن منية فقال لها : قد قتل خليفتك الذي كنت تحرضين على قتله.

فقالت : برأت إلى الله من قاتله.

فقال لها : الآن !؟

ثم قال لها : أظهري البراءة ثانيا من قاتله.

قال : فخرجت إلى المسجد فجعلت تتبرأ ممن قتل عثمان.

و هذا الخبر يصرح مضمونه عما ذكرناه من أنها لم تزل مقيمة على رأيها في استحلال دم عثمان ; حتى بلغها أن أمير المؤمنين (عليه السلام) قد بويع دون طلحة والزبير ; قلبت الأمر وأظهرت ضد الذي كانت عليه من الرأي , وأنه لو تم الأمر لطلحة لأقامت على ما كانت عليه وأن طلحة والزبير كانا على الرأي الأول في عثمان وأنهما رجعا عنه لما فاتهما ما كانا يأملانه من ذلك ولم يرجعا عنه لما أظهراه من بعد الندم على قتل عثمان والدعاء إلى قتلته ولا رجعا عنه استبصارا بضلالة.

فأعلمنا ذلك أن الذي ادعته الحشوية لهم من اجتهاد الرأي فيه باطل ومنحل.

و أن دعوى المعتزلة في الشبهة عليهما فيما صارا إليه من خلاف أمير المؤمنين (عليه السلام) ليس بصحيح ; بل الحق في ذلك ما ذهبت إليه الشيعة في تعمدهم الخلاف وأسباب ذلك العداوة له والشنئان مع الطمع في الدنيا والسعي في عاجلها والتأميل للتأمر على الناس والتملك لأمرهم وبسط اليد عليهم.

و أن الرجلين خاصة لما أيسا من نيل

[164]

ما طمعا فيه من الأمر فوجدا الأمة لا تعدل بأمير المؤمنين أحدا وعرفا رأي المهاجرين والأنصار في ذلك أرادا الحظوة عنده بالبدار إلى بيعته وظنا أنهما بذلك يشركانه في أمره فلما استويا بالحال من بعد وضح لهما أمره ورأيه وتحققا أنهما لا يليان معه أمرا فامتحنا ذلك مع ما غلب في ظنهما كما ذكرناه بأن صارا إليه بعد استقرار الأمر له ببيعة المهاجرين والأنصار وبني هاشم وكافة الناس إلا من شذ من بطانة عثمان وكانوا على خفاء لأشخاصهم مخافة على دمائهم من أهل الإيمان.

فصارا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فخطب إليه طلحة ولاية العراق وطلب منه الزبير ولاية الشام فأمسك (عليه السلام) عن إجابتهما في شيء من ذلك.

فانصرفا وهما ساخطان منه , فعرفا ما كان غلب في ظنهما قبل من رأيه (عليه السلام) فتركاه يومين أو ثلاثة أيام ثم صارا إليه واستأذنا عليه فأذن لهما وكان في علية في داره فصعدا إليه وجلسا عنده بين يديه , وقالا : يا أمير المؤمنين قد عرفت حال هذه الأزمنة وما نحن فيه من الشدة وقد جئناك لتدفع إلينا شيئا نصلح به أحوالنا ونقضي به حقوقا علينا.

فقال (عليه السلام) : قد عرفتما مالي بينبع فإن شئتما كتبت لكما منه ما تيسر.

فقالا : لا حاجة لنا في مالك بينبع.

فقال لهما : فما أصنع ؟

فقالا له : أعطنا من بيت المال شيئا فيه لنا كفاية.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : سبحان الله وأي يد لي في بيت المال , ذلك للمسلمين وأنا خازنهم وأمين لهم , فإن شئتما رقيت المنبر وسألتهم ذلك مما شئتما فإن أذنوا فيه فعلت ; وأنى لي بذلك وهو لكافة المسلمين شاهدهم

[165]

و غائبهم , لكني أبلي لكما عذرا.

قالا : ما كنا بالذي يكلفك ذلك ولو كلفناكه لما أجابك المسلمون.

فقال لهما : فما أصنع ؟

قالا : سمعنا ما عندك , ثم نزلا من العلية وفي أرض الدار خادمة لأمير المؤمنين (عليه السلام) فسمعتهما يقولان : والله ما بايعناه بقلوبنا وإن كنا بايعناه بألسنتنا.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً.

[166]

خروج طلحة والزبير إلى مكة :

فتركاه يومين آخرين وقد جاءهما الخبر بإظهار عائشة بمكة ما أظهرته من كراهة أمره والبراءة ممن قتل عثمان والدعاء إلى نصرته والطلب بدمه وأن عمال عثمان قد هربوا من الأمصار إلى مكة بما احتجنوه من أموال المسلمين لخوفهم من أمير المؤمنين (عليه السلام) ومن معه من الأنصار والمهاجرين وأن مروان بن الحكم ابن عم عثمان ويعلى بن منية خليفته وعامله باليمن وعبد الله بن عامر بن كريز ابن خاله وعامله على البصرة قد اجتمعوا مع عائشة وهم يدبرون الأمر في الفتنة.

فصار الرجلان إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وتيمما وقت خلوته فلما دخلا عليه قالا : يا أمير المؤمنين قد جئناك نستأذنك للخروج في العمرة.

فلم يأذن لهما.

فقالا : نحن بعيدو العهد بها , ائذن لنا فيها.

فقال لهما : والله ما تريدان العمرة , ولكنكما تريدان الغدرة , وإنما تريدان البصرة.

فقالا : اللهم غفرا , ما نريد إلا العمرة.

فقال لهما (عليه السلام) : احلفا لي بالله العظيم أنكما لا تفسدان على أمور المسلمين ولا تنكثان لي بيعة ولا تسعيان في فتنة.

فبذلا ألسنتهما بالأيمان الوكيدة فيما استحلفهما عليه من ذلك.

فلما خرجا من عنده لقيهما ابن عباس فقال لهما : فأذن لكما أمير المؤمنين ؟

قالا : نعم.

فدخل على أمير المؤمنين (عليه السلام) , فابتدأه (عليه السلام) وقال : يا ابن عباس أ عندك خبر ؟

فقال : قد رأيت طلحة والزبير.

فقال له : إنهما استأذناني في العمرة فأذنت

[167]

لهما بعد أن استوثقت منهما بالأيمان أن لا يغدرا ولا ينكثا ولا يحدثا فسادا ; والله يا ابن عباس ما قصدا إلا الفتنة , فكأني بهما وقد صارا إلى مكة ليستعينا على حربي فإن يعلى بن منية الخائن الفاجر قد حمل أموال العراق وفارس لينفق ذلك وسيفسد هذان الرجلان على أمري ويسفكان دماء شيعتي وأنصاري.

فقال عبد الله بن عباس : إذا كان عندك الأمر كذلك فلم أذنت لهما ؟ وهلا حبستهما وأوثقتهما بالحديد وكفيت المسلمين شرهما.

فقال له (عليه السلام) : يا ابن عباس أ تأمرني أن أبدأ بالظلم وبالسيئة قبل الحسنة وأعاقب على الظنة والتهمة ; أؤاخذ بالفعل قبل كونه , كلا والله لا عدلت عما أخذ الله علي من الحكم بالعدل ولا القول بالفصل ; يا ابن عباس إنني أذنت لهما وأعرف ما يكون منهما لكنني استظهرت بالله عليهما والله لأقتلنهما وليخيبن ظنهما ولا يلقيان من الأمر مناهما فإن الله يأخذهما بظلمهما لي ونكثهما بيعتي وبغيهما علي.

و هذا الخبر والذي تقدمه مع ما ذكرناه من الأثر موجود في مصنفات أصحاب السير فقد أورده أبو مخنف لوط بن يحيى في كتابه الذي صنفه في حرب الجمل وجاء به الثقفي عن رجاله الكوفيين والشاميين وغيرهم ولم يورد أحد من أصحاب الآثار نقيضه في معناه ولا أثبت ضده في فحواه ومن تأمل ذلك علم أن القوم لم يكونوا فيما صنعوه على جميل طوية في الدين ولا نصيحة للمسلمين وأن الذي أظهروه من الطلب بدم عثمان إنما كان تشبيها وتلبيسا على العامة والمستضعفين ولو لا ما جعلوه من شعارهم بدعوى الانتصار بعثمان والتظاهر بتظليم قاتليه وخاذليه

[168]

و الندم على ما فرط منهم فيه لما اختلف اثنان من العلماء وأتباعهم في صواب رأي المسلمين في عثمان وأنهم إنما اجتمعوا على خلعه وقتله باستحقاقه ذلك بالأحداث التي أحدثها في الدين ولكنهم ضلوا بما أظهروه وأفسدوا فسادا عظيما بما

أضمروه ولم يؤثر في المستضعفين في هذا الباب إلا لنأيهم عن معرفة الأخبار وتدبر الآثار واشتبه الأمر فيه على جماعة النظار بجهلهم بما أثبتناه في ذلك من الحديث وبعدهم عن معرفة طرقه ولعل جمهورهم لم يسمع بشيء منه فضلا عن تدبره وكل من ضل عن سبيل الحق إنما ضل بالتقليد وحسن الظن بمن لا يجب حسن الظن به واعتقاد فضل من خرج عنه بسوء الرأي.

و طريق الإنصاف فيما ذكرناه والنظر فيما وصفناه والتأمل لما أثبتناه من الأخبار فيه وشرحناه والرجوع إلى أهل السير على اختلافهم في الآراء والمذاهب وإلى كتبهم المصنفة في الفتن تعرف ذلك منهما ومن تدبر الأمر يجده على ما وصفناه والله سبحانه وتعالى ولي التوفيق.

[169]

براءة أمير المؤمنين (عليه السلام) من دم عثمان

باب آخر من القول فيما يتصل بالكلام المقدم في معانيه :

قد اشتبه الأمر في رأي أمير المؤمنين (عليه السلام) ومذهبه في حصر عثمان وقتله تشعب أقوال المختلفين في ذلك ولم أجد أحدا من متكلمي أصحابنا الإمامية ذكر مقالا يحصر القول في ذلك ولا كلاما في معناه يوضح الغرض الملتبس على العقلاء وكل فريق عدا الإمامية من أهل القبلة يقول في ذلك بظن وترجيم ولا يضع يده في شيء منه على معرفة ويقين والذي تدل الدلائل عليه من رأي أمير المؤمنين (عليه السلام) فيما صنعه القوم بعثمان من الحصار ومطالبته للخلع ومنعه الطعام والشراب لغاية الإجابة لهم إلى ما دعوه إليه من اعتزال الأمر ثم الهجوم عليه بالقتل وإلقائه على بعض المزابل لا يرون الصلاة عليه ولا الدفن له ويمنعون من ذلك على ما أجمعت

[170]

عليه رواة الآثار والأخبار المتفق على صحته العلماء بالسير والآثار الكراهة منه (عليه السلام) لجملة ذلك واعتزال القوم فيه غير أنه لم يواط على كراهته غيره على نيته فيه ولا وافق سواه من مخالفيه على طويتهم في معناه وذلك أنه (عليه السلام) لم يتسرع مع القوم في دعاء عثمان إلى الاعتزال ولا رأى ما رأوه من حصاره وما ولي ذلك من أفعالهم به لأنه (عليه السلام) علم عاقبة الأمر في ذلك وتحققها ولم يخف عليه ما يكون في مستقبل الأوقات من الفتنة بذلك والاختلاف والحروب وسفك الدماء بأن مخالفيه لقديم العداوة له والبغضاء له والشنئان والحسد والبغي عليه بالطغيان سيقرفونه بقتل عثمان والسعي في دمه بهتا له بذلك على ما ذكرناه من الضعفاء في الدين البعداء عن علمه ولم يصر إلى الاعتزال عما صنعه القوم بالرجل لولائه له ولا لاعتقاده بالجميل فيه وكيف يكون اعتزاله لهم عما رأوه من خلعه وحصره وقتله لاعتقاد الحق له عليهم وثبوت إمامته بحكم الله في ذلك كما ظنه أولياء الرجل وهو (عليه السلام) يعلم ويعلن أنه مظلوم بدفعه عن الأمر بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم)

وتقدم من لا يستحق عليه والتصغير من شأنه والحط بذلك له عن قدره وإغراء السفهاء بذلك في جحد فضله وإنكار فرضه وتظلمه من القوم جميعا في مقام بعد مقام على التلويح والتصريح والتحقيق والتعريض.

كقوله (عليه السلام) :

[171]

اللهم إني أستعديك على قريش فإنهم ظلموني ومنعوني حقي.

أي إرثي في مقام مشهور.

و قوله (عليه السلام) في مقام آخر : اللهم اجز قريشا عني الجوازي فقد ظلموني حقي وصغروا شأني ومنعوني إرثي.

و قوله (عليه السلام) في مقام آخر : لم أزل مظلوما منذ قبض رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

و قوله (عليه السلام) :اللهم اجز عمر لقد ظلم الحجر والمدر.

و قوله (عليه السلام) في مقام آخر : والذي فلق الحبة وبرأ النسمة لعهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلي أنه ستغدر بك الأمة من بعدي.

و قوله (عليه السلام) في مقام آخر :لما قبض الله نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) لم نكن نرى أن أحدا يعدل بهذا الأمر عنا أهل البيت حتى قوي من قوي عليه فابتزنا حقنا منه.

و قوله (عليه السلام) في مقام آخر : فلما مضى نبينا (صلى الله عليه وآله وسلم) تقلدها أبو بكر وأنه والله ليعلم أني أولى بها منه كقميصي هذا وقبض قميصه بيده.

و قوله (عليه السلام) في خطبته المشهورة :

أما والله لقد تقمصها ابن أبي قحافة وإنه ليعلم أن محلي منها محل القطب من الرحى ينحدر عني السيل ولا يرقى إلي الطير فصبرت وفي العين قذى وفي الحلق

[172]

شجا أرى تراثي نهبا حتى إذا حضر أجله جعلها في صاحبه عمر فيا عجبا بينا هو يستقيلها في حياته إذ عقدها لآخر بعد وفاته في كلامه المشهور حتى انتهى إلى الشورى فذكر عمر وقال فجعلها شورى في ستة زعم أني أحدهم فيا لله وللشورى متى اختلج الريب في مع الأولين حتى صرت أقرن بهذه النظائر ثم مد في كلامه حتى انتهى إلى بيعة عثمان فذكر عبد الرحمن في اختياره لعثمان عليه فقال ونهض واحد لضغنه ومال آخر لصهره.

و كان عبد الرحمن صهر عثمان على أخته في الكلام الثابت في الخطبة إلى آخرها.

و قوله (عليه السلام) في أول خطبة خطبها بعد قتل عثمان وبيعة الناس له :

قد مضت أمور كنتم فيها غير محمودي الرأي أما أني لو أشاء أقول لقلت ولكن عفا الله عما سلف سبق الرجلان وقام الثالث كالغراب همته بطنه وفرجه يا ويله لو قص جناحه وقطع رأسه لكان خيرا له حتى انتهى إلى قوله وقد أهلك الله فرعون وهامان وقارون.

يتصل بهذا الكلام إلى آخر الخطبة.

و قوله عند بيعة عبد الرحمن لعثمان يوم الشورى : والله ما أملت منه إلا ما أمل صاحبك من صاحبه دق الله بينكما عطر منشم.

ثم انصرف.

و أمثال هذا الكلام كثير إن قصدنا إلى إثباته لطال به الكتاب وفي ثبوت النص على أمير المؤمنين (عليه السلام) بالإمامة في القرآن والأخبار المتواترة عن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أوضح دليل على أنه (عليه السلام) لم يكن راضيا

[173]

بتقدم أحد عليه في مقام النبوة ولا مصوبا لهم في ادعاء الإمامة فكيف وقد تضافرت الأخبار بما ذكرناه وبما كشف به عن عقيدته فيه ورأيه في القوم على ما بيناه ولو لم يكن عليه نص في الإمامة ولا ورد فيه مقال في إنكار ما صنعه القوم في التقدم عليه في الأمر لكان الدليل القاهر من فضله (عليه السلام) وثبوته عن جماعتهم بذلك كافيا في كراهة أمرهم وإنكاره عليهم ولو انسد الطريق في ذلك أجمع واشتبه الأمر فيه لم يعترض ريب في إنكاره لأحداث عثمان بن عفان التي أجمع على إنكارها المهاجرون والأنصار والتابعون بإحسان وما تظاهرت به الأخبار من مواليه (عليه السلام) الإنكار عليه في مقام بعد مقام.

[175]

ما نقموه على عثمان

تعطيل عثمان الحد عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب :

أ لا ترى إلى ما جاءت به الأخبار من إنكاره (عليه السلام) إدراء الحد عن عبيد الله بن عمر بن الخطاب وقد استحق القود بقتله الهرمزان ومن قتله معه من أهل العهد بغير حق في مقتضى شريعة الإسلام.

و لما طالبه بالقود منه , تعلل عثمان : تارة بأن أباه قتل ولا يرى قتله اليوم لما تحزن المسلمون بذلك وتتواتر عليهم الهموم والغموم ولما يخاف من الاضطراب به والفساد.

فرد عليه أمير المؤمنين (عليه السلام) هذا الرأي وأعلمه : أن حدود الله لا تسقط ولا يجوز تضييعها بمثل هذا الاعتلال.

فعدل عثمان إلى التعلل بالرأي في إسقاط الحد عن ابن عمر خلافا على رأي أمير المؤمنين (عليه السلام) فيه ومضادة لما ادعاه عليه وأشار به عليه في حكم الله

[176]

و قال الهرمزان رجل غريب لا ولي له وأنا ولي من لا ولي له وقد رأيت العفو عن قاتله.

فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) : ليس للإمام أن يعفو عن حد يتعلق بالمخلوقين إلا أن يعفو الأولياء عنه , وليس لك أن تعفو عن ابن عمر ولكن إن أردت أن تدرأ الحد عنه فأد الدية إلى المسلمين الذين هم أولياء الهرمزان واقسمها مع ما في بيت المال على مستحقيه.

فلما رأى أمير المؤمنين (عليه السلام) دفاع عثمان عن الحد الواجب في حكم الله وتعلله في ذلك قال له : أما أنت فمطالب بدم الهرمزان يوم يعرض الله الخلق للحساب وأما أنا فإنني أقسم بالله لئن وقعت عيني على عبيد الله بن عمر لآخذن حق الله منه وإن رغم أنف من رغم.

فاستدعى عثمان عبيد الله ليلا وأمره بالهرب من أمير المؤمنين (عليه السلام) فخرج من المدينة ليلا وقد أصحبه عثمان كتابا أقطعه فيه الكوفة فهي تسمى كويفة ابن عمر فلم يزل بها حتى ولي أمير المؤمنين (عليه السلام) فكان عبيد الله في جملة المباينين له واجتهد في حربه مع جند الشام فقتله الله ببغيه ولقاه أعماله وكفى المسلمين شره.

[177]

فصل ; تظلم أهل الكوفة من الوليد بن عقبة إلى عثمان :

و لما ورد أهل الكوفة يتظلمون من الوليد بن عقبة بن أبي معيط وشهدوا عليه بشرب الخمر وسكره وصلاته فيها بالناس الفجر وهو سكران وأنه قاء بالخمر في المحراب ونام في موضعه حتى حمل منه وجعل بموضع القرآن شعرا مشهورا فاغتاظ عثمان من الشهود وتغير عليهم وأمر بضربهم فصاروا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) يشكون إليه أمرهم وما حل بهم من عثمان.

فقام علي (عليه السلام) حتى دخل عليه ; فلما رآه عثمان قال ما لك يا ابن أبي طالب أ حدث أمر ؟

قال : نعم ; حدث أمر عظيم.

قال عثمان : وما ذاك ؟

قال : عطلت الحدود وضربت الشهود.

فقال عثمان : فما ترى ؟

قال : أرى أن تعزل أخاك عن الكوفة وتستدعيه وتقيم عليه الحد.

قال : أنظر في هذا.

[178]

فصل ; في اعتراض أبي ذر على عثمان :

و لما كان من إنكار أبي ذر رحمه الله أحداث عثمان ما كان ودخل عليه بعض الأيام وعنده قوم يمدحونه بالأباطيل ; فأخذ بيده كفا من التراب فضرب به وجوههم.

فقال له عثمان : ويلك ما هذا ; تضرب وجوه المسلمين بالتراب ؟

قال : إني لم أفعل إلا ما أمر به رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

اعلم أني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : إذا رأيتم المداحين فاحثوا في وجوههم التراب.

و قد رأيت هؤلاء يتقربون بالأباطيل إليك ويمدحونك بما ليس فيك.

فقال له عثمان : كذبت فبينا هو يكذبه ويغلظ له في القول وأبو ذر يخاصمه إذ دخل أمير المؤمنين (عليه السلام) ; فقال له عثمان : يا علي أ ما ترى هذا الكذاب كيف يكذب على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فقال له علي : أنزله يا عثمان فيما قال منزلة مؤمن آل فرعون قال الله عز اسمه إِنْ يَكُ كاذِباً فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وإِنْ يَكُ صادِقاً يُصِبْكُمْ بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ.

فغضب عثمان , وقال : اسكت بفيك التراب.

فجثا (عليه السلام) على ركبتيه ثم قال له : بل بفيك التراب سيكون.

[179]

فصل ; في غضب عثمان من إقامة الحد على الوليد :

و لما حضر الوليد لإقامة الحد عليه أخذ عثمان السوط فألقاه إلى من حضره من الصحابة وقال وهو مغضب من شاء منكم فليقم الحد على أخي.

فأحجم القوم عن ذلك ; فنهض أمير المؤمنين (عليه السلام) وبيده السوط إلى الوليد فلما رآه الوليد يقصد نحوه ليضربه نهض من موضعه لينصرف فبادر إليه (عليه السلام) فقبضه فشتمه الوليد فسبه أمير المؤمنين (عليه السلام) بما كان أهله وتعتعه حتى أثبت إقامة الحد عليه.

فاستشاط عثمان من ذلك , وقال له : ليس لك أن تتعتعه يا علي ; ولا لك أن تسبه.

فقال له (عليه السلام) : بل لي أن أقهره على الصبر على الحد وما سببته إلا لما سبني بباطل , فقلت فيه حقا.

ثم ضربه بالسوط - وكان له رأسان - أربعين جلدة , في الحساب بثمانين.

فحقدها عليه عثمان.

[180]

فصل ; إرجاع عثمان طريد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى المدينة :

و لما رد عثمان طريد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) الحكم بن أبي العاص وكان قد نفاه عن المدينة إلى الطائف وذلك أنه كان يؤذي النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حتى بلغ من أذاه أنه كان يتسلق على حائط بيته ليراه مع أزواجه فبصر به (صلى الله عليه وآله وسلم) وهو متطلع عليه فلما وقعت عيناه في عينيه كلح في وجه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم نزل وكان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذا مشى مشى خلفه الحكم ثم تخلع في مشيته يحكيه (صلى الله عليه وآله وسلم) وكانت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) التفاته إليه فقال له كن كما أنت فلا يقدر على المشي بعدها إلا مختلعا وكان يقف نصب عينيه فإذا تكلم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بشيء من الوحي أو شرع لأمته من الدين شيئا أو وعظهم وأنذرهم أو وعدهم أو رغبهم أو علمهم شيئا من الحكم لوى الحكم شدقيه في وجهه يحكيه ويعيب به فلما طال

[181]

ذلك منه على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد كان يداري قومه من قبل بالصبر عليه نفاه إلى الطائف وأباح دمه متى وجد بالمدينة ومضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والحكم مطرود.

فلما ولي أبو بكر جاءه عثمان فسأله في رده فامتنع عليه وقال له قد مضى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولم يأذن له في الرد فإني لا أرده.

فلما مات أبو بكر وولي عمر الأمر ; جاءه عثمان ليسأله في رده.

فقال قد كنت سألت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في ذلك فلم يجبك.

و سألت أبا بكر فلم يجبك.

و لست أنا أجيبك إلى ما سألت ; فأمسك يا عثمان فإني لا أخالف صاحبي.

فلما ولي عثمان الأمر ; استدعاه من الطائف إلى المدينة وآواه وحباه وأعطاه وأقطعه المربد بمدينة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم).

فعظم ذلك على المسلمين وقالوا : آوى طريد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وحباه وأعطاه وصاروا إلى أمير

المؤمنين (عليه السلام) فسألوه أن يكلمه في إخراجه عن المدينة ورده إلى حيث نفاه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فجاءه أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال قد علمت يا عثمان أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد نفى هذا الرجل عن المدينة ومات ولم يرده وأن صاحبيك سلكا سبيله في تبعيده وابتغاء سنته في ذلك فقد عظم على المسلمين ما صنعت في رده وإيوائه فأخرجه عن المدينة واسلك في ذلك سنة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فقال : يا علي قد علمت مكان هذا الرجل مني وأنه عمي وقد كان النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) أخرجه ليلا عنه لبلاغه ما لم يصح عليه وقد مضى النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) لسبيله ورأى أبو بكر وعمر ما رأياه وأنا أرى أن أصل رحمي وأقضي حق عمي ; وليس هو شر أهل الأرض وفي الناس من هو شر منه.

[182]

فقال (عليه السلام) : والله لئن أبقيته يا عثمان ليقولن الناس فيك شرا من هذا وشرا من هذا.

[183]

فصل ; في استئثار عثمان ببيت المال :

و لما كان من عثمان من تفريق ما في بيت المال على أوليائه وأقربائه وإخراج خمس مال إفريقية إلى مروان بن الحكم وتسويغه إياه وحبائه زيد بن ثابت بمائة ألف درهم من بيت المال وإقطاعه من أقطع من أرض المسلمين وإجازته الشعراء بكثير من مال المسلمين أعظم المسلمون ذلك وفزعوا إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فدخل عليه ووعظه وذكر له ما عليه المسلمون من إنكاره بما عمله فسكت عثمان ولم يجبه بحرف.

فلما طال على أمير المؤمنين (عليه السلام) سكوته , قال له : بما ذا أرجع إلى المسلمين عنك أ لك عذر فيما فعلت ؟

قال : انصرف يا ابن أبي طالب فسأخرج إلى المسجد وتسمع مني جواب ما سألت عنه.

ثم خرج عثمان بعد وقت حتى صعد المنبر واجتمع المسلمون لسماع كلامه , فقال :

معاشر المسلمين قد بلغني خوضكم في بري أهل بيتي وصلتي لهم وحباي لمن حبوت من أهل بيتي وأوليائي وذوي قرابتي إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كان من بني هاشم فحبا أهله ووصلهم وجعل لهم الخمس نصيبا ووفره عليهم

[184]

و نحلهم صفو الأموال وأغناهم عن السؤال ; وأن أبا بكر حبا أهله وخصهم بما شاء من المال ; وأن عمر حبا بني عدي وأصفاهم وخصهم بالإكرام والإعظام وأعطاهم ما شاء من المال ; وأن بني أمية وعبد شمس أهلي وخاصتي وأنا أخصهم بما شئت من المال أما والله لو قدرت على مفاتيح الجنة لسلمتها إلى بني أمية على رغم أنف من رغم.

فقام عمار بن ياسر فأخذ بطرف أنفه , وقال : والله إن أنفي أول أنف يرغم بذلك.

و تفرق المسلمون على سخط من مقالته.

و جاء خزان بيت المال فألقوا المفاتيح بين يديه ; وقالوا : لا حاجة لنا فيها وأنت تصنع في أموال الله ما تصنع.

[185]

فصل ; في غضب عثمان على عمار وضربه إياه :

و لما كتب المسلمون كتابا يذكرون فيه ما ينكرون من أحداثه التمسوا من يوصله إليه ليقف عليه فيرجع عن ذلك أو يعرفون رأيه فيه فوقع اختيارهم على عمار بن ياسر فضمن لهم عرض الكتاب عليه وأخذه ثم استأذن حاجبه في إيصاله إليه فأذن له فدخل عليه وقد لبس ثيابه وهو يلبس خفيه , فقال له : مرحبا بك يا عمار ; فيم جئت ؟

قال : جئتك بهذا الكتاب.

فأخذه من يده , فلما قرأه تغير واستشاط غضبا ; ثم قال له : يا ماص بظر أمه , أنت تجتري علي فتلقاني بما أكره ; ووثب إليه فدفعه حتى انصرع على الأرض وداس بطنه وعورته حتى أحدث وأغمي عليه ; فلم يصل الظهر والعصر والمغرب والعشاء الآخرة.

و عرف المسلمون ذلك فانكروه , وقال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) ما هو مشهور روى ذلك محمد بن إسحاق عن الزهري وأبو حذيفة القرشي عن رجاله وغيرهما من أصحاب السير.

[186]

و قد كان من أمير المؤمنين (عليه السلام) في مقامات أخر تنديد عليه ووعظ مشهور وكان بينه وبين عثمان هنات ومهاجرات ومباينات في أوقات متفرقات.

من ذلك ما رواه أبو حذيفة القرشي قال حدثني إسحاق بن محمد قال حدثني الحسن بن عبد الله عن عبيد الله بن عباس عن عكرمة عن عبد الله بن عباس قال : كان بين عثمان بن عفان وبين علي بن أبي طالب (عليه السلام) كلام على عهد عمر بن الخطاب فقال له عثمان فيما يقول فما ذنبي والله لا تحبكم قريش أبدا بعد سبعين رجلا قتلتموهم منهم يوم بدر كأنهم شنوف الذهب.

[187]

نصيحة أمير المؤمنين (عليه السلام) لعثمان :

و روى المدائني عن علي بن صالح قال : ذكر ابن دأب قال لما عاب الناس على عثمان ما عابوا كلموا عليا فيه فدخل عليه وقال إن الناس ورائي قد كلموني فيك والله ما أدري ما أقول لك ما أعرف شيئا تنكره ولا أدلك على شيء تجهله إنك لتعلم ما نعلم ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه ولا خلونا بأمر فنعلمك وقد رأيت كما رأينا وسمعت كما سمعنا وصحبت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) كما صحبنا وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بشيء من عمل الخير منك وأنت أقرب إلى رسول الله

(صلى الله عليه وآله وسلم) وقد نلت من صهره ما لم ينالا فالله الله في نفسك فإنك والله ما تبصر من عمى ولا تعلم من جهل وإن الطريق لواضحة بينة وإن أعلام الدين لقائمة تعلم يا عثمان أن أفضل عباد الله عند الله إمام عادل هدى وهدي به أحيا سنة معلومة وأمات بدعة مجهولة وإن السنن لنيرة لها أعلام وإن البدع لظاهرة لها أعلام وإن شر الناس عند الله إمام جائر ضل وضل به وأمات سنة معلومة وأحيا بدعة متروكة وإني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

[188]

يقول يؤتى يوم القيامة بالإمام الجائر وليس معه نصير ولا عاذر فيلقى في جهنم فيدور فيها كما تدور الرحى ثم يرتطم في غمرة جهنم وإني أحذرك أن تكون إمام هذه الأمة الذي يقتل فإنه كان يقال يقتل في هذه الأمة إمام فيفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة ويلتبس عليها أمرها وتنشب الفتن فيها فلا يبصرون الحق لعلو الباطل يموجون فيها موجا ويمرجون فيها مرجا فلا تكن لمروان سيقة يسوقك حيث شاء بعد جلال السن وتقضي العمر.

فقال له عثمان : كلم الناس في أن يؤجلوني حتى أخرج إليهم من مظالمهم.

فقال (عليه السلام) : ما كان في المدينة فلا أجل فيه وما غاب فأجله وصول أمرك إليهم.

فقال له عثمان : والله قد علمت ما تقول أما والله لو كنت بمكاني ما عنفتك ولا ثلبتك ولا عبت عليك ولا جئت منكرا ولا عملت سوء أن وصلت رحما أو سددت خلة.

[189]

ثم خرج عثمان , فجلس على المنبر مغضبا , فقال :

أما بعد فإن لكل شيء آفة ولكل نعمة عاهة وإن آفة هذه الأمة وعاهة هذه النعمة عيابون طعانون يرونكم ما تحبون ويسرون ما تكرهون يقولون لكم وتقولون طغام أمثال النعام يتبعون أول ناعق أحب مواردها إليها البعيد لا يشربون إلا نغصا ولا يردون إلا عكرا لا يقوم لهم رائد والله لقد عبتم علي بما أقررتم لابن الخطاب بمثله ولكنه وطئكم برجله وضربكم بيده وقمعكم بلسانه فدنتم له ما أحببتم أو كرهتم وأوطأتكم كتفي وكففت يدي ولساني عنكم فاجترأتم علي أم والله لأنا أعز نفرا وأقرب ناصرا وأكثر عددا وأقمن من قال هلم أتي إلي ولقد أعددت لكم أقرانكم وأفضلت عليكم فضلا وكشرت لكم عن نابي وأخرجتم مني خلقا لم أكن أحسنه ومنطقا

[190]

لم أكن به أنطق فكفوا عني ألسنتكم وطعنكم وعيبكم على ولاتكم فما الذي تفقدون من حقكم والله ما قصرت في بلوغ شيء ممن كان قبلي وما وجدتكم تختلفون عليه فما بالكم فما لي لا أصنع في الفضل ما أريد فلم كنت إذن إماما.

فقام مروان بن الحكم فقال : إن شئتم حكمنا بيننا وبينكم السيف فنحن وأنتم كما قال الشاعر :

زرعنا لهم أحسابنا فنمت لهم *** مغارسهم إذ ينبتون على الدمن

فقال عثمان لمروان : اسكت أسكتك الله , دعني وأصحابي , ثم نزل عثمان.

[191]

فلما كان بعد أيام عاد إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) فوعظه.

فقال له : لست ألومك يا علي وإني لأعلم شأنك لي دعني وأصحابي.

فقال له علي (عليه السلام) : قد أديت إليك ما أوجب الله علي ; وخرج من عنده.

فلم يكن بأسرع من عثمان أن خرج إلى المسجد فرقى المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد أيها الناس فو الله ما عاب علي من عاب منكم إلا وأنا أعرفه ولكني منتني نفسي وكذبتني نصيحتي وضل عني رشدي.

و قد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول من زل فليتب ومن أخطأ فليتب.

و لا تتمادوا بالهلكة إن من تمادى في الجور بعد عن الطريق فأنا أول من اتعظ أستغفر الله إذا زللت فليأتني أشرافكم فيردوني فو الله لئن ردني إلى الحق عبد لأكونن له كالمرقوق إن ملك صبر وإن عتق شكر وما عن الله مذهب إلا إليه لا يعجزن عنكم خياركم أن يدنوا إلي لئن أبت يميني لتتابعني شمالي.

فقام إليه المقداد بن عمرو , فقال : يا عثمان لا يرحل رحلك من ليس معك.

[192]

و لما نزل عثمان وجد في منزله مروان بن الحكم وسعيد بن العاص ونفرا من بني أمية فلما جلس ; قال له مروان : يا أمير المؤمنين أتكلم أم أصمت ؟

فقالت له نائلة بنت الفرافصة امرأة عثمان : بل اصمت ; فأنتم والله قاتلوه وموبقوه إنه قال مقالة لا يمكن أن ينزع عنها.

فأقبل عليها مروان فقال لها : وما أنت وهذا , فو الله لقد مات أبوك ولا يحسن أن يتوضأ.

فقالت له : مهلا عن ذكر الآباء فإنك تخبر عنه وهو غائب تكذب عليه وإن أباك لا يستطيع أن يدفع عنه أما والله لو لا عفو ربنا عنه لأخبرتك ولم أكذب عليه.

قال مروان : - وأعرض عنها - أتكلم أم أسكت ؟

فقال له عثمان : تكلم.

فقال : بأبي أنت وأمي لوددت أن مقالتك هذه وأنت ممتنع منيع وكنت أول من رضي بها وأعان عليها ولكنك قلت ما قلت

حين بلغ الحزام الطبيين وبلغ السيل الزبى أعطى الخطة الذليلة الذليل والله لإقامة على خطيئة يستغفر

[193]

منها أجمل من توبة تخوف عليها فإنك إن شئت تقربت بالتوبة ولم تقر بالخطيئة وقد اجتمع على الباب مثل الجبال من الناس.

قال : فاخرج إليهم وكلمهم فإني أستحيي منهم.

فخرج مروان , ففتح الباب والناس يركب بعضهم بعضا ; فقال : ما شأنكم قد اجتمعتم أيها الناس كأنكم جئتم لنهب ; شاهت الوجوه كل منكم آخذ بإذن صاحبه ألا من أريد جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ; اخرجوا عنا أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ولا تحمدوا غب رأيكم ارجعوا إلى منازلكم فإنا والله ما نحن بمغلوبين على المبادرة ولكن لم نرضها.

فرجع الناس وخرج بعضهم إلى أمير المؤمنين , فقالوا : خرج علينا مروان فقال كذا وكذا وقصوا عليه الخبر.

فخرج علي (عليه السلام) مغضبا حتى دخل على عثمان ; فقال : أ رضيت يا عثمان من مروان ولا يرضى منك إلا بتحرفك عن دينك وبخدعك عن عقلك مثل جمل الظعينة يقاد حيث يسار به والله ما مروان بذي رأي في دينه ولا نفسه وايم الله إني لا أراه إلا سيوردك ولا يصدرك وما أنا عائد

[194]

بعد مقامي هذا لمعاتبتك ; أذهبت والله شرفك , غلبت على أمرك.

ثم انصرف عنه.

[195]

و بعث عثمان في الحال المسور بن مخرمة الزهري بكتاب إلى معاوية بن أبي سفيان أما بعد فإني كتبت إليك كتابي هذا وو الله ما أحسبه يبلغك وأنا حي وقد رأيتك ورضيت بمكانك واطمأننت إلى نفسك ووثقت بأمنية من مناك ولن تنتهي بك الأمنية دون الذلة أو المنية فإحداهما خير لك من الأخرى فإذا بلغك كتابي هذا فابعث إلي جيشا سريعا برجل معه من أهل ثقتك في نفسك واجعله حبيب بن مسلمة ثم مره فليجعل اليومين يوما والليلتين ليلة والمنزلين منزلا وإن استطعت أن تفاجئني مفاجاة فقد ألقيت العصا ولم يبق إلا خذوات وأعط وامنع وهات وهلم ونعم ولا وبين ذلك موت عاجل وأمر ناهض والدين مع أول صدمة والسلام.

[196]

في أمثال ما أثبتناه من كلام أمير المؤمنين (عليه السلام) لعثمان وإنكاره عليه في مقام بعد مقام واعتزاله أمره وأمر القوم حتى كان منه ومنهم ما كان وكيف يكون أمير المؤمنين (عليه السلام) مصوبا رأي عثمان مع ما وصفناه وراضيا بشيء

من أفعاله على ما ذكرناه وكيف لا يكون ساخطا مع ما بيناه ومشاركا للقوم جميعا في تبديعه على ما قدمناه غير أنه لم يساعدهم على حصره ولا أعانهم على خلعه ولا شركهم في قتله لما أسلفناه من القول في عاقبة ذلك وعلمه بها وإحاطته بجميع ما كان منها ولإقامة الحجة على قارفيه بدمه في بطلان تزويرهم له وإيضاحه عن بهتانهم فيه عليه وليس ذلك بمناف لرأيه الذي بيناه عنه وشرحناه ولنا في أحكام قاتلي عثمان وخاذليه وحاصريه كلام سنبينه شافعا لهذا الفصل إن شاء الله.

[197]

فصل ; الآراء في أحداث عثمان :

اعلم علمك الله الخير وجعلك من أهله ووفقك لما يرضاه أني لم أجد أحدا حقق القول في آراء المنكرين على عثمان وما أنكروه من الأحداث ولا صواب مذاهبهم في ذلك وخطأها وأكثر من قال منهم قولا فهو يسنده إلى ظن تضعف أمارته أو إلى عقد يسبق له في ذلك وكان قوله فيه بحسبه والقوم عندي في ذلك كانوا على مذاهب شتى وآراء متباينة وأغراض متنافية.

فطائفة منهم تعلقوا عليه بأحداث لم ينكروا مثلها من غيره طمعا فيه واستعفاء لما له وقصدا إلى تقلد الأمر من بعده ونيل الرئاسة بخلعه وقتله فمن هذه الطائفة من قدمنا ذكره في حصر عثمان وتولى ذلك بنفسه وأعوانه وتغلب على بيت المال في حياته وجعل لأقفال أبوابه مفاتيح في يديه فاجتهد في سفك دمه بمنعه الماء وسعيه في إتلافه بذلك فلما تم الأمر في قتل الرجل تطاول منهم من تطاول للأمر فظن أنه

[198]

مطاع مختار متابع فبطل بانصراف الناس إلى غيره باختيارهم سواه ظنه فلما فاته ما كان أمله ورجاه بالسعي الذي سعاه وانقاد لبيعة الإمام إما طمعا أو خوفا تعقب الرأي فنكث البيعة وخرج عن العهدة وفارق الإسلام ونصب له الحرب حتى آل أمره في ذلك إلى ما آل.

و طائفة منهم أرغمها عثمان بمنعه لها المراد منه وردها عن طلباتها وأبطل رسومها فحقدت عليه لذلك وسعت في خلعه وسفك دمه وظنت أن الأمر يصير من بعده إلى من تتمكن من قياده ويجيبها إلى ملتمسها بها منه فلما تم ما سعت فيه فات القوم الذي رجت لهم ما رجت من الأمر ورجعت عن رأيها إلى نقيضه وأظهرت الندم على ما فرط منها فيه وتحيزت إلى الفرقة الأولى وصارت معها ألبا على الإمام القائم مجتهدة في إزالة الأمر عنه ومصيرة إلى من ترجوه معينا لها ومطيعا لأمرها وسامعا لقولها فلقيت الجميع الخيبة مما رجت وكانت عاقبة أمرها خسرا.

و طائفة انتقضت عادتها بعثمان والإكرام لها والإعظام ممن تقدمه فصارت بذلك كارهة لأمره وساعية في خلعه.

و طائفة كان المتقدمون يقلدونهم الأعمال فاستبدل عثمان منهم سواهم من الناس وحرمهم ما كانوا يصلون إليه من بيت

المال فسعوا من ذلك في خلعه وعاونوا من أجله على قتله.

[199]

و طائفة استشنعت أحداثا كانت منه واعتقدت فيه الضلال بذلك وقصدت في خلعه قصد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فربما كان منهم غالط فيما استشنعه وربما كان منهم مصيب فيه غير أن الغرض كان منهم فيما صنعوه قصدا لنصرة الدين والإسلام وهذه الطائفة هي التي كانت الأصل في الإنكار عليه وبفعلها تسببت الأسباب في خلعه وقتله.

و طائفة منهم كانت تعتقد الحق في أصل الإمامة وطريقها وترى أن السالك سبيل عثمان في نيل الأمر مشاركا فيما أنكروه منه ولم يكن الذي حملهم على معونة حاصريه وقاتليه ممن عددناه بشيء من أغراضهم على ما شرحناه وفصلناه بل كان غرضهم في ذلك بما لو تم لهم فيما صنعوه فيمن تقدم لسارعوا إليه لكن لم يتفق لهم في المتقدم واتفق لهم في المتأخر.

فأما خاذلوه فجمهورهم تنقسم أغراضهم في ذلك إلى أغراض من سميناه من خذله أو الشك في حاله وأحوال حاصريه وقاتليه فلذلك لم يجوزوا المعونة لهم عليه ولا تفردوا بالنصرة له منهم.

[200]

موقف أمير المؤمنين (عليه السلام) من أحداث عثمان :

و أما أمير المؤمنين (عليه السلام) فلم يكن تفرده عن نصرته وترك النهوض بالدفاع عنه خذلانا له لرأي يستصوبه في خلعه وقتله بل كان رأيه (عليه السلام) تابعا في ذلك لعقيدته فيمن تقدم عليه بالأمر من كافة القوم وكان عالما بالعواقب غير شاك في المصالح يرى الموادعة والمهادنة والرقود والمسالمة إلى انقضاء المدة التي يعلم صواب التدبير فيها بذلك فامتنع (عليه السلام) من التحمل للدفاع عن حصره وقتله بمثل ما امتنع من دفاع المتقدمين عليه في الأمر وذلك لشيئين معروفين :

أحدهما : لعدم الأنصار له على مراده في ذلك.

و الثاني : لوخيم العاقبة في المباينة للجمهور ولما يقتضي الحرب ويوقع الفتنة وقد دفع (عليه السلام) عنه بالقول في أحوال اقتضت المصلحة عند دفاعه به وأمسك عن الإنكار لما كان القوم عليه والرأي في حصره وخلعه وقتله لما عرف من جميل العاقبة في ذلك ; ولو لم يكن (عليه السلام) مستودعا علم ذلك كما تذهب إليه الشيعة فيه لكانت مشاهدته للحال ودلائلها تكفيه وتقنعه فيما صنع ورآه في الأحوال والاختلاف بين ذوي العقول فإن الشاهد يرى ما لا يرى الغائب فعمل (عليه السلام) في اختلاف الأقوال منه والأفعال على علمه بعواقب الأمور وشاهد الحال فلذلك التبس الأمر على الجمهور في رأيه (عليه السلام) في عثمان وقاتليه.

[201]

فنسبه بعض الناس : إلى الرضا بما صنع القوم بعثمان.

و نسبه آخرون : إلى المواطاة عليه والتأليب.

و نسبه آخرون : إلى الهوى في ذلك والتقصير فيما كان يجب عليه لعثمان.

و نسبه آخرون : إلى الكراهة لما أجرى القوم في حصر الرجل فادعوا أنه كان له مواليا وبأعماله راضيا لكن العجز عن نصرته أقعده عنها.

ثم أكد الشبهة عليهم فيما ذكرناه من اختلاف الاعتقاد في ذلك ما قدمنا ذكره من أفعاله المختلفة مع عثمان تارة ينكر عليه ما أنكره المسلمون وتارة يدفع عنه وينهى عن قتله القاصدين إلى ذلك من أهل الأمصار وتارة ينكر على من منعه الماء ويغلظ لذلك ويغضب من خلافه فيه وتارة يجلس في بيته وهو يرى الناس يهرعون إليه لقتله والاجتهاد في طلب دمه فلا يكون منه وعظ في ذلك ولا تخويف بالله عز وجل في ذلك وهو في ظاهر الحال مطاع معظم مسموع المقال مستجاب الأمر متبع الرأي هذا مع هجره عثمان أحيانا وصلحه أحيانا ومنازعته له حينا ومسالمته له حينا وتغليظ القول عليه أحيانا وتسهيله عليه أحيانا وسعيه في الصلح بينه وبين الناس زمانا وترك ذلك إلى الكف عنه زمانا هذا مع أن المحفوظ من قوله فيه بعد قتله مما تختلف ظواهره وتشتبه معانيه.

كقوله (عليه السلام) وقتا : والله ما قتلت عثمان ولا مالأت على قتله.

[202]

و قوله (عليه السلام) حينا : الله قتل عثمان وأنا معه.

و قوله (عليه السلام) وقتا آخر : لو لم يدخل الجنة إلا قاتل عثمان لما دخلتها ولو لم يدخل النار إلا قاتل عثمان لما دخلتها.

و قوله (عليه السلام) وقتا آخر : والله ما غاضني قتل عثمان ولا سرني ولا أحببت ذلك ولا كرهته.

و قوله (عليه السلام) : أكبت الله قتلة عثمان.

و قوله (عليه السلام) عند مطالبة القوم له بقتلة عثمان : من قتل عثمان فليقم فقام إليه أربعة آلاف من الناس المتحيزين إليه.

فقال : أ هؤلاء يقتلون بعثمان ; مع كون قتلة عثمان خاصة أنصاره وأعوانه وأصحابه وإظهاره الولاية لهم والتعظيم والمودة والإكرام مع ثقته بهم وائتمانه لهم.

و قوله (عليه السلام) مع ذلك : اللهم اقتل قتلة عثمان في بر الأرض وبحرها.

[203]

في أمثال ما ذكرناه ولكن الأفعال والأقوال التي ذكرناها منه متلائمة غير مختلفة في معناها إذا خص بعضها ببعض وحمل بعضها على بعض في الرأي الذي تقتضيه الأحوال ويوجبه النظر في العلم بالعواقب وتمام المصالح.

[204]

فصل ; رأي الجاحظ في أمير المؤمنين (عليه السلام) :

قد زعم الجاحظ أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان ممنوا بعد قتل عثمان بمحن عظيمة وذلك أن جميع من نصب له الحرب وجعل الحجة عليه فيه دعواه عليه قتل عثمان.

قال : وظاهر الحال كانت توهم ذلك عليه لأنه كان مباينا له في أحوال وأوقات وهاجرا له في أزمان وأيام وكان المنكرون على عثمان من أهل مصر والعراق يلجئون إليه في السفارة بينهم وبين عثمان وكان فيهم مسموع القول مطاعا معظما مأمونا ; ثم قعد عن نصرته وتقلد الأمر من بعده واستنصر على محاربيه بقتلته فلم يشك القوم في أنه قاتله.

قال : وواحدة من هذه الخصال تريب فكيف بجميعها.

ثم قال : وقد علم الناس أنه قد يكون في هذا المصر الذي يتولاه أميرا ووزيرا وعاملا من يؤهل لمثل عمله ويصلح لمثل رتبته ويمد عنقه إلى مثل ولايته ولا يتفق له مراده

[205]

من ذلك ويقصده الناظر بما يمنعه من صرفه والتدبير في عزله فيلزم بيته ويقصر مراعاته خوفا من سعيه في عزله وتولي مقامه فيموت حتف أنفه فلا يشك الناس أنه دس إليه من قتله أو ما قتله به ولو قتل ذلك الإنسان ذو عز تعرض لضره أو لطلب ماله لقطعوا أن أمير البلدة واطأه على ذلك ودبر الأمر فيه عليه وقد يحبس السلطان بعض الرعية لشيء يجده في نفسه عليه فيموت في الحبس حتف أنفه فيحلف خلق من الناس بالله أنه تقدم بخنقه ولا يشك الجمهور أنه واطأ على دمه ولو أقسم السلطان بالله أقساما أكدها على البراءة من دمه لجعلوا ذلك شبهة فيما ادعوه عليه من قتله.

ثم قال هذا الرجل أعني الجاحظ : إن أقوال أمير المؤمنين في عثمان إنما اختلفت وتناقضت بزعمه لأنه كان محتاجا إلى التبرئ من دمه لكف أهل البصرة والشام عنه بذلك وكان محتاجا إلى إضافة دم عثمان إليه لاستصلاح رعيته وارتباطهم به لنصرته.

[206]

و ليس الأمر كما ادعاه الجاحظ ولا القصة فيه كما توهمها وإنما حمل الجاحظ حال أمير المؤمنين (عليه السلام) في ما زعمه على أحوال أهل الدنيا ومن لا دين له ولا يقين ولا تقوى ومن يصنع ما يصنع ويقول ما يقول لعمارة الدنيا ولا يبالي بعاقبة ذلك في الآخرة ; بل كانت أفعال أمير المؤمنين (عليه السلام) وأقواله التي أثبتناها فيما تقدم على الأغراض التي أنبأنا عنها

وأوضحنا عن اتفاقها ووفاقها للدين والنظر في مصالح المسلمين ومن تأمل ما ذكرناه وفكر فيه بقلب سليم وجده على ما وصفناه.

[207]

فصل ; رأي العثمانية في قتلة عثمان :

و قد زعمت العثمانية أن الذي يدل على مشاركة علي (عليه السلام) قتله عثمان في دمه أشياء قد ثبتت في الأخبار وتظاهرت بها الآثار.

منها : أنه تولى الصلاة بالناس يوم النحر وعثمان محصور ولم يستأذنه في ذلك وتغلب عليه فيه.

و هذا مما جعله الشافعي حجة في جواز صحة صلاة المتغلب بالناس يوم الجمعة والعيدين ورد به على أهل العراق في إنكارهم ذلك وقولهم لا تصح الصلاة في الجمعة والعيدين خلف المتغلب فحكى الربيع والمزني جميعا عن الشافعي أنه قال في هذه المسألة لا بأس بصلاة الجمعة والعيدين خلف الآمر والمأمور فقد صلى علي (عليه السلام) بالناس وعثمان محصور.

و قد روى أبو حذيفة القرشي عن محمد بن إسحاق وغيره : أن قوما صاروا إلى عثمان وهو محصور فقالوا أ ما ترى إلى هؤلاء الذين يصلون بالقوم في يوم الجمعة وأنت على هذه الحالة لم تأمرهم بذلك وقد كان طلحة بن عبيد الله صلى بهم يوم الجمعة في حصاره فحكوا عن عثمان أنه قال إذا أحسنوا فاتبعوهم وإن أساءوا

[208]

فاجتنبوهم الصلاة حسنة فصلوا إذا صلوا.

فزعمت العثمانية أن عليا كان متهما بدم عثمان لصلاته بالناس يوم النحر من غير إذنه وادعى الشافعي أنه كان متغلبا بذلك ولم يتعلق أحد لقرف طلحة بدم عثمان لصلاته بالناس يوم الجمعة وعثمان محصور ولا نسبوه إلى التغلب بذلك وبرءوه من دمه وهو الذي تولى حصره حتى قتله وكانت شبهتهم في براءة طلحة خلافه لأمير المؤمنين (عليه السلام) والتمويه في حربه بالتظاهر لطلب دم عثمان وعقول هؤلاء القوم عقول ضعيفة وأحلامهم أحلام سخيفة فلذلك ينقادون من الشبهة إلى ما ذكرناه.

و مما تعلق القوم به أيضا في قرف أمير المؤمنين (عليه السلام) بدم عثمان بعد الذي ذكرناه وعددناه مقامه بالمدينة منذ حصر وقول أسامة بن زيد مشيرا عليه بالخروج عنها على ما رواه أبو حذيفة القرشي عن رجاله قال : قال أسامة بن زيد لعلي لأنت والله يا أبا الحسن أعز علي من سمعي وبصري فأطعني واخرج إلى أرضك ينبع فإن قتل عثمان وأنت شاهد طالبك أناس من الناس بدمه وإن قتل وأنت لم تشهد لم تعدل بك الناس أحدا.

فقال ابن عباس لأسامة : يا أبا محمد أ تطلب أثرا بعد عين ; أ بعد ثلاثة من قريش.

و روى يوسف بن دينار عن عبد الملك بن عمير اللخمي عن ابن أبي ليلى قال : سألني عبد الملك بن مروان حين قدم

الكوفة عن قتل عثمان فأخبرته فقال أين كان

[209]

علي يومئذ فقلت بالمقاعد يأمر فيطاع وينهى فيطاع ولقد رأيته عند أحجار الزيت محتبيا بسيفه والمنادي ينادي آمن الله الناس كلهم إلا الشقي نعثلا فقال عبد الملك هل سمعت عليا يقول شيئا فقلت لا.

و روى النخعي عن علقمة بن قيس قال : أرسلت أم حبيبة بنت أبي سفيان إلى علي وهو قاعد في المسجد أن أمن لي خاصتي ومن في الدار من أهلي فقال الناس كلهم آمنون إلا الشقي ابن أبي العاص.

و روى أيضا خالد الحذاء عن رجل من بني شيبان قال : رأيت عليا يوم قتل عثمان يخطب الناس على المنبر وعليه السلاح.

فجعلت العثمانية هذه الأشياء شبهة لهم فيما قرفت به أمير المؤمنين (عليه السلام) من دم عثمان واحتجت أيضا في ذلك بما صنعه أمير المؤمنين (عليه السلام) عند قتل عثمان من أخذ نجائبه وأدراعه وأوردوا في ذلك قول الوليد بن عقبة يخاطب بني هاشم ويعاتبهم عند قتل عثمان إذ يقول :

بني هاشم ردوا سلاح ابن أختكم *** ولا تنهبوه لا تحل مناهبه

بني هاشم كيف الهوادة بيننا *** وعند علي درعه ونجائبه

بني هاشم كيف التودد بيننا *** وبز بن أروى فيكم وحرائبه

[210]

بني هاشم أنى وما كان منكم *** كصدع الصفا لا يشعب الصدع شاعبه

هم قتلوه كي يكونوا مكانه *** كما غدرت يوما بكسرى مرازبه

فإن لم تكونوا قاتليه فإنه *** سواء عليه مسلموه وضاربه

و احتجوا أيضا بقول حسان بن ثابت الأنصاري في قتل عثمان :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به *** يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني *** ما كان بين علي وابن عفانا

[211]

لتسمعن وشيكا في ديارهم *** الله أكبر يا ثارات عثمانا

و قوله أيضا :

من عذيري من الزبير ومن *** طلحة هاجا أمرا له إعصار

ثم قالا للناس دونكم العلج *** فشبت وسط المدينة نار

و اصطلاها محمد بن أبي *** بكر جهارا وخلفه عمار

و علي في بيته يسأل الناس *** رويدا وعنده الأخبار

باسط الكفين يريد ذراعيه *** عليه سكينة ووقار

خذلته الأنصار إذ حضر الموت *** وكانت ثقاته الأنصار

و كذاك اليهود ضلت عن الدين *** بما زينت لها الأحبار

و أمثال ما ذكرناه والجواب عن جميعه سهل قريب والمنة لله تعالى.

[212]

فصل ; في الدفاع عن أمير المؤمنين (عليه السلام) :

فأما الجواب عما تعلقوا به من قرف أمير المؤمنين (عليه السلام) بدم عثمان من حيث تولي الصلاة بالناس يوم النحر وعثمان محصور فهو مبني على مذهبين :

أحدهما : مذهب الشيعة القائلين بالنص على أمير المؤمنين (عليه السلام) القاطعين على إمامته بلا فصل وهو أنه إذا كان الإمام مفترض الطاعة فله أن يتولى كل ما يمكن من توليته مما تقتضيه إمامته والإمامة تقتضي إمامة المسلمين في الصلاة والتقدم عليهم في الجهاد وإقامة الحدود والأحكام وليس متى تولى الإمام شيئا مما له توليته عند الإمكان دل ذلك على أنه ساع في دم إنسان ولا أنه مريد لقتله على حال.

و الجواب على المذهب الآخر : وهو القول بالاختيار أن الإمام إذا غير وبدل وأحدث ما ينفسخ به عقده فلأفاضل الناس أن يتولوا أمر الصلاة والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إلا أن يعقد لإمام من بعده على مذهب القوم الذين رأوا إقامة الإمام

[213]

بالاختيار ففي خلع عثمان بأحداثه قد زال فرض طاعته بذلك وكان لأفاضل الناس أن يقدموا في الصلاة من يرون إلى أن يتم الأمر في العقد لمن يستحق ذلك ولو كان هناك من يعتقد أن إمامة عثمان لم تزل بأحداثه إلا أنه ممنوع من الصلاة بالناس لكان للأفاضل أن يتولوا الصلاة نيابة عنه في تلك الحال فعلى كلا المذهبين اللذين ذكرناهما لا يجب بصلاة أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم النحر بالناس وعثمان محصور أن يقضى عليه بأنه كان مريدا لقتله فضلا أن يكون مشاركا فيه.

و قد روى الخصم عن عثمان : أنه لما أذن بصلاة طلحة في الناس واستؤذن بالصلاة معه قال لهم إذا أحسنوا فاتبعوهم وإذا أساءوا فاجتنبوهم فحكم لصلاتهم بالحسن وإن كان محصورا لم يأذن فيها لهم ولم يولهم ذلك إلا أنه أباحه ووصف المصلين

بأنهم في ذلك محسنون فأين تعلق المخالف على أمير المؤمنين (عليه السلام) في قتل عثمان بصلاته بالناس وهو محصور لو لا أنه تعنت بذلك وعدل عن طريق الإنصاف.

[214]

الجواب عن قعود أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و أما تعلقهم بقعود أمير المؤمنين (عليه السلام) في المدينة حتى قتل عثمان وتركه الخروج منها ومباعدة القوم فيما صنعوه وما أشار إليه أسامة من الخروج وتحذيره في قعوده بمطالبة القوم له بدم عثمان فليس أيضا مما تثبت به الحجة على ما ادعوه من قبل أنه لا يمتنع أن يكون مقامه بالمدينة في تلك الحال لتدبير الدفاع عنه ولو كان خرج عنها لتعجل من قتل القوم له ما تأخر ولم يكن أيضا يؤمن من أن يتعدى القتل إلى غيره وتحدث فتنة لا يتلافى صلاحها فجلس (عليه السلام) لذلك ولم يجلس لمعونة على قتل عثمان بل لو خرج من المدينة في حال حصر القوم للرجل لكانت التهمة إليه في قتله أسرع مع ما ذكرناه من المحذور.

الجواب عن تعلق الخصم بكلام ابن عباس :

و أما تعلقهم بجواب ابن عباس لأسامة وقوله أ بعد ثلاثة من قريش تطلب أثرا بعد عين فليس أيضا فيه دليل على إيثار ابن عباس لأمير المؤمنين (عليه السلام) قتل الرجل ولا فيه حجة على أنهما شركا في ذلك من تولاه وإنما يدل على إيثار ابن عباس أن يكون الأمر فيهم بعد عثمان ولسنا ننكر أن يكون أمير المؤمنين (عليه السلام) كان مؤثرا للتمكين من

[215]

الأمر بعد عثمان ليقيم بذلك حدود الله وينفذ به أحكامه وينظر في مصالح المسلمين ومن آثر ذلك من أهله فهو محمود وهذا يستمر على مذهب الشيعة الإمامية والزيدية والجارودية القائلين بالنص عليه وعلى مذهب أصحاب الاختيار معا.

فأما أصحاب النص فيقولون إنه كان الإمام المفترض الطاعة على الأنام وكان يجب عليه بذلك أن يجتهد بالتوصل إلى ما للأئمة إقامته وتولي ما لهم توليته وأن لا يفرط في ذلك ولا يهمله وإذا كان مقامه لما ذكرناه كان محمودا ولم يجز صرف الغرض فيه إلى ما ادعاه الخصوم من خلافه مع أنه لم ينكر أن يكون مقامه بالمدينة لدفاع ما كان يحذر من إقامة من لا يستحق الأمر بعد قتل عثمان فأقام لدفاعهم عن ذلك لوجوده بينهم وعلمه برأي الناس في تقديمه على غيره ولو كان نائيا عن المدينة لغلب على الأمر من يعسر على الأمة صرفه عنه ممن لا يؤمن على الدين وهذا مستمر على أصول أصحاب الاختيار كما استمر على أصول أصحاب النص وليس فيه دليل على ما تعلق به القوم من قرفه بقتل عثمان حسبما بيناه وشرحناه.

[216]

الجواب عن قبض النجائب والأدراع :

و أما قبض أمير المؤمنين (عليه السلام) عند قتل عثمان النجائب والأدراع التي قبضها مما كان منسوبا إلى عثمان والتعلق بشعر الوليد بن عقبة على ما أثبتناه عنه فيما سلف وسطرناه فليس أيضا بحجة لقارف أمير المؤمنين (عليه السلام) بقتل عثمان وذلك أنه لو لم يقبض ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) لتسرع إلى قبضه ونهبه وتملكه من ليس له ذلك بحق من الرعية واحتاط بقبضه وإحرازه لأربابه وقد كان هو الإمام باتفاق الجمهور بعد عثمان وللإمام أن يحتاط لأموال المسلمين وتركات من قضى منهم ليصل إلى مستحقيه دون غيرهم وليس إذا التمس الوليد بن عقبة ما لا يستحق فمنع منه كان ذلك لغلول المانع له بما التمسه ولا لتغلبه عليه ولا قول الوليد أيضا مسموع ولا شهادته مقبولة مع نزول القرآن بتفسيقه قال الله تعالى اسمه يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جاءَكُمْ فاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصِيبُوا قَوْماً بِجَهالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلى ما فَعَلْتُمْ نادِمِينَ وقد روى أهل التفسير أن هذه الآية نزلت في الوليد بن عقبة حين أنفذه النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى قوم يقبض منهم الصدقات فعاد مدعيا عليهم أنهم منعوه من ذلك وخرجوا لحربه فأعد رسول الله جماعة لحربهم فورد واردهم بتكذيب الوليد وأنهم على الإسلام والطاعة فأنزل الله سبحانه فيه ما أثبتناه.

[217]

و جاء في الحديث المشهور أن الوليد قال لأمير المؤمنين (عليه السلام) في محاورة جرت بينه وبينه أنا أبسط منك لسانا وأحد سنانا.

فقال له (عليه السلام) : اسكت يا فاسق ; فأنزل الله تعالى في هذه القصة أَ فَمَنْ كانَ مُؤْمِناً كَمَنْ كانَ فاسِقاً لا يَسْتَوُونَ.

و بعد ; فلو كانت الأدراع والنجائب التي قبضها أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد قتل عثمان ملكا له ; لكان أولاد عثمان وأزواجه أحق بها من الوليد وكان ارتباط أمير المؤمنين (عليه السلام) ليوصلها إلى ورثته أولى من تسليمها إلى الوليد وأمثاله من بني أمية الذين ليس لهم من تركة عثمان نصيب على حال ; فكيف وقد ذكر الناس في هذه الأدراع والنجائب أنها من الفيء الذي يستحقه المسلمون , فغلب عليها عثمان واصطفاها لنفسه.

فلما بايع الناس أمير المؤمنين (عليه السلام) انتزعها من موضعها ليجعلها في مستحقيها فما في ذلك من تهمة بقتله لو لا العمى والخذلان.

الجواب عن شعر حسان :

و أما شعر حسان بن ثابت وما تضمنه من التحريض على أمير المؤمنين (عليه السلام)

[218]

حيث يقول :

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني *** ما كان بين علي وابن عفانا

لتسمعن وشيكا في ديارهم *** الله أكبر يا ثارات عثمانا

فهو لعمري قرف بدم عثمان فلم يكن حجة فتصغى إلى قوله ولا كان عدلا فتقبل شهادته وقد نص القرآن على رد شهادته فقال الله عز وجل والَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَناتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَداءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمانِينَ جَلْدَةً ولا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهادَةً أَبَداً وأُولئِكَ هُمُ الْفاسِقُونَ.

و لا خلاف أن حسان كان ممن قذف عائشة وجلده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) على قذفه وإذا كان القرآن حاظرا على المسلمين قبول شهادة الفاسقين فوجب رد شهادة حسان وأن لا تقبل منه على حال مع أنه لا خلاف بين أهل العراق ممن تفقه أن القاذف مردود الشهادة وإن تاب فعلى قول هذه الفرقة شهادة حسان مردودة على كل حال.

و أما من ذهب إلى أن القاذف تقبل شهادته عند التوبة فبينهم في ذلك اختلاف فمنهم من يقول إنه يشترط في توبته أن يقف في الموضع الذي قذف فيه فيكذب نفسه ويظهر التوبة من جرمه ولم يدع أحد أن حسان كذب نفسه ظاهرا ورجع عن قذفه مختارا فلا توبة له على قول هذا الفريق.

[219]

و أما الفريق الآخر فإنهم قبلوا شهادة القاذف بعد توبته ولم يشترطوا في توبته ما ذكرناه فليس معهم دليل على أنه تاب والظاهر منه القذف الذي يستحق به التفسيق ورد الشهادة في دين الإسلام فلا تعلق في قول حسان في قرفه أمير المؤمنين (عليه السلام) بدم عثمان على حال على أن حسان مذموم مردود القول باتفاق أهل الإسلام وعلى كل مذهب لأهل القبلة ورأي وذلك أنه قال في يوم الغدير بمحضر من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) في أمير المؤمنين (عليه السلام) ما قال وشهد له بالإمامة والنص فيها عليه من الله تعالى فردته المعتزلة بذلك وأنكرته الحشوية ودفعته الخوارج وأكذبه جميع من سميناه ولم ينج فيه إلا على مذهب الشيعة الإمامية والجارودية دون من سواهما من فرق الأمة على ما ذكرناه.

[220]

شعر حسان في يوم الغدير :

و قوله الذي قدمنا ذكره وأشرنا إليه على الإجمال هو ما نثبته الآن من قوله :

يناديهم يوم الغدير نبيهم *** بخم وأسمع بالنبي مناديا

و قال فمن مولاكم ووليكم *** فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا

إلهك مولانا وأنت ولينا *** ولم تجدن منا لك اليوم عاصيا

فقال له قم يا علي فإنني *** رضيتك من بعدي إماما وهاديا

فمن كنت مولاه فهذا وليه *** فكونوا له أنصار صدق مواليا

هناك دعا اللهم وال وليه *** وكن للذي عادى عليا معاديا

و هذا القول مقبول عند الشيعة لأنه قاله بمحضر من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومشهده فلم ينكره عليه فصارت الحجة في صوابه شهادة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بحقه , والناصبة بأجمعها ترده عليه وتكذبه فيه.

ثم تقبل قوله في القذوف الباطلة وحال الفتنة الظاهرة فلا شاهد لهم على ما ادعاه.

ثم هو في وصفه لعثمان بأنه ظلم فيما صنع به وأنه كان بريئا عند الله تعالى ومن أهل التقى والإيمان ; مردود الشهادة عند جميع حاصري عثمان وقاتليه من المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وعند كافة

[221]

الشيعة والخوارج والطوائف البترية والمعتزلة حين قال :

ضحوا بأشمط عنوان السجود به *** يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

إذ كان حسان مكذبا في قوله على مذاهب من ذكرناه من أهل القبلة ومردود الشهادة بما سلف له من قذف المحصنات لم يعتمد في الحجة بقوله المفترى به إلا من شمله الخذلان.

ثم هو في قول له آخر مكذب عند الشيعة بأجمعها وجمهور المعتزلة والمرجئة والحشوية القائلين بأن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان أفضل الناس بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وعند الجبائي وابنه ورهطهما ومن شركهما في الوقف وترك القطع في التفضيل لأحد من الخلفاء الأربعة على غيرها وذلك في مرثيته لأبي بكر التي فيها يقول :

إذا تذكرت شجوا من أخي ثقة *** فاذكر أخاك أبا بكر بما فعلا

خير البرية أتقاها وأعدلها *** بعد النبي وأوفاها بما حملا

الثاني التالي المحمود مشهده *** وأول الناس منهم صدق الرسلا

[222]

و هذا يكشف لك عن سقوط من تعلق في شيء من الدين بقول حسان من إبطال من جعل قوله حجة على حال ويبين أنه كان في ما يقول نظما ونثرا على مذهب الشعراء الذين لا يتقون السيئات ولا يتورعون عن الخطيئات ولا يبالون بارتكاب الزلات ويقدمون على الأباطيل في القول وارتكاب الموبقات ممن وصفه الله تعالى في كتابه فقال والشُّعَراءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغاوُونَ أَ لَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وادٍ يَهِيمُونَ وأَنَّهُمْ يَقُولُونَ ما لا يَفْعَلُونَ.

و قد كان حسان ممن يشكر نعمة عثمان عليه وإحسانه إليه ولم يكن ممن يرجع إلى تقوى فيحجزه من الباطل فيما ادعاه

وإن أمرا يعتمد على قول حسان وأمثاله في القدح على أمير المؤمنين (عليه السلام) ويصوب استنفار الناس عليه وإغراءهم به لخفيف الميزان عند الله تعالى بين الخسران وبالله المستعان.

[225]

حرب الجمل

باب الخبر عن ابتداء أصحاب فتنة البصرة في تدبيرها :

و الاجتماع منهم في العمل عليها وما جاءت به الأخبار المتظافرة في ذلك.

قد أسلفنا القول في أسباب هذه الفتنة والدواعي إليها والأغراض التي كانت فيها وذكرنا من براهين الحق على ما أصلناه من المذهب الصحيح في ذلك وإبطال شبهات الضالين فيه ونحن نبدأ بشرح القصة في ابتداء الأمر من أصحاب الفتنة وما عملوا عليه فيها وتجدد من رأيهم في تدبيرها بحسب ما جاءت به الأخبار المستفيضة بين العلماء بالسير والحوادث المشهورة إن شاء الله تعالى.

[226]

فصل ; في اجتماع الناكثين والمنافقين بمكة :

لما تم أمر البيعة لأمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) واتفق على طاعته كافة بني هاشم ووجوه المهاجرين والأنصار والتابعين بإحسان وأيس طلحة والزبير مما كانا يرجوانه بقتل عثمان من بيعة الناس لأحدهما بالإمامة وتحققت عائشة بنت أبي بكر تمام الأمر لأمير المؤمنين (عليه السلام) واجتماع الناس عليه وعدولهم عن طلحة والزبير وعلمت أنه لا مقام لهما بالمدينة بعد خيبتهما مما أملاه من الأمر وعرف عمال عثمان أن أمير المؤمنين (عليه السلام) لا يقرهم على ولاياتهم وأنهم إن ثبتوا في أماكنهم أو صاروا إليه طالبهم بالخروج مما في أيديهم من أموال الله تعالى وحذروا من عقابه على خوضهم في خيانة المسلمين وتكبرهم على المؤمنين واستخفافهم بحقوق المتقين واجتبائهم الفجرة الفاسقين عمل من كل فريق منهم على التحرز منه واحتال في الكيد له واجتهد في تفريق الناس عنه فسار القوم من كل مكان إلى مكة استعاذة بها وسكنوا إليها لمكان عائشة بها وطمعوا في تمام كيدهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) للتحيز إليها والتمويه على الناس بها وكانت عائشة تعلم أن كثيرا من

[227]

الناس يميل لها لمكانها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنها من أمهات المسلمين وابنة أبي بكر المعظم عند الجمهور وأن كل عدو لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) يلتجئ إليها متى أظهرت المباينة له ودعت إلى حربه وفساد أمره.

فلما تواترت الأخبار عليها وهي بمكة في تحيزها عن عثمان لقتل المسلمين له قبل أن تعرف ما كان من أمر المسلمين بعده عمل على التوجه إلى المدينة راجيه بتمام الأمر بعد عثمان لطلحة أو الزبير زوج أختها فلما صارت ببعض الطريق لقيت

الناعي بعثمان فاستبشرت بنعيه له وما كان من أمر الناس في اجتماعهم على قتله ثم استخبرت عن الحال بعده فأخبرت أن البيعة تمت لأمير المؤمنين بعده وأن المهاجرين والأنصار والتابعين لهم بإحسان وكافة أهل الإيمان اجتمعوا على تقديمه والرضا به فساءها ذلك وأحزنها وأظهرت الندم على ما كان منها في التأليب على عثمان والكراهة لتمام الأمر لعلي بن أبي طالب (عليه السلام) فأسرعت راجعة إلى مكة فابتدأت بالحجر فتسترت فيه ونادى مناديها باجتماع الناس إليها فلما اجتمعوا تكلمت من وراء الستر تدعوا إلى نصرة عثمان وتنعاه إلى الناس وتبكيه وتشهد أنه قتل مظلوما.

و جاءها عبد الله بن عامر الحضرمي عامل عثمان على مكة فقال قرت عينك قتل عثمان وبلغت ما أردت من أمره.

فقالت سبحان الله أنا طلبت قتله إنما كنت عاتبة عليه من شيء أرضاني فيه قتل عثمان والله من عثمان خير منه وأرضى عند الله وعند المسلمين والله ما زال قاتله تعني أمير المؤمنين (عليه السلام) مؤخرا منذ بعث محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعد أن توفي يعدل الناس عنه

[228]

إلى الخيرة من أصحاب النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ولا يرونه أهلا للأمور ولكنه رجل يحب الإمرة والله لا نجتمع عليه ولا على أحد من ولده إلى يوم القيامة ; ثم قالت :

معاشر المسلمين إن عثمان قتل مظلوما ولقد قتله من إصبع عثمان خير منه وجعلت تحرض الناس على خلاف أمير المؤمنين (عليه السلام) وتحثهم على نقض عهده.

و لحق إلى مكة جماعة من منافقي قريش وصار إليها عمال عثمان الذين هربوا من أمير المؤمنين (عليه السلام) ولحق بها عبد الله بن عمر بن الخطاب وعبيد الله أخوه ومروان بن الحكم بن أبي العاص وأولاد عثمان وعبيده وخاصته من بني أمية وانحازوا إليها وجعلوها الملجأ لهم في ما دبروه من كيد أمير المؤمنين (عليه السلام) وجعل يأتيها كل من تحيز عن أمير المؤمنين (عليه السلام) حسدا له ومقتا وشنآنا له أو خوفا من استيفاء الحقوق عليه أو لإثارة فتنة أو إدغال في الملة وهي على ملتها وسنتها تنعى إليهم عثمان وتبرأ من قاتله وتشهد له بالعدل والإحسان وتخبر أنه قتل مظلوما وتحث الناس على فراق أمير المؤمنين (عليه السلام) والاجتماع على خلعه.

[229]

دعوة طلحة والزبير عائشة إلى إثارة الفتنة :

و لما عرف طلحة والزبير من حالها وحال القوم عملا على اللحاق بها والتعاضد على شقاق أمير المؤمنين (عليه السلام) فاستأذناه في العمرة على ما قدمناه وذكرنا الخبر في معناه وشرحناه وسارا إلى مكة خالعين الطاعة ومفارقين الجماعة.

فلما وردا إليها فيمن تبعهما من أولادهما وخاصتهما وخالصتهما طافا بالبيت طواف العمرة وسعيا بين الصفا والمروة وبعثا إلى عائشة عبد الله بن الزبير , وقالا له :

امض إلى خالتك فأهد إليها السلام منا وقل لها إن طلحة والزبير يقرءانك السلام ويقولان لك إن أمير المؤمنين عثمان قتل مظلوما وإن علي بن أبي طالب ابتز الناس أمرهم وغلبهم عليه بالسفهاء الذين تولوا قتل عثمان ونحن نخاف انتشار الأمر به فإن رأيت أن تسيري معنا لعل الله يرتق بك فتق هذه الأمة ويشعب بك صدعهم ويلم بك شعثهم ويصلح بك أمورهم.

فأتاها عبد الله فبلغها ما أرسلاه به , فأظهرت الامتناع من إجابتهما إلى الخروج عن مكة وقالت : يا بني لم آمر بالخروج لكني رجعت إلى مكة لأعلم الناس ما فعل بعثمان إمامهم وأنه أعطاهم التوبة فقتلوه تقيا نقيا بريئا ويرون في ذلك رأيهم ويشيرون إلى من ابتزهم أمرهم وغصبهم من غير مشورة من المسلمين ولا مؤامرة بتكبر وتجبر ويظن أن الناس يرون له حقا كما كانوا يرونه لغيره ; هيهات

[230]

هيهات , يظن ابن أبي طالب يكون في هذا الأمر كابن أبي قحافة ؟ لا والله , ومن في الناس مثل ابن أبي قحافة ؟ تخضع إليه الرقاب ويلقى إليه المقاد وليها والله ابن أبي قحافة فخرج منها كما دخل ثم وليها أخو بني عدي فسلك طريقه ثم مضيا فوليها ابن عفان فركبها رجل له سابقة ومصاهرة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفعال مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) مذكورة لا يعمل أحد من الصحابة مثل ما عمله في ذات الله وكان محبا لقومه فمال بعض الميل فاستتبناه فتاب ثم قتل فيحق للمسلمين أن يطلبوا بدمه.

فقال لها عبد الله : فإذا كان هذا قولك في علي يا أمه ورأيك في قاتلي عثمان فما الذي يقعدك عن المساعدة على جهاد علي بن أبي طالب ؟ وقد حضرك من المسلمين من فيه غنى وكفاية فيما تريدين ؟

فقالت : يا بني أفكر فيما قلت , وتعود إلي.

فرجع عبد الله إلى طلحة والزبير بالخبر ; فقالا له : قد أجابت أمنا والحمد لله إلى ما نريد ; ثم قالا له : باكرها في الغد فذكرها أمر المسلمين وأعلمها إنا قاصدان إليها لنجدد بها عهدا ونحكم معها عقدا.

فباكرها عبد الله وأعاد عليها بعض ما أسلفه من القول إليها.

فأجابت إلى الخروج , ونادى مناديها : إن أم المؤمنين تريد أن تخرج تطلب بدم عثمان فمن كان يريد أن يخرج فليتهيأ للخروج معها.

و صار إليها طلحة , فلما بصرت به قالت له : يا أبا محمد قتلت عثمان وبايعت عليا ؟

فقال لها : يا أمه ما مثلي إلا كما قال الأول :

ندمت ندامة الكسعي لما *** رأت عيناه ما صنعت يداه

[231]

و جاءها الزبير فسلم عليها , فقالت له : يا أبا عبد الله شركت في دم عثمان ثم بايعت عليا وأنت والله أحق منه بالأمر.

فقال لها الزبير : أما ما صنعت مع عثمان فقد ندمت منه وهربت إلى ربي من ذنبي في ذلك ولن أترك الطلب بدم عثمان , والله ما بايعت عليا إلا مكرها , التفت به السفهاء من أهل مصر والعراق وسلوا سيوفهم وأخافوا الناس حتى بايعوه.

و صار إلى مكة عبد الله بن أبي ربيعة وكان عامل عثمان على صنعاء فدخلها وقد انكسر فخذه وكان سبب ذلك ما رواه الواقدي عن رجاله أنه لما اتصل بابن أبي ربيعة حصر الناس لعثمان أقبل سريعا لنصرته فلقيه صفوان بن أمية وهو على فرس يجري وعبد الله بن أبي ربيعة على بغلة فدنا منها الفرس فحادت فطرحت ابن أبي ربيعة وكسرت فخذه وعرف أن الناس قد قتلوا عثمان فصار إلى مكة بعد الظهر فوجد عائشة يومئذ بها تدعو إلى الخروج للطلب بدم عثمان فأمر بسرير فوضع له سرير في المسجد ثم حمل ووضع عليه وقال للناس من خرج للطلب بدم عثمان فعلي جهازه فجهز ناسا كثيرا فحملهم ولم يستطع الخروج معهم لما كان برجله.

[232]

تحريض المعارضين الناس على الخروج :

و روى عبد الله بن السائب قال : رأيت عبد الله بن أبي ربيعة على سرير في المسجد يحرض الناس على الخروج في طلب دم عثمان ويحمل من جاءه وكان يعلى بن منية التميمي حليف بني نوفل عاملا لعثمان على الجند فوافى الحج ذلك العام فلما بلغه قول ابن أبي ربيعة خرج من داره وقال أيها الناس من خرج بطلب دم عثمان فعلي جهازه وكان قد صحب ابن أبي ربيعة مال كثير فأنفقه في جهاز الناس إلى البصرة.

و روى الواقدي قال حدثني سالم بن عبد الله عن أبيه عن جده قال : سمعت يعلى بن منية يقول وهو مشتمل بصنعانية هذه عشرة آلاف دينار وهي عين مالي أقوي بها من طلب بدم عثمان فجعل يعطي الناس واشترى أربعمائة بعير فأناخها بالبطحاء وحمل عليها الرجال.

و لما اتصل بأمير المؤمنين (عليه السلام) خبر ابن أبي ربيعة وابن منية وما بذلاه من

[233]

المال في شقاقه والفساد عليه قال والله إن ظفرت بابن منية وابن أبي ربيعة لأجعلن أموالهما في مال الله عز وجل ثم قال بلغني أن ابن منية بذل عشرة آلاف دينار في حربي من أين له عشرة آلاف دينار سرقها من اليمن ثم جاء بها لئن وجدته لآخذنه

بما أقر به.

فلما كان يوم الجمل وانكشف الناس هرب يعلى بن منية.

و لما رأت عائشة اجتماع من اجتمع إليها بمكة على مخالفة أمير المؤمنين (عليه السلام) والمباينة له والطاعة لها في حربه تأهبت للخروج وكانت في كل يوم تقيم مناديها ينادي بالتأهب للمسير وكان المنادي ينادي ويقول : من كان يريد المسير فليسر فإن أم المؤمنين سائرة إلى البصرة تطلب بدم عثمان بن عفان المظلوم.

و روى الواقدي عن أفلح بن سعيد عن يزيد بن زياد عن عبد الله بن أبي رافع عن أم سلمة زوجة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قالت : كنت مقيمة بمكة تلك السنة حتى دخل المحرم فلم أدر إلا برسول طلحة والزبير قد جاءني عنهما يقول إن طلحة والزبير ابنيك يقولان إن أم المؤمنين عائشة تريد أن تخرج للطلب بدم عثمان فلو خرجت معنا رجونا أن يصلح الله بكما فتق هذه الأمة فأرسلت إليهما والله ما بهذا أمرت ولا عائشة لقد أمرنا الله أن نقر في بيوتنا فكيف نخرج للقتال والحرب مع أن أولياء عثمان غيرنا والله ما يجوز لنا عفو ولا صلح ولا قصاص وما ذاك إلا إلى ولد عثمان وأخرى نقاتل علي بن أبي طالب (عليه السلام) ذا البلاء والعناء أولى الناس

[234]

بهذا الأمر والله ما أنصفتما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في نسائه حيث تخرجوهن إلى العراق وتتركون نساءكم في بيوتكم ثم أرسلت إلى عائشة فنهتها أشد النهي عن طلحة والزبير في الخروج لقتال علي بن أبي طالب (عليه السلام) وذكرتها أمورا تعرفها وقالت لها : أنشدك الله هل تعلمين أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قال لك :

اتقي الله واحذري أن تنبحك كلاب الحوأب.

فقالت : نعم ; وردعتها بعض الردع , ثم رجعت إلى رأيها في المسير.

[235]

فصل ; في مؤامرة الناكثين :

فلما تحقق عزم القوم على المسير إلى البصرة وظهر تأهبهم لذلك اجتمع طلحة والزبير وعائشة في خواص من قومهم وبطانتهم وقالوا نحب أن نسرع النهضة إلى البصرة فإن بها شيعة عثمان وأنصاره وعامله عبد الله بن عامر بن كريز وهو قريبه ونسيبه وقد عمل على استمداد الجنود من فارس وبلاد المشرق لمعونته على الطلب بدم عثمان وقد كاتبنا معاوية بن أبي سفيان أن ينفذ لنا الجنود من الشام فإن أبطأنا على الخروج خفنا أن يدهمنا ابن أبي طالب بمكة أو في بعض الطريق فيمن يرى رأيه في عداوة عثمان خوفا من أن يفرق كلمتنا وإذا أسرعنا المسير إلى البصرة وأخرجنا عامله منها وقتلنا شيعته بها واتسعنا بالأموال

منها كنا على الثقة من الظفر بابن أبي طالب فإن أقام بالمدينة سيرنا إليه الجنود حتى نحصره فيخلع نفسه أو نقتله كما قتل عثمان وإن سار فهو كال ونحن حامون وهو على ظاهر البصرة ونحن بها متحصنون فلا يطول الزمان حتى نفل جموعه بهلاك نفسه وإراحة المسلمين من فتنته.

[236]

تحذير أم سلمة عائشة :

و بلغ أم سلمة اجتماع القوم وما خاضوا فيه فبكت حتى اخضل خمارها ثم دعت بثيابها فلبستها وتخفرت ومشت إلى عائشة لتعظها وتصدها عن رأيها في مظاهرة أمير المؤمنين (عليه السلام) بالخلاف وتقعد بها عن الخروج مع القوم.

فلما دخلت عليها , قالت : إنك سدة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بين أمته وحجابك مضروب على حرمته وقد جمع القرآن ذيلك فلا تندحيه , ومكنك خفرتك فلا تضحيها , الله الله من وراء هذه الآية , قد علم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مكانك فلو أراد أن يعهد إليك لفعل بل نهاك عن الفرطة في البلاد , إن عمود الدين لا يقام بالنساء إن مال , ولا يرأب بهن إن صدع , حماديات النساء غض الأطراف وخف الأعطاف وقصر الوهازة وضم الذيول ; ما كنت قائلة لو أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عارضك ببعض الفلوات ناصة قلوصا من منهل إلى آخر ; قد هتكت صداقته وتركت حرمته وعهدته إن بعين الله مهواك وعلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) تردين ; والله لو سرت مسيرك هذا ثم قيل لي ادخلي الفردوس لاستحييت أن ألقى محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم)

[237]

هاتكة حجابا قد ستره علي ; اجعلي حصنك بيتك وقاعة البيت قبرك حتى تلقينه وأنت على ذلك أطوع ما تكونين لله لزمته وأنصر ما تكونين للدين ما جلست عنه.

فقالت لها عائشة : ما أعرفني بوعظك , وأقبلني لنصحك ولنعم المسير مسير فزعت إليه , وأنا بين سائرة أو متأخرة , فإن أقعد فعن غير حرج وإن أسر فإلى ما لا بد من الازدياد منه.

فلما رأت أم سلمة أن عائشة لا تقلع عن الخروج عادت إلى مكانها وبعثت إلى رهط من المهاجرين والأنصار فقالت لهم لقد قتل عثمان بحضرتكم وكانا هذان الرجلان تعني طلحة والزبير يسعيان عليه كما رأيتم فلما قضى الله أمره بايعا عليا وقد خرجا الآن زعما أن يطلبا بدم عثمان ويريدان أن يخرجا حبيسة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد عهد إلى جميع نسائه عهدا واحدا أن يقرن في بيوتهن فإن كان مع عائشة عهد سوى ذلك تظهره وتخرجه إلينا نعرفه ; لا والله ما بايعتم أيها القوم وغيركم

عليا مخافة له ولا بايعتموه إلا على علم منكم بأنه خير هذه الأمة وأحقهم بهذا الأمر قديما وحديثا والله ما أستطيع أزعم أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) خلف

[238]

يوم قبض خيرا منه ولا أحق بهذا الأمر منه ; فاتقوا الله عباد الله فإنا نأمركم بتقوى الله والاعتصام بحبله والله ولينا ووليكم.

قال فتقاعد كثير عن طلحة والزبير عند سماع هذا الخبر والقول من أم سلمة ثم أنفذت أم سلمة إلى عائشة فقالت لها : قد وعظتك فلم تتعظي وقد كنت أعرف رأيك في عثمان وأنه لو طلب منك شربة من ماء لمنعتيه ثم أنت اليوم تقولين إنه قتل مظلوما وتريدين أن تثيري لقتال أولى الناس بهذا الأمر قديما وحديثا ; فاتقي الله حق تقاته ولا تتعرضي لسخطه.

فأرسلت إليها : أما ما كنت تعرفنيه من رأي في عثمان فقد كان , ولا أجد مخرجا منه إلا الطلب بدمه , وأما علي فإني آمره برد هذا الأمر شورى بين الناس , فإن فعل , وإلا ضربت وجهه بالسيف حتى يقضي الله ما هو قاض.

فأنفذت إليها أم سلمة : أما أنا فغير واعظة لك من بعد ولا مكلمة لك جهدي وطاقتي , والله إني لخائفة عليك البوار ثم النار , والله ليخيبن ظنك ولينصرن الله ابن أبي طالب على من بغى عليه , وستعرفين عاقبة ما أقول والسلام.

[239]

فصل ; استشارة أمير المؤمنين (عليه السلام) أصحابه في جهاد الناكثين :

و لما اجتمع القوم على ما ذكرناه من شقاق أمير المؤمنين (عليه السلام) والتأهب للمسير إلى البصرة واتصل الخبر إليه وجاءه كتاب بخبر القوم دعا ابن عباس ومحمد بن أبي بكر وعمار بن ياسر وسهل بن حنيف وأخبرهم بالكتاب وبما عليه القوم من المسير.

فقال محمد بن أبي بكر : ما يريدون يا أمير المؤمنين ؟

فتبسم (عليه السلام) , وقال : يطلبون بدم عثمان.

فقال محمد : والله ما قتل عثمان غيرهم.

ثم قال أمير المؤمنين (عليه السلام) أشيروا علي بما أسمع منكم القول فيه.

فقال عمار بن ياسر : الرأي المسير إلى الكوفة فإن أهلها لنا شيعة وقد انطلق هؤلاء القوم إلى البصرة.

و قال ابن عباس : الرأي عندي يا أمير المؤمنين أن تقدم رجلا إلى الكوفة فيبايعون لك وتكتب إلى الأشعري أن يبايع لك ثم بعده المسير حتى نلحق بالكوفة وتعاجل القوم قبل أن يدخلوا البصرة وتكتب إلى أم سلمة فتخرج معك فإنها لك قوة.

[240]

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : بل أسير بنفسي ومن معي في اتباع الطريق وراء القوم فإن أدركتهم في الطريق أخذتهم وإن فاتوني كتبت إلى الكوفة واستمددت الجنود من الأمصار وسرت إليهم ; وأما أم سلمة فإني لا أرى إخراجها من بيتها كما رأى الرجلان إخراج عائشة.

فبينما هم في ذلك , إذ دخل عليهم أسامة بن زيد بن حارثة , وقال لأمير المؤمنين (عليه السلام) : فداك أبي وأمي , لا تسر سيرا واحدا , وانطلق إلى ينبع , وخلف على المدينة رجلا وأقم بما لك فإن العرب لهم جولة ثم يصيرون إليك.

فقال له ابن عباس : إن هذا القول منك يا أسامة إن كان على غير غل في صدرك فقد أخطأت وجه الرأي فيه ليس هذا برأي بصير يكون والله كهيئة الضبع في مغارتها.

فقال أسامة : فما الرأي ؟

قال : ما أشرت به أو ما رآه أمير المؤمنين لنفسه.

ثم نادى أمير المؤمنين (عليه السلام) في الناس : تجهزوا للمسير فإن طلحة والزبير قد نكثا البيعة ونقضا العهد وأخرجا عائشة من بيتها يريدان البصرة لإثارة الفتنة وسفك دماء أهل القبلة , ثم رفع يديه إلى السماء فقال : اللهم إن هذين الرجلين قد بغيا علي ونكثا عهدي ونقضا عقدي وشقاني بغير حق منهما كان في ذلك ; اللهم خذهما بظلمهما لي وأظفرني بهما وانصرني عليهما.

ثم خرج في سبعمائة رجل من المهاجرين والأنصار واستخلف على المدينة تمام بن العباس وبعث قثم بن العباس إلى مكة.

و لما رأى أمير المؤمنين (عليه السلام) التوجه إلى المسير طالبا للقوم , ركب جملا أحمر وقاد كميتا وسار.

و هو يقول :

[241]

سيروا أبابيل وحثوا السيرا *** كي نلحق التيمي والزبيرا

إذ جلبا الشر وعافا الخيرا *** يا رب أدخلهم غدا سعيرا

و سار مجدا في السير حتى بلغ الربذة فوجد القوم قد فاتوا فنزل بها قليلا ثم توجه نحو البصرة والمهاجرون والأنصار عن يمينه وشماله محدقون به مع من سمع بمسيرهم فأتبعهم حتى نزل بذي قار فأقام بها.

[242]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أبي موسى الأشعري :

ثم دعا هاشم بن عتبة المرقال وكتب معه كتابا إلى أبي موسى الأشعري وكان بالكوفة من قبل عثمان وأمره أن يوصل الكتاب إليه ليستنفر الناس منها إلى الجهاد معه وكان مضمون الكتاب.

بسم الله الرحمن الرحيم من علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس أما بعد فإني أرسلت إليك هاشم بن عتبة لتشخص معه من قبلك من المسلمين ليتوجهوا إلى قوم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي وأحدثوا في هذه الأمة الحدث العظيم فأشخص بالناس إلي معه حين يقدم الكتاب عليك ولا تحبسه فإني لم أقرك في المصر الذي أنت فيه إلا أن تكون من أعواني وأنصاري على هذا الأمر والسلام.

فقدم هاشم بالكتاب على أبي موسى الأشعري , فلما وقف عليه , دعا السائب بن مالك الأشعري فاقرأه الكتاب وقال له : ما ترى ؟

فقال السائب : اتبع ما كتب به إليك.

فأبى أبو موسى ذلك , وكسر الكتاب ومحاه , وبعث إلى هاشم بن عتبة يخوفه ويتوعده بالسجن.

فقال السائب بن مالك : فأتيت هاشما فأخبرته بأمر أبي موسى.

فكتب هاشم إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) :

أما بعد يا أمير المؤمنين فإني

[243]

قدمت بكتابك على امرئ عاق شاق بعيد الرحم ظاهر الغل والشقاق وقد بعثت إليك بهذا الكتاب مع المحل بن خليفة أخي طيء وهو من شيعتك وأنصارك وعنده علم ما قبلنا فاسأله عما بدا لك واكتب إلي برأيك أتبعه والسلام.

فلما قدم الكتاب إلى علي (عليه السلام) وقرأه دعا الحسن ابنه وعمار بن ياسر وقيس بن سعد فبعثهم إلى أبي موسى وكتب معهم :

من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس.

أما بعد يا ابن الحائك والله إني كنت لأرى أن بعدك من هذا الأمر الذي لم يجعلك الله له أهلا ولا جعل لك فيه نصيبا سيمنعك من رد أمري وقد بعثت إليك الحسن وعمارا وقيسا فأخل لهم المصر وأهله واعتزل عملنا مذءوما مدحورا فإن فعلت وإلا فإني أمرتهم أن ينابذوك على سواء إن الله لا يحب الخائنين فإن ظهروا عليك قطعوك إربا إربا والسلام على من شكر النعمة ورضي بالبيعة وعمل لله رجاء العاقبة.

[244]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أهل الكوفة :

فلما قدم الحسن (عليه السلام) وعمار وقيس الكوفة مستنفرين أهلها وكان معهم كتاب فيه :

بسم الله الرحمن الرحيم ; من علي بن أبي طالب إلى أهل الكوفة.

أما بعد فإني أخبركم عن أمر عثمان حتى يكون أمره كالعيان لكم إن الناس طعنوا عليه فكنت رجلا من المهاجرين أكثر استعتابه وأقل عتابه وكان طلحة والزبير أهون سيرهما فيه الوجيف وقد كان من عائشة فيه فلتة غضب فأتيح له قوم فقتلوه وبايعني الناس غير مستكرهين ولا مجبرين بل طائعين مخيرين وكان طلحة والزبير أول من بايعني على ما بايعا عليه من كان قبلي ثم استأذناني في العمرة ولم يكونا يريدان العمرة فنكثا العهد وأذنا بالحرب وأخرجا عائشة من بيتها يتخذانها فتنة فسارا إلى البصرة اختيارا لأهلها واخترت المسير إليكم ولعمري ما إياي تجيبون إنما تجيبون الله ورسوله والله ما قاتلتهم وفي نفسي منهم شك وقد بعثت إليكم ولدي الحسن وعمارا وقيسا مستنفرين بكم فكونوا عند ظني بكم.

[245]

خطبة الحسن (عليه السلام) :

و لما نزل الحسن (عليه السلام) وعمار وقيس الكوفة ومعهم كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) قام فيهم الحسن (عليه السلام) فقال :

أيها الناس قد كان من أمير المؤمنين (عليه السلام) ما يكفيكم جملته وقد أتيناكم مستنفرين لكم لأنكم جبهة الأنصار وسنام العرب وقد نقض طلحة والزبير بيعتهما وخرجا بعائشة وهي من النساء وضعف رأيهن كما قال الله عز وجل الرِّجالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّساءِ وايم الله لئن لم تنصروه لينصرنه الله عز وجل بمن يتبعه من المهاجرين والأنصار وسائر الناس فانصروا ربكم ينصركم.

[246]

خطبة عمار :

ثم قام عمار بن ياسر فقال :

يا أهل الكوفة إن كانت غابت عنكم أبداننا فقد انتهت إليكم أمورنا وأخبارنا إن قاتلي عثمان لا يعتذرون إلى الناس من قتله وقد جعلوا كتاب الله بينهم وبين محاجيهم فيه وقد كان طلحة والزبير أول من طعنا عليه وأول من أمر بقتله وسعى في دمه فلما قتل بايعا أمير المؤمنين (عليه السلام) طوعا واختيارا ثم نكثا على غير حدث كان منه وهذا ابن رسول الله قد عرفتم أنه أنفذه يستنفركم وقد اصطفاكم على المهاجرين والأنصار.

خطبة قيس بن سعد :

ثم قام قيس بن سعد فقال :

أيها الناس إن هذا الأمر لو استقبلنا فيه الشورى لكان أمير المؤمنين (عليه السلام) أحق الناس به لمكانه من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وكان قتال من أبى ذلك حلالا فكيف في الحجة على طلحة والزبير وقد بايعاه طوعا ثم خلعاه حسدا وبغيا وقد جاءكم علي في المهاجرين والأنصار ثم أنشأ يقول :

رضينا بقسم الله إذ كان قسمنا * عليا وأبناء الرسول محمد**

و قلنا لهم أهلا وسهلا ومرحبا * بمد يدينا من هدى وتودد**

[247]

فما للزبير الناقض العهد حرمة * ولا لأخيه طلحة اليوم من يد**

أتاكم سليل المصطفى ووصيه * وأنتم بحمد الله عارضة الندى**

فمن قائم يرجى بخيل إلى الوغى * وضم العوالي والصفيح المهند**

يسود من أدناه غير مدافع * وإن كان ما تقضيه غير مسود**

فإن يأت ما نهوى فذاك نريده * وإن تخط ما نهوى فغير تعمد**

خطبة أبي موسى الأشعري :

فلما فرغ القوم من كلامهم قام أبو موسى الأشعري فقال :

أيها الناس أطيعوني تكونوا جرثومة من جراثيم العرب يأوي إليكم المظلوم ويأمن فيكم الخائف إنا أصحاب محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) أعلم بما سمعنا الفتنة إذا أقبلت شبهت وإذا أدبرت بينت وإن هذه الفتنة نافذة كداء البطن تجري بها الشمال والجنوب والصبا

[248]

و الدبور وتنكب أحيانا فلا يدرى من أين تأتي شيموا سيوفكم وقصروا رماحكم وقطعوا أوتاركم والزموا البيوت خلوا قريشا إذا أبوا إلا الخروج من دار الهجرة وفراق أهل العلم بالإمرة ترتق فتقها وتشعب صدعها فإن فعلت فلنفسها وإن أبت فعليها جنت سمنها يريق في أديمها استنصحوني ولا تستغشوني يسلم لكم دينكم ودنياكم ويشقى بهذه الفتنة من جناها.

خطبة زيد بن صوحان :

فقام زيد بن صوحان رحمه الله وكانت يده قطعت يوم جلولاء ورفع يده ثم قال يا أبا موسى تريد أن ترد الفرات عن أدراجه إنه لا يرجع من حيث بدأ فإن قدرت على ذلك فستقدر على ما تريد دع ويلك ما لست مدركة الم أَ حَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وهُمْ لا يُفْتَنُونَ.

ثم قال : أيها الناس سيروا إلى أمير المؤمنين

[249]

و أطيعوا ابن سيد المرسلين وانفروا إليه أجمعين تصيبوا الحق وتظفروا بالرشد قد والله نصحتكم فاتبعوا رأيي ترشدوا.

احتجاج عبد خير على أبي موسى الأشعري :

ثم قام عبد خير وقال لأبي موسى : خبرني يا أبا موسى هل كان هذان الرجلان بايعا علي بن أبي طالب فيما بلغك وعرفت ؟

قال : نعم.

قال : فهل جاء علي بحدث يحل عقدة بيعته حتى ترد بيعته كما ردت بيعة عثمان ؟

قال أبو موسى : لا أعلم.

قال له عبد خير : لا علمت ولا دريت , نحن تاركوك حتى تدري حينئذ ; خبرني يا أبا موسى : هل أحد خارج من هذه الفتنة التي تزعم أنها عمياء تحذر الناس منها ؟ أما تعلم أنها أربع فرق : علي بظهر الكوفة ; وطلحة والزبير بالبصرة ; ومعاوية بالشام ; وفرقة أخرى بالحجاز ; لا يجبى بها بر ولا يقام بها حد ولا يقاتل بها عدو , فأين القرآن من هذه الفتن ؟

فقال أبو موسى : الفرقة القاعدة عن القتال خير الناس.

فقال له عبد خير : غلب على علمك يا أبا موسى.

فقام رجل من بجيلة فقال :

و حاجك عبد خير يا ابن قيس *** فأنت اليوم كالشاة الربيض

[250]

فلا حقا أصبت ولا ضلالا *** فعدت هناك تهوي بالحضيض

أبا موسى نظرت برأي سوء *** تنول به إلى قلب مريض

و تهت فليس تفرق بين خمس *** ولا ست ولا سود وبيض

و تذكر فتنة شملت وفيها *** سقطت وأنت ترجف بالحريض

[251]

إرسال الأشتر إلى الكوفة :

قال وبلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) ما كان من أمر أبي موسى في تخذيل الناس عن نصرته فقام إليه مالك الأشتر رحمه الله تعالى فقال يا أمير المؤمنين إنك قد بعثت إلى الكوفة رجلا من العنت فما أراه حكم شيئا وهؤلاء أخلف من بعثت أن يستتب لك الناس على ما تحب ولست أدري ما يكون فإن رأيت جعلت فداك أن تبعثني في أثرهم فإن أهل الكوفة أحسن لي طاعة فإن قدمت عليهم رجوت أن لا يخالفني منهم أحد.

فقال أمير المؤمنين (عليه السلام) : الحق بهم على اسم الله عز وجل.

فأقبل الأشتر حتى دخل الكوفة وقد اجتمع الناس بالمسجد الأعظم فأخذ لا يمر بقبيلة فيها جماعة في مجلس أو مسجد إلا

دعاهم وقال اتبعوني إلى القصر.

فانتهى إلى القصر في جماعة من الناس , فاقتحم وأبو موسى قائم في المسجد الأعظم يخطب الناس ويثبطهم عن نصرة أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يقول :

[252]

أيها الناس هذه فتنة عمياء صماء تطأ في خطامها النائم فيها خير من القاعد والقاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي خير من الساعي والساعي خير من الراكب إنها فتنة نافذة كداء البطن أتتكم من قبل مأمنكم تدع الحليم فيها خيرا من أكابر البشر فإذا أدبرت أسفرت.

و عمار يخاطبه :

و الحسن (عليه السلام) يقول : اعتزل عملنا لا أم لك صاغرا وتنح عن منبرنا.

و أبو موسى يقول لعمار : هذه يدي بما :

سمعت من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : ستكون فتنة القاعد فيها خير من القائم.

فقال له عمار : إنما قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ستكون فتنة أنت فيها يا أبا موسى قاعدا خير منك قائما ; ولم يقل ذلك لغيرك.

ثم قال له عمار : أرني يدك يا أبا موسى ؟

فأبرزها إليه.

فقبض عليها عمار وقال : غلب الله من غالبه ولعن من جاحده ثم ; قال عمار : أيها الناس إن أبا موسى أوتي علما ثم انتفض عنه كما ينتفض الديك إذا خرج من الماء.

[253]

ذهاب الأشتر إلى القصر :

فبينا هم كذلك إذ دخل المسجد غلمان أبي موسى ينادون : يا أبا موسى هذا الأشتر اخرج من المسجد.

و دخل عليه أصحاب الأشتر فقالوا له : اخرج ويلك أخرج الله نفسك , فو الله إنك لمن المنافقين.

فخرج أبو موسى وأنفذ إلى الأشتر أن أجلني هذه العشية.

قال : قد أجلتك ولا تبيتن في القصر هذه الليلة واعتزل ناحية عنه.

و دخل الناس ينتهبون متاع أبي موسى فأتبعهم الأشتر بمن أخرجهم من القصر , وقال لهم : إني أخرته ; فكف الناس عنه.

خطبة أخرى للحسن (عليه السلام) :

ثم صعد الحسن (عليه السلام) المنبر فحمد الله وأثنى عليه وذكر جده فصلى عليه ثم قال :

أيها الناس إن عليا أمير المؤمنين باب هدى فمن دخله اهتدى ومن خالفه تردى.

[254]

خطبة أخرى لعمار :

ثم نزل , فصعد عمار , فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال :

أيها الناس إنا لما خشينا على هذا الدين أن تتهدم جوانبه ويتعرى أديمه نظرنا لأنفسنا ولديننا فاخترنا عليا (عليه السلام) خليفة ورضينا به إماما فنعم الخليفة ونعم المؤدب مؤدب لا يؤدب وفقيه لا يعلم وصاحب بأس لا ينكر وذو سابقة في الإسلام ليست لأحد من الناس غيره وقد خالفه قوم من أصحابه حاسدون له باغون عليه وقد توجهوا إلى البصرة اخرجوا إليهم رحمكم الله فإنكم لو شاهدتموهم وحاججتموهم تبين لكم أنهم ظالمون.

خطبة الأشتر :

ثم خرج الأشتر رحمه الله فصعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه , ثم قال :

أيها الناس أصغوا إلي بأسماعكم وافهموا قولي بقلوبكم إن الله عز وجل قد أنعم عليكم بالإسلام نعمة لا تقدرون قدرها ولا تؤدون شكرها كنتم أعداء يأكل قويكم ضعيفكم وينتهب كثيركم قليلكم وتنتهك حرمات الله بينكم والسبيل

[255]

مخوف والشرك عندكم كثير والأرحام عندكم مقطوعة وكل أهل دين لكم قاهرون فمن الله عليكم بمحمد (صلى الله عليه وآله وسلم) فجمع شمل هذه الفرقة وألف بينكم بعد العداوة وكثركم بعد أن كنتم قليلين ثم قبضه الله عز وجل إليه فحوى بعده رجلان ثم ولي علينا بعدهما رجل نبذ كتاب الله وراء ظهره وعمل في أحكام الله بهوى نفسه فسألناه أن يعتزل لنا نفسه فلم يفعل وأقام على أحداثه فاخترنا هلاكه على هلاك ديننا ودنيانا ولا يبعد الله إلا القوم الظالمين وقد جاءكم الله بأعظم الناس مكانا في الدين وأعظمهم حرمة وأصوبهم في الإسلام سهما ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأفقه الناس في الدين وأقرئهم لكتاب الله وأشجعهم عند اللقاء يوم البأس وقد استنفركم فما تنتظرون أ سعيدا أم الوليد الذي شرب الخمر وصلى بكم على سكر وهو سكران منها واستباح ما حرمه الله فيكم ; أي هذين تريدون ؟ قبح الله من له هذا الرأي , ألا فانفروا مع الحسن ابن بنت نبيكم ولا يتخلف رجل له قوة فو الله ما يدري رجل منكم ما يضره مما ينفعه ألا وإني لكم ناصح شفيق عليكم إن كنتم تعقلون أو تبصرون أصبحوا إن شاء الله غدا عادين مستعدين وهذا وجهي إلى ما هنالك بالوفاء.

خطبة حجر بن عدي :

ثم قام حجر بن عدي الكندي رحمه الله فقال :

أيها الناس هذا الحسن بن

[256]

علي بن أبي طالب وهو من عرفتم أحد أبويه النبي الأمي (صلى الله عليه وآله وسلم) والآخر الإمام الرضي المأمون الوصي وهو أحد الذين ليس لهما في الإسلام شبيه سيدي شباب أهل الجنة وسيدي سادات العرب أكملهم صلاحا وأفضلهم علما وعملا وهو رسول أبيه إليكم يدعوكم إلى الحق ويسألكم النصر السعيد والله من ودهم ونصرهم والشقي من تخلف عنهم بنفسه عن مواساتهم فانفروا معه رحمكم الله خفافا وثقالا واحتسبوا في ذلك الأجر فإن الله لا يضيح أجر المحسنين فأجاب الناس كلهم بالسمع والطاعة.

[257]

إرسال محمد بن الحنفية ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة :

و قد ذكر الواقدي أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان أنفذ إلى أهل الكوفة رسلا وكتب إليهم كتابا عند خروجه من المدينة وقبل نزوله بذي قار وقال في حديث آخر رواه إنه أنفذ إلى القوم من الربذة حين فاته رد طلحة والزبير من الطريق.

ثم اتفق الواقدي وأبو مخنف وغيرهما من أصحاب السير على ما قدمنا ذكره من إنفاذ الرسل وكتب الكتب من ذي قار إلى أهل الكوفة ليستنفرهم للجهاد معه والاستعانة بهم على أعدائه الناكثين لعهده الخارجين عليه لحربه فكان مما رواه الواقدي أن قال : حدثني عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه قال : لما عزم أمير المؤمنين (عليه السلام) على المسير من المدينة لرد طلحة والزبير بعث محمد بن الحنفية ومحمد بن أبي بكر إلى الكوفة وكان عليها أبو موسى الأشعري فلما قدما عليه أساء القول عليهما وأغلظ وقال والله إن بيعة عثمان لفي رقبة صاحبكم وفي رقبتي ما خرجنا منها ثم قام على المنبر فقال أيها الناس إنا أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ونحن أعلم منكم بهذه الفتنة فاحذروها إن عائشة كتبت إلي أن اكفني من قبلك وهذا علي قادم إليكم يريد أن يسفك بكم دماء المسلمين فكسروا نبلكم وقطعوا أوتاركم واضربوا الحجارة بسيوفكم.

[258]

فقال محمد بن الحنفية رضي الله عنه لمحمد بن أبي بكر : يا أخي ما عند هذا خير فارجع بنا إلى أمير المؤمنين نخبره الخبر فلما رجعا إليه أخبراه بالحال وقد كان كتب معهما كتابا إلى أبي موسى الأشعري أن يبايع من قبله على السمع والطاعة.

و قال له في كتابه ارفع عن الناس سوطك وأخرجهم حجزتك واجلس بالعراقين فإن خففت فأقبل وإن ثقلت فاقعد.

فلما قرأ الكتاب قال : أثقل ثم أثقل.

[259]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أهل الكوفة :

و لما بلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) ما قال وصنع غضب غضبا شديدا وبعث الحسن (عليه السلام) وعمار بن ياسر وكتب معهم كتابا فيه بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة من المؤمنين والمسلمين أما بعد فإن دار الهجرة تقلعت بأهلها فانقلعوا عنها فجاشت جيش المرجل وكانت فاعلة يوما ما فعلت وقد ركبت المرأة الجمل ونبحتها كلاب الحوأب وقامت الفتنة الباغية يقودها رجال يطلبون بدم هم سفكوه وعرض هم شتموه وحرمة هم انتهكوها وأباحوا ما أباحوا يعتذرون إلى الناس دون الله يَحْلِفُونَ لَكُمْ لِتَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنْ تَرْضَوْا عَنْهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لا يَرْضى عَنِ الْقَوْمِ الْفاسِقِينَ اعملوا رحمكم الله أن الجهاد مفترض على العباد وقد جاءكم في داركم من يحثكم عليه ويعرض عليكم رشدكم والله يعلم أني لم أجد بدا من الدخول في هذا الأمر ولو علمت أن أحدا أولى به مني ما قدمت عليه وقد بايعني طلحة والزبير طائعين غير مكرهين ثم خرجا يطلبان بدم عثمان وهما اللذان فعلا بعثمان ما فعلا وعجبت لهما كيف أطاعا

[260]

أبا بكر وعمر في البيعة وأبيا ذلك علي وهما يعلمان أني لست بدون أحد منهما مع أني قد عرضت عليهما قبل أن يبايعاني أن أحبا بايعت أحدهما فقالا لا ننفس ذلك عليك بل نبايعك ونقدمك علينا بحق فبايعا ثم نكثا والسلام على أهل السلام.

[261]

إرسال الحسن (عليه السلام) وعمار وابن عباس إلى الكوفة :

و لما سار (عليه السلام) من المدينة انتهى إلى فيد وكان قد عدل إلى جبال طيء حتى سار معه عدي بن حاتم في ستمائة من قومه.

فقال (عليه السلام) لابن عباس ما الرأي عندك في أهل الكوفة وأبي موسى الأشعري ؟

فقال له ابن عباس : أنفذ عمارا فإنه رجل له سابقة في الإسلام وقد شهد بدرا فإنه إن تكلم هناك صرف الناس إليك وأنا أخرج معه وابعث معنا الحسن ابنك.

ففعل ذلك.

فخرجوا حتى قدموا على أبي موسى فلما وصلوا الكوفة قال ابن عباس للحسن ولعمار إن أبا موسى رجل عات فإذا رفقنا به أدركنا منه حاجتنا.

فقالا له : افعل ما شئت.

فقال ابن عباس لأبي موسى : يا أبا موسى إن أمير المؤمنين أرسلنا إليك لما يعرف من سرعتك إلى طاعة الله عز وجل ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ومصيرك إلى ما محبتنا أهل البيت وقد علمت فضله وسابقته في الإسلام وهو يقول لك أن

تبايع له الناس وتقر على عملك ويرضى عنك.

فانخدع أبو موسى وصعد المنبر فبايع لعلي ساعة من النهار ثم نزل.

[262]

خطبة عمار :

فلما نزل صعد عمار المنبر فقال :

الحمد لله حمدا كثيرا فإنه أهله على نعمه التي لا نحصيها ولا نقدر قدرها ولا نشكر شكرها وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله أرسله بالهدى والنور الواضح والسلطان القاهر الأمين الناصح والحكيم الراجح رسول رب العالمين وقائد المؤمنين وخاتم النبيين جاء بالصدق وصدق المرسلين وجاهد في الله حتى أتاه اليقين ثم إن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) حفظه الله ونصره نصرا عزيزا وأبرم له أمرا رشيدا بعثني إليكم وابنه يأمركم بالنفير إليه فانفروا إليه واتقوا وأطيعوا الله تعالى والله لو علمت أن على وجه الأرض بشرا أعلم بكتاب الله وسنة نبيه منه ما استنفرتكم إليه ولا بايعته على الموت.

يا معشر أهل الكوفة الله الله في الجهاد فو الله لئن صارت الأمور إلى غير علي (عليه السلام) لتصيرن إلى البلاء العظيم والله يعلم أني قد نصحت لكم وأمرتكم بما أخذت بيقيني وما أُرِيدُ أَنْ أُخالِفَكُمْ إِلى ما أَنْهاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وما تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وإِلَيْهِ أُنِيبُ أستغفر الله لي ولكم.

[263]

خطبة أخرى لعمار :

ثم نزل فصبر هنيئة , ثم عاد إلى المنبر ; فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس هذا ابن عم نبيكم (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بعثني إليكم يستصرخكم ألا إن طلحة والزبير قد سارا نحو البصرة وأخرجا عائشة معهما للفتنة ألا وإن الله قد ابتلاكم بحق أمكم وحق ربكم وحق ربكم أولى وأعظم عليكم من حق أمكم ولكن الله ابتلاكم لينظر كيف تعملون فاتقوا الله واسمعوا وأطيعوا وانفروا إلى خليفتكم وصهر نبيكم فإن أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) قد بايعوه بالمدينة وهي دار الهجرة ودار الإسلام أسأل الله أن يوفقكم ثم نزل.

خطبة الحسن (عليه السلام) :

فصعد الحسن بن علي (عليه السلام) المنبر فحمد الله وأثنى عليه ثم ذكر جده فصلى عليه وذكر فضل أبيه وسابقته وقرابته برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنه أولى بالأمر من غيره ثم قال :

[264]

معاشر الناس إن طلحة والزبير قد بايعا عليا طائعين غير مكرهين ثم نفرا ونكثا بيعتهما له فطوبى لمن خف في مجاهدة من جاهده فإن الجهاد معه كالجهاد مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم نزل.

[265]

خدعة ابن عباس لأبي موسى الأشعري :

و كان أمير المؤمنين (عليه السلام) قد كتب مع ابن عباس كتابا إلى أبي موسى الأشعري أغلظ فيه فقال ابن عباس فقلت في نفسي أقدم على رجل وهو أمير بمثل هذا الكتاب إذن لا ينظر في كتابي ونظرت أن أشق كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) فشققته وكتبت من عندي كتابا عنه لأبي موسى أما بعد فقد عرفت مودتك إيانا أهل البيت وانقطاعك إلينا وإنما نرغب إليك لما نعلم من حسن رأيك فينا فإذا أتاك كتابي هذا فبايع لنا الناس والسلام.

فلما قرأ أبو موسى الكتاب قال لي : أنا الأمير أم أنت ؟

قلت : بل أنت الأمير.

فدعا الناس إلى بيعة علي (عليه السلام).

فلما بايع , قمت فصعدت المنبر فرام إنزالي منه ; فقلت : أنت تنزلني عن المنبر وأخذت بقائم السيف فقلت اثبت مكانك والله لئن نزلت إليك خذمتك به فلم يبرح فبايعت الناس لعلي وخلعت في الحال أبا موسى واستعملت مكانه قرظة بن كعب الأنصاري ولم أبرح من الكوفة حتى سيرت لأمير المؤمنين في البر والبحر من أهلها سبعة آلاف رجل ولحقته بذي قار وقد سار معه من جبال طيء وغيرها ألفا رجل.

و لما صار أهل الكوفة إلى ذي قار ولقوا أمير المؤمنين (عليه السلام) بها رحبوا به وقالوا الحمد لله الذي خصنا بمودتك وأكرمنا بنصرتك فجزاهم (عليه السلام) خيرا.

[266]

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار :

ثم قام وخطبهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم قال :

يا أهل الكوفة إنكم من أكرم المسلمين وأعدلهم سنة وأفضلهم في الإسلام سهما وأجودهم في العرب مركبا ونصابا حزبكم بيوتات العرب وفرسانهم ومواليهم أنتم أشد العرب ودا للنبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وإنما اخترتكم ثقة بكم لما بذلتم لي أنفسكم عند نقض طلحة والزبير بيعتي وعهدي وخلافهما طاعتي وإقبالهما بعائشة لمخالفتي ومبارزتي وإخراجهما لها من بيتها حتى أقدماها البصرة وقد بلغني أن أهل البصرة فرقتان فرقة الخير والفضل والدين قد اعتزلوا وكرهوا ما فعل طلحة والزبير.

ثم سكت (عليه السلام).

فأجابه أهل الكوفة : نحن أنصارك وأعوانك على عدوك ولو دعوتنا إلى أضعافهم من الناس احتسبنا في ذلك الخير والأجر ورجوناه.

فرد عليهم خير.

[267]

خطبة أخرى لأمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار :

و لما أراد المسير إلى ذي قار تكلم فحمد الله وأثنى عليه فأبلغ ثم قال :

إن الله عز وجل بعث محمدا (صلى الله عليه وآله وسلم) للناس كافة ورحمة للعالمين فصدع بما أمر به وبلغ رسالات ربه فلم الله به الصدع ورتق به الفتق وآمن به السبل وحقن به الدماء وألف به بين ذوي الأحقاد والعداوة الواغرة في الصدور والضغائن الكامنة في القلوب فقبضه الله عز وجل إليه حميدا وقد أدى الرسالة ونصح للأمة فلما مضى (صلى الله عليه وآله وسلم) لسبيله دفعنا عن حقنا من دفعنا وولوا من ولوا سوانا ثم وليها عثمان بن عفان فنال منكم ونلتم منه حتى إذا كان من أمره ما كان أتيتموني فقلتم بايعنا فقلت لكم لا أفعل فقلتم بلى فقلت لا فقبضت يدي فبسطتموها وتداككتم على كتداك الإبل الهيم على حياضها يوم ورودها حتى لقد خفت أنكم قاتلي أو بعضكم قاتل بعض فبايعتموني وأنا غير مسرور بذلك ولا جذل وقد علم الله سبحانه أني كنت كارها للحكومة بين أمة محمد (صلى الله عليه وآله وسلم) ولقد سمعته يقول ما من وال يلي شيئا من أمر أمتي إلا أتي به يوم القيامة مغلولة يداه إلى عنقه على

[268]

رءوس الخلائق ثم ينشر كتابه فإن كان عادلا نجا وإن كان جائرا هوى ثم اجتمع علي ملؤكم وبايعني طلحة والزبير وأنا أعرف الغدر في وجهيهما والنكث في عينيهما ثم استأذناني في العمرة فأعلمتهما أن ليس العمرة يريدان فسارا إلى مكة واستخفا عائشة وخدعاها وشخص معها أبناء الطلقاء فقدموا البصرة وقتلوا بها المسلمين وفعلوا المنكر ويا عجبا لاستقامتهما لأبي بكر وعمر وبغيهما علي وهما يعلمان أني لست دون أحدهما ولو شئت أن أقول لقلت ولقد كان معاوية كتب إليهما من الشام كتابا يخدعهما فيه فكتماه عني وخرجا يوهمان الطغام أنهما يطلبان بدم عثمان والله ما أنكرا علي منكرا ولا جعلا بيني وبينهما نصفا وإن دم عثمان لمعصوب بهما ومطلوب منهما يا خيبة الداعي إلى م دعا وبما ذا أجيب والله إنهما لفي ضلالة صماء وجهالة عمياء وإن الشيطان قد ذمر لهما حزبه واستجلب منهما خيله ورجله ليعيد الجور إلى أوطانه ويرد الباطل إلى نصابه ثم رفع يديه فقال اللهم إن طلحة والزبير قطعاني وظلماني ونكثا بيعتي فاحلل ما عقدا وانكث ما أبرما ولا تغفر لهما أبدا وأرهما المساءة فيما عملا وأملا.

[269]

كلام الأشتر :

فقام الأشتر رحمه الله فقال :

خفض عليك يا أمير المؤمنين فو الله ما أمر طلحة والزبير علينا بمخيل ولقد دخلا في هذا الأمر اختيارا ثم فارقانا على غير جور عملناه ولا حدث في الإسلام أحدثناه ثم أقبلا يثيران الفتنة علينا تائهين جائرين ليس معهما حجة ترى ولا أثر يعرف قد لبسا العار وتوجها نحو الديار فإن زعما أن عثمان قتل مظلوما فليستقد آل عثمان منهما فأشهد أنهما قتلاه وأشهد الله يا أمير المؤمنين لئن لم يدخلا فيما خرجا منه ولم يرجعا إلى طاعتك وما كانا عليه لنلحقنهما بابن عفان.

كلام أبي الهيثم بن التيهان :

و قام أبو الهيثم بن التيهان رحمه الله فقال يا أمير المؤمنين صبحهم الله بما يكرهون فإن أقبلوا قبلنا منهم وإن أدبروا جاهدناهم فلعمري ما قوم قتلوا النفس التي حرم الله وأخذوا الأموال وأخافوا أهل الإيمان بأهل أن يكف عنهم.

[270]

كلام عدي بن حاتم :

فأقبل أمير المؤمنين (عليه السلام) على عدي بن حاتم فقال له يا عدي أنت شاهد لنا وحاضر معنا وما نحن فيه.

فقال عدي شهدتك أو غبت عنك فأنا عند ما أحببت هذه خيولنا معدة ورماحنا محددة وسيوفنا مجردة فإن رأيت أن نتقدم تقدمنا وإن رأيت أن نحجم أحجمنا نحن طوع لأمرك فأمر بما شئت نسارع إلى امتثال أمرك.

حديث أبي زينب الأزدي مع أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و قام أبو زينب الأزدي فقال والله إن كنا على الحق إنك لأهدانا سبيلا وأعظمنا في الخير نصيبا وإن كنا على الضلال والعياذ بالله أن نكون عليه فإنك أعظمنا وزرا وأثقلنا ظهرا وقد أردنا المسير إلى هؤلاء القوم وقطعنا منهم الولاية وأظهرنا منهم البراءة وظاهرناهم بالعداوة نريد بذلك ما يعلمه الله عز وجل وإنا ننشدك الله الذي علمك ما لم تكن تعلم أ لسنا على الحق وعدونا على الضلال.

فقال (عليه السلام) : أشهد لئن خرجت لدينك ناصرا صحيح النية وقد قطعت منهم الولاية وأظهرت منهم البراءة كما قلت إنك لفي رضوان الله فأبشر يا أبا زينب فإنك والله على الحق فلا تشك فإنك إنما تقاتل الأحزاب.

فأنشأ أبو زينب يقول :

[271]

سيروا إلى الأحزاب أعداء النبي * فإن خير الناس أتباع علي**

هذا أوان طاب سل المشرفي * وقودنا الخيل وهز السمهري**

[272]

رجوع ابن عباس من الكوفة إلى ذي قار :

و لما استقر أمر أهل الكوفة على الشخوص لأمير المؤمنين (عليه السلام) وخف بعضهم لذلك بادر ابن عباس ومن معه من الرسل فيمن اتبعهم من أهل الكوفة إلى ذي قار للحاق بأمير المؤمنين (عليه السلام) وأخبره بما عليه القوم من الجد والاجتهاد في طاعته وأنهم لاحقون به غير متأخرين عنه وإنما تقدمهم ليستعدوا للسفر وللحرب وقد كان استخلف قرظة بن كعب بالكوفة على ما قدمناه وليحث الناس على اللحاق به.

فورد على أمير المؤمنين (عليه السلام) كتاب قد كتب إليه من البصرة بما صنعه القوم بعامله عثمان بن حنيف وما استحلوه من الدماء ونهب الأموال وقتل من قتلوه من شيعته وأنصاره وما أثاروه من الفتنة بها فوجده ابن عباس وقد أحزنه ذلك وغمه وأزعجه وأقلقه فأخبره بطاعة أهل الكوفة ووعدهم له بالنصر فسر عند ذلك وأقام ينتظر أهل الكوفة والمدد الذي ينتصر به على عدوه.

[273]

فصل ; عثمان بن حنيف والناكثون :

و كان من حديث القوم فيما صنعوه بعثمان بن حنيف رضي الله عنه ومن ذكرناه معه على ما جاءت به الأخبار واتفقت عليه نقلة السير والآثار ما روى الواقدي وأبو مخنف عن أصحابهما والمدائني وابن دأب عن مشايخهما بالأسانيد التي اختصرنا القول بإسقاطها واعتمدنا فيها على ثبوتها في مصنفات القوم وكتبهم فقالوا إن عائشة وطلحة والزبير لما ساروا من مكة إلى البصرة أغذوا السير مع من اتبعهم من بني أمية وعمال عثمان وغيرهم من قريش حتى صاروا إلى البصرة فنزلوا حفر أبي موسى فبلغ عثمان بن حنيف رحمه الله وهو عامل البصرة يومئذ وخليفة أمير المؤمنين (عليه السلام) وكان عنده حكيم بن جبلة , فقال له حكيم : ما الذي بلغك ؟

[274]

فقال : خبرت أن القوم قد نزلوا حفر أبي موسى.

فقال له حكيم : ائذن لي أن أسير إليهم فإني رجل في طاعة أمير المؤمنين (عليه السلام).

فقال له عثمان : توقف عن ذلك حتى أراسلهم.

فقال له حكيم : إنا لله هلكت والله يا عثمان.

فأعرض عنه , وأرسل إلى عمران بن حصين وأبي الأسود الدؤلي فذكر لهما قدوم القوم البصرة وحلولهم حفر أبي موسى

وسألهما المسير إليهم وخطابهم على ما قصدوا به وكفهم عن الفتنة.

فخرجا حتى دخلا على عائشة , فقالا لها : يا أم المؤمنين ما حملك على المسير ؟

فقالت : غضبت لكما من سوط عثمان وعصاه ولا أغضب أن يقتل ؟

فقالا لها : وما أنت من سوط عثمان وعصاه , وإنما أنت حبيسة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نذكرك الله أن تهراق الدماء بسببك.

فقالت : وهل من أحد يقاتلني ؟

فقال لها أبو الأسود : نعم والله قتالا أهونه شديد ; ثم خرجا من عندها.

فدخلا على الزبير , فقالا : يا أبا عبد الله ننشدك الله أن تهراق الدماء بسببك.

فقال لهما : ارجعا من حيث جئتما لا تفسدا علينا.

فأيسا منه , وخرجا حتى دخلا على طلحة , فقالا له : ننشدك الله أن تهراق الدماء بسببك.

فقال لهما طلحة : أ يحسب علي بن أبي طالب أنه إذا غلب على أمر المدينة أن الأمر له وأنه لا أمر إلا أمره ; والله ليعلمن , فانصرفا من حيث جئتما.

فانصرفا من عنده إلى عثمان بن حنيف فأخبراه الخبر.

و روى ابن أبي سبرة عن عيسى بن أبي عيسى عن الشعبي : أن أبا الأسود الدؤلي وعمران لما دخلا على عائشة قالا لها ما الذي أقدمك هذا البلد وأنت حبيسة

[275]

رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقد أمرك الله أن تقري في بيتك.

فقالت : غضبت لكم من السوط والعصا ولا أغضب لعثمان من السيف.

فقالا لها : ننشدك الله أن تهراق الدماء بسببك وأن تحملي الناس بعضهم على بعض.

فقالت لهما : إنما جئت لأصلح بين الناس.

و قالت لعمران بن الحصين : هل أنت مبلغ عثمان بن حنيف رسالة ؟

فقال : لا أبلغه عنك إلا خيرا.

فقال لها أبو الأسود : أنا أبلغه عنك , فهاتي.

قالت , قل له : يا طليق ابن أبي عامر بلغني أنك تريد لقائي لتقاتلني.

فقال لها أبو الأسود : نعم , والله ليقاتلنك.

فقالت : وأنت أيضا أيها الدؤلي , يبلغني عنك ما يبلغني ; قم فانصرف عني.

فخرجا من عندها إلى طلحة , فقالا له : يا أبا محمد , أ لم يجتمع الناس إلى بيعة ابن عم رسول الله الذي فضله الله تعالى كذا وكذا , وجعلا يعدان مناقب أمير المؤمنين (عليه السلام) وفضائله وحقوقه.

فوقع طلحة بعلي (عليه السلام) وسبه ونال منه , وقال : إنه ليس أحد مثله أم والله ليعلمن غب ذلك.

فخرجا من عنده وهما يقولان : غضب هذا الدنيء.

ثم دخلا على الزبير فكلماه مثل كلامهما لصاحبه ; فوقع أيضا في علي (عليه السلام) وسبه , وقال لقوم كانوا بمحضر منه : صبحوهم قبل أن يمسوكم.

فخرجا من عنده حتى صارا إلى عثمان بن حنيف فأخبراه الخبر ; فأذن عثمان للناس بالحرب.

[276]

فصل ; كتاب عائشة إلى حفصة وفرح حفصة به :

و لما بلغ عائشة نزول أمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار كتبت إلى حفصة بنت عمر أما بعد فإنا نزلنا البصرة ونزل علي بذي قار والله دق عنقه كدق البيضة على الصفا إنه بذي قار بمنزلة الأشقر إن تقدم نحر وإن تأخر عقر فلما وصل الكتاب إلى حفصة استبشرت بذلك ودعت صبيان بني تيم وعدي وأعطت جواريها دفوفا وأمرتهن أن يضربن بالدفوف ويقلن ما الخبر ما الخبر علي كالأشقر إن تقدم نحر وإن تأخر عقر.

فبلغ أم سلمة رضي الله عنها اجتماع النسوة على ما اجتمعن عليه من سب أمير المؤمنين (عليه السلام) والمسرة بالكتاب الوارد عليهن من عائشة , فبكت وقالت : أعطوني ثيابي حتى أخرج إليهن وأقع بهن.

فقالت أم كلثوم بنت أمير المؤمنين (عليه السلام) : أنا أنوب عنك فإنني أعرف منك فلبست ثيابها وتنكرت وتخفرت واستصحبت جواريها متخفرات وجاءت حتى دخلت عليهن كأنها من

[277]

النظارة فلما رأت ما هن فيه من العبث والسفه كشفت نقابها وأبرزت لهن وجهها ; ثم قالت لحفصة : إن تظاهرت أنت وأختك على أمير المؤمنين (عليه السلام) فقد تظاهرتما على أخيه رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) من قبل فأنزل الله عز وجل فيكما ما أنزل , والله من وراء حربكما.

فانكسرت حفصة وأظهرت خجلا , وقالت : إنهن فعلن هذا بجهل وفرقتهن في الحال ; فانصرفن من المكان.

[278]

خطبة عائشة بالمربد :

و لما بلغ عائشة رأي ابن حنيف في القتال ركبت الجمل وأحاط بها القوم وسارت حتى وقفت بالمربد واجتمع إليها الناس حتى امتلأ المربد بهم فقالت وهي على الجمل :

صه , صه.

فسكت الناس وأصغوا إليها ; فحمدت الله وقالت : أما بعد فإن عثمان بن عفان قد كان غير وبدل فلم يزل يغسله بالتوبة حتى صار كالذهب المصفى فعدوا عليه وقتلوه في داره وقتلوا أناسا معه في داره ظلما وعدوانا ثم آثروا عليا فبايعوه من غير ملأ من الناس ولا شورى ولا اختيار فابتز والله أمرهم وكان المبايع له يقول خذها إليك واحذرن أبا حسن إنا غضبنا

[279]

لكم على عثمان من السوط فكيف لا نغضب لعثمان من السيف ألا إن الأمر لا يصح حتى يرد الأمر إلى ما صنع عمر من الشورى فلا يدخل فيه أحد سفك دم عثمان.

فقال بعض الناس : صدقت ; وقال بعض الناس : كذبت. واضطربوا بالنعال وتركتهم وسارت حتى أتت الدباغين وقد تميز الناس بعضهم مع طلحة والزبير وعائشة ; وبعضهم متمسك ببيعة أمير المؤمنين والرضا به.

فسارت من موضعها ومن معها واتبعها على رأيها طلحة والزبير ومروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير حتى أتوا دار الإمارة ; فسألوا عثمان بن حنيف الخروج عنها , فأبى عليهم ذلك.

و اجتمع إليه أنصاره وزمرة من أهل البصرة فاقتتلوا قتالا شديدا حتى زالت الشمس وأصيب يومئذ من عبد القيس خاصة خمسمائة شيخ مخضوب من أصحاب عثمان بن حنيف وشيعة أمير المؤمنين سوى من أصيب من سائر الناس وبلغ الحرب بينهم بالتزاحف إلى مقبرة بني مازن ثم خرجوا على مسناة البصرة حتى انتهوا إلى الزابوقة وهي ساحة دار الرزق فاقتتلوا قتالا شديدا كثر فيه القتلى والجرحى من الفريقين ثم إنهم تداعوا إلى الصلح ودخل بينهم الناس لما

[280]

رأوا من عظيم ما ابتلوا به فتصالحوا على أن لعثمان بن حنيف دار الإمارة والمسجد وبيت المال ولطلحة والزبير وعائشة ما شاءوا من البصرة ولا يحاجون حتى يقدم أمير المؤمنين (عليه السلام) فإن أحبوا عند ذلك الدخول في طاعته وإن أحبوا أن يقاتلوا وكتبوا بذلك كتابا بينهم وأوثقوا فيه العهود وأكدوها وأشهدوا الناس على ذلك ووضع السلاح وأمن عثمان بن حنيف على نفسه وتفرق الناس عنه.

[281]

قتل الناكثين حراس بيت المال :

و طلب طلحة والزبير غدرته حتى كانت ليلة مظلمة ذات رياح فخرج طلحة والزبير وأصحابهما حتى أتوا دار الإمارة وعثمان بن حنيف غافل عنهم وعلى الباب السبابجة يحرسون بيوت الأموال وكانوا قوما من الزط قد استبصروا وأكل السجود جباحهم وائتمنهم عثمان على بيت المال ودار الإمارة فأكب عليهم القوم وأخذوهم من أربع جوانبهم ووضعوا فيهم السيف فقتلوا منهم أربعين رجلا صبرا يتولى منهم ذلك الزبير خاصة ثم هجموا على عثمان فأوثقوه رباطا وعمدوا إلى لحيته وكان شيخا كث اللحية فنتفوها حتى لم يبق منها شيء ولا شعرة واحدة.

و قال طلحة : عذبوا الفاسق وانتفوا شعر حاجبيه وأشفار عينيه وأوثقوه بالحديد.

فلما أصبحوا اجتمع الناس إليهم وأذن مؤذن المسجد لصلاة الغداة فرام طلحة أن يتقدم للصلاة بهم فدفعه الزبير وأراد أن يصلي بهم فمنعه طلحة فما زالا يتدافعان حتى كادت الشمس أن تطلع فنادى أهل البصرة الله الله يا أصحاب

[282]

رسول الله في الصلاة نخاف فوتها.

فقالت عائشة : مروا أن يصلي بالناس غيرهما.

فقال لهم يعلى بن منية : يصلي عبد الله بن الزبير يوما ومحمد بن طلحة يوما حتى يتفق الناس على أمير يرضونه.

فتقدم ابن الزبير وصلى بهم ذلك اليوم.

[283]

نهضة حكيم بن جبلة العبدي :

و بلغ حكيم بن جبلة العبدي ما صنع القوم بعثمان بن حنيف وقتلهم السبابجة الصالحين خزان بيت مال المسلمين ; فنادى في قومه :

يا قوم انفروا إلى هؤلاء الضالين الظالمين الذين سفكوا الدم الحرام وقتلوا العباد الصالحين واستحلوا ما حرم الله تعالى.

فأجابه سبعمائة رجل من عبد القيس ; فأتوا المسجد واجتمع الناس إلى حكيم بن جبلة ; فقال لهم :

أ ما ترون ما صنعوا بأخي عثمان بن حنيف ما صنعوا , لست بأخيه إن لم أنصره.

ثم رفع يديه إلى السماء وقال : اللهم إن طلحة والزبير لم يريدا بما عملا القربة منك وما أرادا إلا الدنيا ; اللهم اقتلهما بمن قتلا ولا تعطهما ما أملا.

ثم ركب فرسه وأخذ بيده الرمح واتبعه أصحابه وأقبل طلحة والزبير ومن معهما وهم كثرة من الناس قد انضم إليهم الجمهور فاقتتلوا قتالا شديدا حتى كثرت بينهم القتلى والجرحى.

و برز إلى حكيم بن جبلة رجل من القوم فضربه بالسيف فقطع رجله فتناولها حكيم بيده ورماه بها فصرعه ثم صار إلى حكيم أخوه المعروف بالأشرف فقال من أصابك فأشار إلى الذي ضربه فأدركه الأشرف

[284]

فخبطه بالسيف حتى قتله وتكاثر الناس عليه وعلى أخيه حتى قتلوهما وتفرق الناس.

و رجع طلحة والزبير فنزلا دار الإمارة وغلبا على بيت المال ; فتقدمت عائشة بحمل مال منه لتفرقه في أنصارها ودخله طلحة والزبير في طائفة من أنصارهما واحتملا منه شيئا كثيرا فلما خرجا نصبا على أبوابه الأقفال ووكلا به من قبلهما قوما فأمرت عائشة بختمه فبرز لذلك طلحة ليختمه فمنعه الزبير وأراد أن يختمه الزبير دونه فتدافعا فبلغ عائشة ذلك فقالت يختمانه ويختم عني ابن أختي عبد الله بن الزبير.

فختم يومئذ بثلاثة ختوم.

ثم قال طلحة والزبير لعائشة ما تأمرين في عثمان فإنه لما به ؟

فقالت : اقتلوه قتله الله.

و كانت عندها امرأة من أهل البصرة , فقالت لها : يا أماه أين يذهب بك ؟ أ تأمرين بقتل عثمان بن حنيف وأخوه سهل خليفة على المدينة ومكانه من الأوس والخزرج ما قد علمت ; والله لئن فعلت ذلك لتكونن له صولة بالمدينة يقتل فيها ذراري قريش.

فناب إلى عائشة رأيها وقالت : لا تقتلوه ولكن احبسوه وضيقوا عليه حتى أرى رأيي.

فحبس أياما ثم بدا لهم في حبسه وخافوا من أخيه أن يحبس مشايخهم بالمدينة ويوقع بهم فتركوا حبسه.

[285]

مجيء عثمان بن حنيف إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

فخرج ابن حنيف حتى أتى أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو بذي قار , فلما نظر إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) وقد نكل به القوم بكى وقال : يا عثمان بعثتك شيخا ألحى فردوك أمرد إلي , اللهم إنك تعلم أنهم اجترءوا عليك واستحلوا حرماتك , اللهم اقتلهم بمن قتلوا من شيعتي وعجل لهم النقمة بما صنعوا بخليفتي.

أمير المؤمنين (عليه السلام) في بيت المال :

و لما خرج عثمان بن حنيف من البصرة وعاد طلحة والزبير إلى بيت المال فتأملا ما فيه فلما رأوا ما حواه من الذهب والفضة قالوا هذه الغنائم التي وعدنا الله بها وأخبرنا أنه يعجلها لنا.

قال أبو الأسود فقد سمعت هذا منهما.

و رأيت عليا (عليه السلام) بعد ذلك وقد دخل بيت مال البصرة فلما رأى ما فيه قال : يا صفراء ويا بيضاء غري غيري , المال يعسوب الظلمة , وأنا يعسوب المؤمنين.

[286]

فلا والله ما التفت إلى ما فيه ولا فكر فيما رآه منه , وما وجدته عنده إلا كالتراب هوانا ; فعجبت من القوم ومنه (عليه السلام) فقلت :

أولئك ممن يريد الدنيا وهذا ممن يريد الآخرة ; وقويت بصيرتي فيه.

[287]

اعتراض ابن الزبير على أبيه :

و لما استقر الأمر عند القوم بعد خروج عثمان بن حنيف وعلم طلحة والزبير وعائشة أن أمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار ينتظر الجموع وأنه لا يصبر على ما فعلوه بصاحبه والمسلمين أمرت عائشة الزبير أن يستنفر الناس إليه فخطبهم الزبير وأمرهم بالجد والاجتهاد وقال لهم إن عدوكم قد أظلكم والله لئن ظفر بكم لا ترك لكم عينا تطرف فانهضوا إليه حتى نكبس عليه قبل أن تلحقه أنصاره ; وقال لهم : امضوا فخذوا أعطيتكم.

فلما رجع إلى منزله , قال له ابنه عبد الله : أمرت الناس أن يأخذوا أعطيتهم ليتفرقوا بالمال قبل أن يأتي علي بن أبي طالب فتضعف ; بئس الرأي الذي رأيت.

فقال له الزبير : اسكت ويلك ما كان غير الذي قلت.

فقال له طلحة : صدق عبد الله وما ينبغي أن يسلم هذا المال حتى يقرب منا علي فنضعه في مواضعه فيمن يدفعه عنا.

فغضب الزبير وقال والله لو لم يبق إلا درهم واحد لأعطيته.

فلامته عائشة على ذلك ووافق رأيها رأي الرجلين.

فقال الزبير : لتدعوني أو لألحقن بمعاوية فقد بايع بالشام الناس فأمسكوا عنه.

[288]

تردد الزبير في حرب أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و روى داود بن أبي هند عن أبي عمرة مولى الزبير : أن الزبير قال يومئذ أ لا ألف فارس أ لا خمسمائة فارس ينهضون معي الساعة لأسير بهم إلى علي بن أبي طالب فإما أن أبيته بياتا أو أصحبه صباحا لعلي أقتله قبل أن يأتيه مدده.

فلم يخف معه أحد.

فاغتاظ لذلك , وقال : هذه والله الفتنة التي كنا نحدث بها.

فقال له مولاه أبو عمرة : رحمك الله يا أبا عبد الله تسميها فتنة ثم ترى القتال فيها.

فقال ويحك : إنا نبصر ولكن لا نصبر.

ثم قال بعد ذلك بيوم أو يومين : والله ما كان أمر قط إلا علمت أين أضع قدمي فيه إلا هذا الأمر فإني لم أدر أنا فيه مقبل أو مدبر.

فقال له ابنه عبد الله : والله ما بك هذا , وإنا لنتعامى , فما يحملك على هذا القول ; إلا أنك أحسست برايات علي بن أبي طالب قد أظلت , وعلمت أن الموت الناقع تحتها.

فقال له : اعزب ويحك فإنك لا علم لك بالأمور.

[289]

و روى الحارث بن الفضل عن أبي عبد الله الأغر : أن الزبير بن العوام قال لابنه يومئذ ويلك لا تدعنا على حال أنت والله قطعت بيننا وفرقت ألفتنا بما بليت به من هذا المسير وما كنت مباليا من ولي هذا الأمر وقام به والله لا يقوم أحد من الناس إلا من قام مقام عمر بن الخطاب فيهم فمن ذا يقوم مقام عمر بن الخطاب فإن سرنا بسيرة عثمان قتلنا فما أصنع بهذا المسير وضرب الناس بعضهم ببعض فقال له عبد الله ابنه أ فتدع عليا يستولي على الأمر وأنت تعلم أنه كان أحسن أهل الشورى عند عمر بن الخطاب ولقد أشار عمر وهو مطعون يقول لأهل الشورى ويلكم أطعموا عليا فيها لا يفتق في الإسلام فتقا عظيما ومنوه حتى تجمعوا على رجل سواه.

و لما صار عثمان بن حنيف إلى ذي قار أقام بها مع أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو مريض يعالج حتى ورد على أمير المؤمنين (عليه السلام) أهل الكوفة.

[290]

فصل ; مفاوضات كليب مع أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و روى الواقدي عن شيبان بن عبد الرحمن عن عاصم بن كليب عن أبيه قال : لما قتل عثمان ما لبثنا إلا قليلا حتى قدم طلحة والزبير البصرة ثم ما لبثنا بعد ذلك إلا يسيرا حتى أقبل علي بن أبي طالب (عليه السلام) فنزل بذي قار.

فقال شيخان من الحي اذهب بنا إلى هذا الرجل فننظر ما يدعو إليه ؟

فلما أتينا ذا قار قدمنا على أذكى العرب , فو الله لدخل على نسب قومي فجعلت أقول هو أعلم به مني وأطوع فيهم.

فقال : من سيد بني راسب ؟

فقلت : فلان.

قال : فمن سيد بني قدامة ؟

قلت : فلان , لرجل آخر.

فقال : أنت مبلغهما كتابين مني ؟

قلت : نعم.

قال : أ فلا تبايعوني ؟

فبايعه الشيخان اللذان كانا معي , وتوقفت عن بيعته.

فجعل رجال عنده قد أكل السجود وجوههم يقولون : بايع , بايع.

فقال (عليه السلام) : دعوا الرجل.

فقلت : إنما بعثني قومي رائدا وسأنهي إليهم ما رأيت فإن بايعوا بايعت وإن اعتزلوا اعتزلت.

فقال لي : أ رأيت لو أن قومك بعثوك رائدا

[291]

فرأيت روضة وغديرا , فقلت : يا قومي , النجعة , النجعة , فأبوا ; ما كنت بمستنجح بنفسك ؟

فأخذت بإصبع من أصابعه وقلت أبايعك على أن أطيعك ما أطعت الله فإذا عصيته فلا طاعة لك علينا.

فقال :نعم وطول بها صوته فضربت على يده.

ثم التفت إلى محمد بن حاطب وكان في ناحية القوم فقال إذا انطلقت إلى قومك فأبلغهم كتبي وقولي.

فتحول إليه محمد حتى جلس بين يديه , وقال : إن قومي إذا أتيتهم يقولون ما يقول صاحبك في عثمان ؟

فسب عثمان الذين حوله.

فرأيت عليا قد كره ذلك , حتى رشح جبينه ; وقال : أيها القوم كفوا , ما إياكم يسأل.

قال :فلم أبرح عن العسكر حتى قدم على علي (عليه السلام) أهل الكوفة فجعلوا يقولون نرى إخواننا من أهل البصرة يقاتلوننا وجعلوا يضحكون ويعجبون ويقولون والله لو التقينا لتعاطينا الحق كأنهم يرون أنهم لا يقتتلون.

و خرجت بكتابي علي (عليه السلام) فأتيت أحد الرجلين فقبل الكتاب وأجابه ودللت على الآخر وكان متواريا فلو أنهم قالوا له كليب ما أذن لي ; فدخلت عليه ودفعت الكتاب إليه وقلت هذا كتاب علي وأخبرته الخبر وقلت إني أخبرت عليا أنك سيد قومك ; فأبى أن يقبل الكتاب ولم يجبه إلى ما سأله وقال لا حاجة لي اليوم في

[292]

السؤدد فو الله إني لبالبصرة ما رجعت إلى علي حتى نزل العسكر ورأيت القوم الذين مع علي (عليه السلام) فطلع القوم.

[293]

إخبار أمير المؤمنين (عليه السلام) بعدد من يأتيه من الكوفة :

و روى نصر عن عمر بن سعد عن الأجلح عن زيد بن علي قال : لما أبطأ على علي (عليه السلام) خبر أهل البصرة ونحن في قلة.

فقال عبد الله بن عباس رضي الله عنه فأخبرت عليا بذلك فقال لي : اسكت يا ابن عباس فو الله لتأتينا في هذين اليومين من الكوفة ستة آلاف وستمائة رجل وليغلبن أهل البصرة وليقتلن طلحة والزبير.

قال فو الله إني لأتشوف الأخبار وأستقبلها حتى إذا أنا براكب فاستقبلته واستخبرته فأخبرني بالعدة التي سمعتها من علي (عليه السلام) لم تنقص رجلا واحدا.

و روى إسماعيل بن عبد الملك عن يحيى بن شبل عن أبي جعفر محمد بن علي (عليه السلام) قال : سار علي (عليه السلام) من ذي قار إلى البصرة حتى نزل بالخريبة في

[294]

اثني عشر ألف رجل على الميمنة عمار بن ياسر في ألف رجل وعلى الميسرة مالك الأشتر في ألف رجل ومعه في نفسه عشرة آلاف رجل وخرج إليه من البصرة ألفا رجل خرجت إليه ربيعة كلها إلا مالك بن مسمع منها وجاءته عبد القيس بأجمعها سوى رجل واحد تخلف عنها وجاءته بنو بكر رأسهم شقيق بن ثور السدوسي ورأس عبد القيس عمرو بن جرموز العبدي وأتاه المهلب بن أبي صفرة فيمن تبعه من الأزد.

[295]

موقف الأحنف :

و بعث إليه الأحنف بن قيس رسولا يقول له إني مقيم على طاعتك في قومي فإن شئت أتيتك في مائتين من أهل بيتي فعلت فإن شئت حبست عنك أربعة آلاف سيف من بني سعد.

فبعث إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) : بل احبس وكف.

فجمع الأحنف قومه , فقال : يا بني سعد كفوا عن هذه الفتنة واقعدوا في بيوتكم فإن ظهر أهل البصرة فهم إخوانكم لم يهيجوكم وإن ظهر علي (عليه السلام) سلمتم.

فكفوا وتركوا القتال.

و أقبل هلال بن وكيع الحنظلي إلى الأحنف بن قيس حين بلغه ذلك , فقال : ما يقول سيدنا في هذا الأمر ؟

فقال الأحنف : إنما أكون سيدكم غدا إذا قتلت وبقيت أنا.

فقال هلال : بل أنت سيدنا اليوم وشيخنا.

فقال الأحنف : أنا شيخكم المعصي , وأنت الشاب المطاع , اقعد في بيتك ولا تخرج مع طلحة والزبير.

فأبى أن يرضى , ثم دعا تميما كلهم فتابعوه إلا نفر منهم.

فبلغ طلحة والزبير ما فعله الأحنف وقاله ; فبعثا إليه يستميلانه ويرومان أن يدخل في طاعتهما.

فقال اختاروا مني إحدى ثلاث خصال : أما أن أقيم في بيتي وأكف بنفسي ولا أكون معكما ولا عليكما ; وأما أن ألحق بعلي بن أبي طالب ; وأما أن آتي إلى الأهواز فأقيم بها.

[296]

فقالا :ننظر في ذلك ثم استشارا من حضرهما فقالوا لهما : أما علي فعدوكم ولا حظ في أن يكون معه الأحنف ; وأما الأهواز فإنه إن أتاها يلحق به كل من لا يريد القتال معكما ; ولكن فليكن قريبا منكما فإن تحرك وطأتماه على صماخه فأمراه بالقعود.

فأتى وادي السباع وأقام به.

و لما جاء رسول الأحنف وقد قدم على علي (عليه السلام) بما بذل له من كف قومه عنه.

قال رجل : يا أمير المؤمنين من هذا ؟

قال : هذا أدهى العرب وخيرهم لقومه.

فقال علي (عليه السلام) : كذلك هو وإني لأمثل بينه وبين المغيرة بن شعبة لزم الطائف فأقام بها ينتظر على من تستقيم الأمة.

فقال الرجل : إني لأحسب أن الأحنف لأسرع إلى ما تحب من المغيرة.

فقال (عليه السلام) : أجل ما يبالي المغيرة أي لواء رفع لواء ضلالة أو لواء هدى.

[297]

و روى الواقدي قال حدثني معمر بن راشد عن عمرو بن عبيد عن الحسن البصري قال : أقبل أبو بكرة يريد أن يدخل مع طلحة والزبير في أمرهما فلما رأى عائشة تدبره برأيها رجع عنهما ; فقيل له : ما لك لم تدخل معهما ؟

فقال : رأيت امرأة تدبر أمورهم.

و قد سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول وقد ذكر ملكة سبإ : لا أفلح قوم تدبرهم امرأة.

فكرهت الدخول معهم.

و روى عبد الله بن عطاء عن عبد الرحمن بن أبي بكرة قال اعتزل أبي أن يدخل مع عائشة وقال : إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول لا يفلح قوم تلي أمرهم امرأة.

[299]

فصل ; كتاب عائشة إلى أهل المدينة :

و روى الواقدي عن رجاله قال : لما أفرج القوم عن عثمان بن حنيف لما خافوه من أخيه سهل بن حنيف كتبت عائشة إلى أهل المدينة بسم الله الرحمن الرحيم من أم المؤمنين عائشة زوجة النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وابنة الصديق إلى أهل المدينة أما بعد فإن الله أظهر الحق ونصر طالبيه وقد قال الله عز اسمه بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْباطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذا هُوَ زاهِقٌ فاتقوا الله عباد الله واسمعوا وأطيعوا واعتصموا بحبل الله جميعا وعروة الحق ولا تجعلوا على أنفسكم سبيلا فإن الله قد جمع كلمة أهل البصرة وأمروا عليهم الزبير بن العوام فهو أمير الجنود والكافة يجتمعون على السمع والطاعة له فإذا اجتمعت كلمة المؤمنين على أمرائهم عن ملأ منهم

[300]

و تشاور فإنا ندخل في صالح ما دخلوا فيه فإذا جاءكم كتابي هذا فاسمعوا وأطيعوا وأعينوا على ما سمعتم عليه من أمر الله وكتب عبيد الله بن كعب لخمس ليال من شهر ربيع الأول سنة ست وثلاثين.

[301]

كتاب عائشة إلى أهل اليمامة :

و كتبت إلى أهل اليمامة وأهل تلك النواحي أما بعد فإني أذكركم الله الذي أنعم عليكم وألزمكم بالإسلام فإن الله يقول ما أَصابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِي الْأَرْضِ ولا فِي أَنْفُسِكُمْ إِلَّا فِي كِتابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَها إِنَّ ذلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ فاعتصموا عباد الله بحبله وكونوا مع كتابه فإن أمكم ناصحة لكم فيما تدعوكم إليه من الغضب له والجهاد لمن قتل خليفة حرمه وابتز المسلمين أمرهم وقد أظهر الله عليه وإن ابن حنيف الضال المضل كان بالبصرة يدعو المسلمين إلى سبيل النار وإنا أقبلنا إليها ندعو المسلمين إلى كتاب الله وأن يضعوا بينهم القرآن فيكون ذلك رضى لهم وأجمع لأمرهم وكان ذلك لله عز وجل على المسلمين فيه الطاعة فإما أن ندرك به حاجتنا أو نبلغ عذرا.

فلما دنونا إلى البصرة وسمع بنا ابن حنيف جمع لنا الجموع وأمرهم أن يلقونا بالسلاح فيقاتلونا ويطردونا وشهدوا علينا بالكفر وقالوا فينا المنكر فأكذبهم المسلمون وأنكروا عليهم وقالوا لعثمان بن حنيف ويحك إنما تابعنا زوج النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأم المؤمنين وأصحاب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وأئمة المسلمين فتمادى في غيه وأقام على أمره فلما رأى المسلمون أنه قد عصاهم ورد عليهم أمرهم غضبوا لله عز وجل ولأم المؤمنين ولم نشعر به حتى أظلنا في ثلاثة آلاف

[302]

من جهلة العرب وسفهائهم وصفهم دون المسجد بالسلاح فالتمسنا أن يبايعوا على الحق ولا يحولوا بيننا وبين المسجد فرد علينا ذلك كله حتى إذا كان يوم الجمعة وتفرق الناس بعد الصلاة عنه دخل طلحة والزبير ومعهما المسلمون وفتحوه عنوة وقدموا عبد الله بن الزبير للصلاة بالناس وإنا نخاف من عثمان وأصحابه أن يأتونا بغتة ليصيبوا منا غره فلما رأى المسلمون أنهم لا يبرحون تحرزوا لأنفسهم ولم يخرج ومن معه حتى هجموا علينا وبلغوا سدة بيتي ومعهم هاد يدلهم علي ليسفكوا دمي فوجدوا نفرا على باب بيتي فردوهم عني وكان حولي نفر من القرشيين والأزديين يدفعونهم عني فقتل منهم من قتل وانهزموا فلم نعترض لبقيتهم وخلينا ابن حنيف منا عليه وقد توجه إلى صاحبه وعرفناكم ذلك عباد الله لتكونوا على ما كنتم عليه من النية في نصرة دين الله والغضب للخليفة المظلوم.

و روى الواقدي عن عبد السلام بن حفص قال حدثني المنهال بن عمرو بن سلامة البصري قال : لما بدا لطلحة والزبير في حبس عثمان بن حنيف وأشفقا من

[303]

أخيه سهل بن حنيف على مخلفيهم في المدينة أطلقوه فتوجه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو بذي قار.

[304]

خطبة طلحة :

فلما عرفا خروجه إليه قام طلحة في الناس خطيبا فنعى إليهم عثمان بن عفان وذكر قاتليه وأكثر الذم عليهم والشتم وعزا قتله إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) وأنصاره وذكر أن عليا أكره الناس على البيعة له ; فقال فيما قال :

يا معشر المسلمين إن الله قد جاءكم بأم المؤمنين وقد عرفتم بحقها ومكانها من النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ومكان أبيها من الإسلام وها هي تشهد لنا إنا لم نكذبكم فيما خبرناكم به ولا غررناكم فيما دعوناكم إليه من قتال علي بن أبي طالب وأصحابه الصادين عن الحق ولسنا نطلب خلافة ولا ملكا وإنا نحذركم أن تغلبوا على أمركم وتقصروا دون الحق وقد رجونا أن يكون عندكم عون لنا على طاعة الله وإصلاح الأمة فإن أحق من عناه أمر المسلمين ومصلحتهم أنتم يا أهل البصرة لتمكنكم بالدين وإن عليا لو عمل الجد في نصرة أمكم لاعتزل هذا الأمر حتى تختار الأمة لأنفسها من ترضاه.

فقال أهل البصرة : مرحبا وأهلا وسهلا بأم المؤمنين والحمد لله على إكرامنا بها وأنتم عندنا رضا وثقة وأنفسنا مبذولة لكم ونحن نموت على طاعتكم ورضاكم ثم

[305]

انصرفوا ; فساروا إلى عائشة فسلموا عليها وقالوا قد علمنا أن أمنا لم تخرج إلينا إلا لثقتها بنا وأنها تريد الإصلاح وحقن الدماء وإطفاء الفتنة والألفة بين المسلمين وإنا ننتظر أمرها في ذلك فإن أبى عليها أحد فيه قاتلناه حتى يفيء إلى الحق .

اعتراض عبد الله بن حكيم التميمي على طلحة :

و بلغ كلام طلحة مع أهل البصرة إلى عبد الله بن حكيم التميمي فصار إليه وقال له يا طلحة هذه كتبك وصلت إلينا بعيب عثمان بن عفان وخبرك عندنا بالتأليب عليه حتى قتل وببيعتك عليا في جماعة الناس وبنكثك بيعته من غير حدث كان منه فما كلام بلغنا عنك وفيم جئت بعد الذي عرفناه من رأيك في عثمان ؟

فقال له طلحة : أما عيبي لعثمان وتأليبي عليه فقد كان ولم نجد لنا من الخلاص منه سبيلا إلا التوبة فيما اقترفناه من الجرم به وإلا الطلب بدمه ; وأما بيعتي له فإني أكرهت على ذلك وخشيت منه أن يؤلب علي إن امتنعت من بيعته ويغري بي فيمن أغراه بعثمان حتى قتله.

فقال له عبد الله بن حكيم : هذه معاذير يعلم الله باطن الأمر فيها وهو المستعان على ما نخاف من عاقبة أمرها.

[306]

خطبة أخرى لطلحة :

و روى عبد الله بن عبيدة قال : لما كان من كلام عبد الله بن حكيم لطلحة ما كان قام طلحة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس إن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) توفي وهو عنا راض وكنا مع أبي بكر حتى توفاه الله فمات وهو عنا راض ; ثم كان عمر بن الخطاب فسمعنا وأطعنا حتى قبض وهو عنا راض ; فأمرنا بالتشاور في أمر الخلافة من بعده واختار ستة نفر ورضيهم للأمر فاستقام أمرنا على رجل من الستة ولييناه واجتمع رأينا عليه وهو عثمان وكان أهلا لذلك فبايعناه وسمعنا له وأطعناه , فأحدث بعد ذلك أحداثا لم تكن على عهد أبي بكر وعمر فكرهها الناس منه ولم يكن لنا بد مما صنعناه ; ثم أخذ هذا الرجل الأمر دوننا من غير مشورتنا وتغلب عليه ونحن وهو فيه شرع سواء فأتي بنا إليه ونحن أكره الناس إليه واللج على أعناقنا , فبايعناه كرها والذي نطلب أيها الناس الآن منه أن يدفع إلى ورثة عثمان قاتليه ; فإنه قتل مظلوما , ويخلع هذا الأمر

ويعتزله ليتشاور المسلمون فيمن يكون لهم إماما كسنة عمر بن الخطاب في الشورى ; فإذا استقام رأينا ورأي أهل الإسلام على رجل بايعناه.

[307]

اعتراض الناس على طلحة :

فلما فرغ من كلامه قام عظيم من عظماء عبد القيس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أيها الناس إنه قد كان وأل هذا الأمر وقوامه المهاجرين والأنصار بالمدينة ولم يكن لأحد من أهل الأمصار أن ينقضوا ما أبرموا ولا يبرموا ما نقضوا فكانوا إذا رأوا رأيا كتبوا به إلى الأمصار فسمعوا لهم وأطاعوا وإن عائشة وطلحة والزبير كانوا أشد الناس على عثمان حتى قتل وبايع الناس عليا وبايعه في جملتهم طلحة والزبير فجاءنا نبأهما لبيعتهما له فبايعناه فلا والله ما نخلع خليفتنا ولا ننقض بيعتنا فصاح عليه طلحة والزبير وأمرا بقرض لحيته فنتفوها حتى لم يبق منها شيء.

و قام رجل من بني جشم فقال :

أيها الناس أنا فلان بن فلان فاعرفوني وإنما انتسب لهم ليعلموا أن له عشيرة تمنعه فلا يعجل عليه من لا يوافقه كلامه ثم قال أيها الناس إن هؤلاء القوم إن كانوا جاءوكم يطلبون بدم عثمان فو الله ما نحن قتلنا عثمان وإن كانوا جاءوكم خائفين فو الله ما جاءوا إلا من حيث يأمن الناس والطير فلا تغتروا بهم واسمعوا قولي وأطيعوا أمري وردوا هؤلاء القوم إلى مكانهم الذي منه أقبلوا وأقيموا على بيعتكم لإمامكم وأطيعوا لأميركم.

فصاح عليه الناس من جوانب المسجد وقذفوه بالحصى.

ثم قام رجل آخر من متقدمي عبد القيس فقال :

أيها الناس أنصتوا أتكلم لكم.

فقال له عبد الله بن الزبير : ويلك ما لك وللكلام ؟

فقال : ما لي وله , أنا

[308]

و الله للكلام وبه وفيه ; ثم حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه وقال :

يا معاشر المهاجرين كنتم أول الناس إسلاما بعث الله محمدا نبيه بينكم فدعاكم فأسلمتم وأسلمنا لإسلامكم فكنتم فيه القادة ونحن لكم تبع ; ثم توفي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فبايعتم رجلا منكم لم تستأذنونا في ذلك فسلمنا لكم ; ثم إن ذلك الرجل توفي واستخلف عمر بن الخطاب , فو الله ما استشارنا في ذلك فلما رضيتم رضينا وسلمنا ; ثم إن عمر جعلها شورى في

ستة نفر فاخترتم منهم واحدا فسلمنا لكم واتبعناكم , ثم إن الرجل أحدث أحداثا أنكرتموها فحصرتموه وخلعتموه وقتلتموه وما استشرتمونا في ذلك ثم بايعتم علي بن أبي طالب وما استشرتمونا في بيعته فرضينا وسلمنا وكنا لكم تبعا.

فو الله ما ندري بما ذا نقمتم عليه ؟ هل استأثر بمال ؟ أو حكم بغير ما أنزل الله ؟ أو أحدث حدثا منكرا ؟ فحدثونا به نكن معكم , فو الله ما نراكم إلا قد ضللتم بخلافكم له.

فقال له ابن الزبير : ما أنت وذاك ؟ وأراد أهل البصرة أن يثبوا عليه فمنعتهم عشيرته.

[309]

فصل ; خطبة عائشة :

و روى محمد بن عمر الواقدي عن موسى بن طلحة قال : لقد شهدت عائشة يوم الجمل وقد سألها الناس عن عثمان فما رأيت أفصح منها لسانا ولا أربط منها جنانا فاستجلست الناس بيديها ثم حمدت الله وأثنت عليه وقالت :

أيها الناس إنا نقمنا على عثمان خصالا ثلاثا إمارة بالغنى وضربه بالسوط ورفعه موضع الغمامة المحماة حتى إذا عتبنا منهن ماصوه موص الماء بالصابون ثم عدوا

[310]

عليه فاستحلوا منه الحرمات الثلاث حرمة الشهر الحرام وحرمة البلد الحرام وحرمة الخلافة والله لعثمان كان أتقاهم للرب وأوصلهم للرحم وأحصنهم للفرج أقول قولي هذا وأستغفر الله لي ولكم.

و روى إسرائيل بن يونس عن أبي إسحاق الهمداني قال : جاء جليد بن زهير الجشمي وعبد الله بن عامر التميمي فدخلا على عائشة فسلما عليها , فقالت : من هذان الرجلان ؟

فقيل لها : هذا جليد بن زهير صاحب خراسان , وهذا عبد الله بن عامر التميمي.

فقالت : هما معنا أم علينا ؟

فقالا : لا معك ولا عليك ; حتى يستبين لنا الأمر.

فقالت : كفى بالاعتزال نصرة.

و روى عمر بن صباح قال : اجتمع نفر من وجوه البصرة إلى طلحة والزبير فقالوا لهما فإن ولاة عثمان غيركما فدعوا ولاته يطلبون بدمه , والله ما نراكما أنصفتما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في حبيسته عرضتماها للرياح والشموس والقتال ; وقد أمرها الله أن تقر في بيتها , وتركتما نساءكما في الأكنان والبيوت , هلا جئتما بنسائكما معكما ؟

فقال لهم طلحة : اعزبوا عنا , قبحكم الله.

اعتراض عمران بن حصين على عائشة :

و جاء عمران بن حصين إلى عائشة فقال لها :

قد كان لك يا عائشة في إخوتك

[311]

عبرة وفي أمثالك من أمهات المؤمنين أسوة ; أ ما سمعت الله عز وجل يقول وقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ فلو اتبعت أمر الله كان خيرا لك.

فقالت له : يا عمران قد كان ما كان , فهل عندك عون لنا ؟ وإلا فاحبس عنا لسانك.

قال : أعتزلك وأعتزل عليا.

قالت : رضيت بذلك منك.

[313]

فصل ; في نصيحة أمير المؤمنين (عليه السلام) لأصحاب الجمل :

و لما سار أمير المؤمنين (عليه السلام) من ذي قار قدم صعصعة بن صوحان رضي الله عنه بكتاب إلى طلحة والزبير وعائشة يعظم عليهم حرمة الإسلام ويخوفهم فيما صنعوه ويذكر لهم قبيح ما ارتكبوه من قتل من قتلوا من المسلمين وما صنعوا بصاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عثمان بن حنيف وقتلهم المسلمين صبرا ويعظهم ويدعوهم إلى الطاعة.

قال صعصعة : فقدمت عليهم فبدأت بطلحة فأعطيته الكتاب وأديت إليه الرسالة.

فقال : الآن حين عضت ابن أبي طالب الحرب يرفق لنا.

ثم جئت إلى الزبير فوجدته ألين من طلحة.

ثم جئت إلى عائشة فوجدتها أسرع الناس إلى الشر ; فقالت :

نعم قد خرجت للطلب بدم عثمان والله لأفعلن وأفعلن.

فعدت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فلقيته قبل أن يدخل البصرة ;

[314]

فقال : ما وراؤك يا صعصعة ؟

قلت : يا أمير المؤمنين , رأيت قوما ما يريدون إلا قتالك.

فقال : الله المستعان.

ابن عباس وطلحة :

ثم دعا عبد الله بن عباس فقال انطلق إليهم فناشدهم وذكرهم العهد الذي لي في رقابهم.

قال ابن عباس : فجئت فبدأت بطلحة فذكرته العهد فقال لي يا ابن عباس والله لقد بايعت واللج على رقبتي.

فقلت له : أنا رأيتك بايعت طائعا أ ولم يقل لك علي قبل بيعتك له إن أحببت أن أبايعك بايعتك ؟ فقلت : لا بل نحن نبايعك.

فقال طلحة : إنما قال لي ذلك وقد بايعه قوم فلم أستطع خلافهم , والله يا ابن عباس إن القوم الذين معه يغرونه ولئن لقيناه يسلمونه أ ما عملت يا ابن عباس أني جئت إليه والزبير ولنا من الصحبة ما لنا مع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والقدم في الإسلام وقد أحاط به ألفان قياما على رأسه بالسيوف فقال لنا بهزل إن أحببتما بايعت لكما ; فلو قلنا : نعم. أ فتراه كان يفعل , وقد بايع الناس له , فيخلع نفسه ويبايعنا ؟ لا والله ما كان يفعل ; وخشينا أن يغري بنا من لا يرى لنا حرمة فبايعناه كارهين ; وقد جئنا نطلب بدم عثمان , فقل لابن عمك إن كان يريد حقن الدماء وإصلاح أمر الأمة فليمكنا من قتلة عثمان فهم معه ويخلع نفسه ويرد الأمر ليكون شورى بين المسلمين فيولوا من شاءوا فإنما علي رجل كأحدنا ; وإن أبى أعطيناه السيف فما له عندنا غير هذا.

[315]

قال ابن عباس : يا أبا محمد لست تنصف , أ لم تعلم أنك حصرت عثمان حتى مكث عشرة أيام يشرب من ماء بئره وتمنعه من شرب الماء الفرات حتى كلمك علي في أن تخلي الماء له وأنت تأبى ذلك ; ولما رأى أهل مصر فعلك وأنت صاحب رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) دخلوا عليه بسلاحهم فقتلوه ; ثم بايع الناس رجلا له من السابقة والفضل والقرابة برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) والبلاء العظيم ما لا يدفع , وجئت أنت وصاحبك طائعين غير مكرهين حتى بايعتما , ثم نكثتما , فعجب والله لإقرارك لأبي بكر وعمر وعثمان بالبيعة ووثوبك على علي بن أبي طالب ! فو الله ما علي (عليه السلام) دون أحد منهم.

و أما قولك يمكنني من قتلة عثمان ; فما يخفى عليك من قتل عثمان.

و أما قولك : إن أبى علي فالسيف ; فو الله إنك لتعلم أن عليا لا يخوف.

فقال طلحة : إيها عنا الآن من جدالك.

[316]

ابن عباس وعائشة :

قال فخرجت فرجعت إلى علي وقد دخل البيوت بالبصرة فقال ما وراءك فأخبرته الخبر فقال اللهم افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين ثم قال ارجع إلى عائشة واذكر لها خروجها من بيت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وخوفها من

الخلاف على الله عز وجل ونبذها عهد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقل لها إن هذه الأمور لا تصلحها النساء وإنك لم تؤمري بذلك فلم ترضى بالخروج عن أمر الله في تبرجك وبيتك الذي أمرك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) بالمقام فيه حتى سرت إلى البصرة فقتلت المسلمين وعمدت إلى عمالي فأخرجتهم وفتحت بيت المال وأمرت بالتنكيل بالمسلمين وأبحت دماء الصالحين فارعي وراقبي الله عز وجل فقد تعلمين أنك كنت أشد الناس على عثمان فما هذا مما مضى.

قال ابن عباس : فلما جئتها وأديت الرسالة إليها وقرأت كتاب علي (عليه السلام) عليها , قالت : يا ابن عباس , ابن عمك يرى أنه قد تملك البلاد ; لا والله ما بيده منها شيء إلا وبيدنا أكثر منه.

فقلت : يا أماه إن أمير المؤمنين (عليه السلام) له فضل وسابقة في الإسلام وعظم عناء.

قالت : أ لا تذكر طلحة وعناءه يوم أحد.

قال : فقلت لها ; والله ما نعلم أحدا أعظم عناء من علي (عليه السلام).

[317]

قالت : أنت تقول هذا , ومع علي أشياء كثيرة.

قلت : الله الله في دماء المسلمين.

فقالت : وأي دماء تكون للمسلمين إلا أن يكون علي يقتل نفسه ومن معه.

قال ابن عباس : فتبسمت.

فقالت : مما تضحك يا ابن عباس ؟

فقلت : والله معه قوم على بصيرة من أمرهم يبذلون مهجهم دونه.

قالت : حسبنا الله ونعم الوكيل.

ابن عباس والزبير :

قال وقد كان أمير المؤمنين (عليه السلام) أوصاني أن ألقى الزبير وإن قدرت أن أكلمه وابنه ليس بحاضر فجئت مرة أو مرتين كل ذلك أجده عنده ثم جئت مرة أخرى فلم أجده عنده فدخلت عليه وأمر الزبير مولاه سرجس أن يجلس على الباب ويحبس عنا الناس , فجعلت أكلمه , فقال : غضبتم إن خولفتم , والله لتعلمن عاقبة ابن عمك.

فعلمت أن الرجل مغضب , فجعلت ألاينه فيلين مرة ويشتد أخرى.

فلما سمع سرجس ذلك أنفذ إلى عبد الله بن الزبير وكان عند طلحة فدعاه فأقبل سريعا حتى دخل علينا.

فقال : يا ابن عباس ; دع بنيات الطريق بيننا وبينكم عهد خليفة ودم خليفة وانفراد واحد واجتماع ثلاثة وأم مبرورة ومشاورة العامة.

فأمسكت ساعة لا أكلمه , ثم قلت : لو أردت أن أقول لقلت.

فقال ابن الزبير : ولم تؤخر ذلك وقد حم الأمر وبلغ السيل الزبى ؟

قال ابن عباس : فقلت ; أما قولك عهد خليفة فإن عمر جعل المشورة إلى ستة نفر فجعل الستة النفر أمرهم إلى

[318]

رجل منهم يختار لهم منهم ويخرج نفسه منها فعرض الأمر على علي وعثمان فحلف عثمان وأبى علي أن يحلف فبايع عثمان فهذا عهد خليفة.

و أما دم خليفة , فدمه عند أبيك لا يخرج أبوك من خصلتين أما قتل أو خذل.

و أما انفراد واحد واجتماع ثلاثة , فإن الناس لما قتلوا عثمان فزعوا إلى علي فبايعوه طوعا وتركوا أباك وصاحبه ولم يرضوا بواحد منهما.

و أما قولك إن معكم أما مبرورة , فإن هذه الأم أنتم أخرجتموها من بيتها وقد أمرها الله أن تقر فيه فأبيت أن تدعها وقد علمت أنت وأبوك أن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حذرها من الخروج.

و قال : يا حميراء ; إياك أن تنبحك كلاب الحوأب.

و كان منها ما قد رأيت.

و أما دعواك مشاورة العامة , فكيف يشاور فيمن قد أجمع عليه وأنت تعلم أن أباك وطلحة بايعاه طائعين غير كارهين.

فقال ابن الزبير : الباطل والله ما تقول يا ابن عباس ولقد سئل عبد الرحمن بن عوف عن أصحاب الشورى فكان صاحبكم أحسنهم عنده وما أدخله عمر في الشورى إلا وهو يعرفه ; ولكن خاف فتقه في الإسلام.

و أما قتل الخليفة فصاحبك كتب إلى الآفاق حتى قدموا عليه ثم قتلوه وهو في داره بلسانه ويده وأنا معه في الدار أقاتل دونه حتى جرحت بضعة عشر جرحا.

و أما قولك إن عليا بايعه الناس طائعين فو الله ما بايعوه إلا كارهين والسيف على رقابهم غصبهم أمرهم.

فقال الزبير : دع عنك ما ترى يا ابن عباس جئتنا لتوفينا ؟

فقال له ابن عباس : أنتم طلبتم هذا والله ما عددناك قط إلا من بني هاشم في برك لأخوالك ومحبتك لهم حتى أدرك ابنك هذا فقطع الأرحام.

فقال الزبير : دع عنك هذا.

[319]

فصل ; في تأمير الأمراء وتكتيب الكتائب :

و لما عاد رسل أمير المؤمنين (عليه السلام) من طلحة والزبير وعائشة بإصرارهم على خلافه وإقامتهم على نكث بيعته والمباينة له والعمل على حربه واستحلال دماء شيعته وأنهم لا يتعظون بوعظ ولا ينتهون عن الفساد بوعيد كتب الكتائب ورتب العساكر.

و استعمل على مقدمته عبد الله بن العباس.

و على ساقته هند المرادي ثم الجملي وهو الذي قال فيه عمر بن الخطاب سيد أهل الكوفة اسمه اسم امرأة.

و استعمل على كافة الخيل عمار بن ياسر.

و على جميع الرجالة محمد بن أبي بكر.

و فرق الرئاسات من بعده فجعل على خيل مذحج خاصة هند الجملي.

و على رجالتها شريح بن هاني الحارثي.

و على خيل همدان سعيد بن قيس.

و على رجالتها زياد بن كعب بن مرة.

[320]

و على خيل كندة حجر بن عدي.

و على خيل بجيلة ورجالتها رفاعة بن شداد.

و على خيل قضاعة ورجالتها عدي بن حاتم.

و على خيل خزاعة وأفناء اليمن عبد الله بن زيد.

و على رجالتها عمرو بن الحمق الخزاعي.

و على خيل الأزد جندب بن زهير.

و على رجالتها أبا زينب الذي شهد على الوليد بن عقبة بشرب الخمر وكان سبب صرفه عن الكوفة وإقامة الحد عليه.

و على خيل بكر بن وائل عبد الله بن هاشم السدوسي.

و على رجالتها حسان بن محدوج الذهلي.

و على خيل عبد القيس من أهل الكوفة زيد بن صوحان العبدي.

و على رجالتها الحارث بن مرة العبدي.

و على خيل بكر بن وائل من أهل البصرة سفيان بن ثور السدوسي.

و على رجالتها الحضين بن المنذر.

و هو الذي قال فيه أمير المؤمنين (عليه السلام) يوم صفين :

لمن راية حمراء يخفق ظلها *** إذا قيل قدمها حضين تقدما

و على الهازم خاصة حريث بن جابر الحنفي.

و على الذهليين خالد بن المعمر السدوسي.

[321]

و على خيل عبد القيس من أهل البصرة المنذر بن الجارود العبدي.

و على خيل أسد قبيصة بن جابر الأسدي.

و على رجالتها العكبر بن جدير الأسدي وهو الذي قتل محمد بن طلحة يوم الجمل.

و على خيول أهل الكوفة من بني تميم عمير بن عطارد.

و على رجالتها معقل بن قيس وهو الذي سبى بني ناجية.

و على خيل قيس عيلان من أهل الكوفة عبد الله بن الطفيل البكائي.

و على رجالتها فروة بن نوفل الأشجعي صاحب النخيلة.

و على خيل قريش وكنانة هاشم بن عتبة بن أبي وقاص المرقال.

و على رجالتها هاشم بن هشام.

و على من صار إليه من تميم البصرة جارية بن قدامة السعدي.

و على رجالتها أعين بن ضبيعة.

فأحاط العسكر يومئذ من الفرسان المعروفين والرجالة المشهورين على ستة عشر ألف رجل.

[322]

تعبئة طلحة والزبير للحرب :

و لما بلغ طلحة والزبير أن أمير المؤمنين (عليه السلام) كتب الكتائب ورتب العساكر وتيقنوا منه الجد وأيقنوا منه القصد والحرب عملا على الاستعداد لها وكان أهل البصرة قد اختلفوا عليهما وقعد عنهما الأحنف في بني سعد وكانا يظنان أنه معهم فأخلف ظنهم وتأخر عنهما الأزد لقعود كعب بن سور القاضي عنهما وكان سيد الأزد وأهل اليمن بالبصرة فأنفذا إليه رسولهما يسألانه النصرة لهما والقتال معهما فأبى عليهما وقال أنا أعتزل الفريقين فقالا إن قعد عنا كعب خذلنا الأزد بأسرها ولا غنى لنا عنه فصارا إليه واستأذنا عليه فلم يأذن لهما وحجبهما فصارا إلى عائشة فخبراها خبره وسألاها أن تسير إليه فأبت وراسلته تدعوه إلى الحضور عندها فاستعفاها من ذلك.

فقال طلحة والزبير يا أم إن قعد كعب قعدت عنا الأزد كلها وهي حي البصرة فاركبي إليه فإنك إن فعلت لم يخالفك وانقاد لرأيك.

فركبت بغلا وأحاط بها نفر من أهل البصرة وصارت إلى كعب بن سور فاستأذنت عليه فأذن ورحب بها , فقالت : يا بني أرسلت إليك لتنصر الله عز وجل فما الذي أخرك عني ؟

فقال : يا أماه لا حاجة لي في خوض هذه الفتنة.

فقالت : يا بني اخرج معي وخذ بخطام جملي فإني أرجو أن يقربك إلى الجنة واستعبرت باكية فرق لها كعب بن سور

و أجابها , وعلق المصحف في عنقه وخرج معها.

فلما خرج والمصحف في عنقه ; قال غلام من بني وهب وقد كان عرف امتناعه وتأبيه من خوض هذه الفتنة :

يا كعب رأيك هذا الجميل *** أمثل من رأيك الخاطل

أتاك الزبير يريد الأمور *** وطلحة بالنفل الشاكل

ليستدرجاك بما زخرفا *** وأمك تهوي إلى نازل

و قد كانت الأم معصومة *** فأضحت فرائس للآكل

تخط بها الأرض من حولها *** ترد الجواب على السائل

فألقيتها بين حي السباع *** وعرضتها للشجى الثاكل

بحرب علي وأصحابه *** فقد أزم الدهر بالكاهل

فأبديت للقوم ما في الضمير *** وقلت لهم قوله الخاذل

فأخطاهما منك ما أملاه *** وقد أخلفا أمل الآمل

و ما لك في مضر نسبة *** وما لك في الحي من وائل

فلا تجزعن على هالك *** من القوم حاف ولا ناعل

و لما نهض كعب بن سور مع عائشة في الأزد اجتمع رأي طلحة والزبير على

[324]

تكتب الكتائب واستقر الأمر منهما على أن الزبير أمير العسكر خاصة ومدبره.

و طلحة في القلب.

و اللواء مع عبد الله بن حكيم بن حزام بن خويلد.

و كعب بن سور مع الأزد.

و على خيل الميمنة مروان بن الحكم.

و على رجالتها عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد.

و على خيل الميسرة وهم بنو تميم وسائر قبائل قضاعة وهوازن هلال بن وكيع الدارمي.

و على رجالتها عبد الرحمن بن الحارث بن هشام وقد ضم إليه الحباب بن يزيد.

و على خيل قيس عيلان مجاشع بن مسعود.

و على رجالتهم جابر بن النعمان الباهلي.

و على خيل الرباب عمرو بن يثربي.

و على رجالتهم خرشة بن عمرو الضبي.

و على من انحاز إليهم من قريش وثقيف عبد الله بن عامر بن كريز.

و على أفناء أهل المدينة عبد الله بن خلف الخزاعي.

[325]

و على رجالة مذحج الربيع بن زياد الحارثي.

و على رجالة قضاعة عبد الله بن جابر الراسبي.

و على من انحاز إليهم من ربيعة مالك بن مسمع.

و لما تقرر أمر الكتائب في الفريقين فخر كل فريق بقومه وقام خطباؤهم بالتحريض على القتال.

[326]

خطبة عبد الله بن الزبير :

فقام عبد الله بن الزبير في معسكرهم فحمد الله وأثنى عليه وقال :

أيها الناس إن هذا الوعث والرعث قتل عثمان بالمدينة ثم جاءكم ينشر أموركم بالبصرة وقد غصب الناس أنفسهم أ لا تنصرون خليفتكم المظلوم أ لا تمنعون حريمكم المباح أ لا تتقون الله في عطيتكم من أنفسكم أ ترضون أن يتورددكم أهل الكوفة في بلادكم اغضبوا فقد غوضبتم وقاتلوا فقد قوتلتم إن عليا لا يرى أن معه في هذا الأمر أحدا سواه والله لئن ظفر بكم ليهلكن دينكم ودنياكم وأكثر من نحو هذا القول وشبهه.

[327]

خطبة الحسن (عليه السلام) :

فبلغ ذلك أمير المؤمنين (عليه السلام) فقال لولده الحسن (عليه السلام) قم يا بني فاخطب فقام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وقال :

أيها الناس قد بلغنا مقالة ابن الزبير وقد كان والله أبوه يتجنى على عثمان الذنوب وقد ضيق عليه البلاد حتى قتل وإن طلحة راكز رايته على بيت ماله وهو حي وأما قوله إن عليا ابتز الناس أمورهم فإنه أعظم حجة لأبيه زعم أنه بايعه بيده ولم يبايعه بقلبه فقد أقر بالبيعة وادعى الوليجة فليأت على ما ادعاه ببرهان وأنى له ذلك وأما تعجبه من تورد أهل الكوفة على أهل البصرة فما عجبه من أهل حق توردوا على أهل باطل ولعمري والله ليعلمن أهل البصرة فميعاد ما بيننا وبينهم يوم نحاكمهم إلى الله فيقضي الله بالحق وهو خير الفاصلين فلما فرغ الحسن (عليه السلام) من كلامه قام رجل يقال له عمر بن محمود

[328]

فقال شعرا يمدح الحسن (عليه السلام) فيه على خطبته.

[329]

خطبة طلحة :

و لما بلغ طلحة والزبير خطبة الحسن (عليه السلام) ومدح المادح له قام طلحة خطيبا في أصحابه فقال :

يا أهل البصرة قد ساق الله إليكم خيرا ما ساقه إلى قوم قط أمكم وحرمة نبيكم وحواري رسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وابن عمته ومن وقاه بيده إن عليا غصب الناس أنفسهم بالحجاز وتهيأ للشام يريد سفك دماء المسلمين والتغلب على بلادهم فلما بلغه مسيرنا إليكم وقصدنا قصدكم وقد اجتمع معه منافقو مضر ونصارى ربيعة ورجالة اليمن فإذا رأيتم القوم فاقصدوا قصدهم ولا تروعوا عنهم ولا تقولوا ابن عم رسول الله وهذه معكم زوجة الرسول وأحب الناس إليه وابنة الصديق الذي كان أبوها أحب الخلق إلى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

اعتراض خيران بن عبد الله والأسود بن عوف على طلحة :

فقام إلى طلحة رجل يقال له خيران بن عبد الله من أهل الحجاز كان قدم

[330]

البصرة وهو غلام , فقال : يا طلحة والله ما تركت جنبا صحيحا ننام عليه بشتمك ربيعة ومضر واليمن ; فإن كان القول

كما تقول فإنا لمثلهم وهم منا ونحن منهم وما يفرق بيننا وبينهم غيرك وغير صاحبك ولقد سبقت منا إلى علي (عليه السلام) بيعة ما ينبغي لنا أن ننقضها وإنا لنعلم حالكم اليوم وحالكم أمس.

فهم القوم به , فمنعهم بنو أسد عنه ; فخرج عنهم ولحق بمنزل ابن صهبان مستخفيا إشفاقا على دمه منهم.

و قام الأسود بن عوف لما سمع من طلحة شتمه الأحياء من ربيعة ومضر واليمن , فقال :

يا هذا إن الله لم يفرق بيننا وبين مضر وإن أهل الكوفة من غاب منهم كمن شهد الأخ إلى الأخ وإنما خالفنا القوم في هواكما فاعفنا مما ترى , ثم خرج.

فلحق بعمان ولم يشهد الجمل ولا صفين.

[331]

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و بلغ أمير المؤمنين (عليه السلام) لغط القوم واجتماعهم على حربه فقام في الناس خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه ثم قال :

أيها الناس إن طلحة والزبير قدما البصرة وقد اجتمع أهلها على طاعة الله وبيعتي فدعواهم إلى معصية الله وخلافي فمن أطاعهما منهم فتنوه ومن عصاهما قتلوه وقد كان من قتلهما حكيم بن جبله ما بلغكم وقتلهم السبابجة وفعالهما بعثمان بن حنيف ما لم يخف عليكم وقد كشفوا الآن القناع وآذنوا بالحرب وقام طلحة بالشتم والقدح في أديانكم وقد أرعد وصاحبه وأبرقا وهذان امرءان معهما الفشل ولسنا نريد منكم أن تلقوا بطون ما في نفوسكم عليهم ولا تروا ما في أنفسكم لنا ولسنا نرعد حتى نوقع ولا نسيل حتى نمطر وقد خرجوا من هدى إلى ضلال دعوناهم إلى الرضا ودعونا إلى السخط فحل لنا ولكم ردهم إلى الحق والقتال وحل لهم بقصاصهم القتل وقد والله مشوا إليكم ضرارا وأذاقوكم أمس من الجمر فإذا لقيتم القوم غدا فاغدوا في الدعاء وأحسنوا في التقية واستعينوا بالله واصبروا إن الله مع الصابرين.

[332]

فقام إليه حبيب بن يساف حتى وقف بين يديه وقال :

أبا حسن أيقظت من كان نائما *** وما كل من يدعى إلى الحق يسمع

و ما كل من يعطى الرضا يقبل الرضا *** وما كل من أعطيته الحق يقنع

و أنت امرؤ أعطيت من كل وجهه *** محاسنها والله يعطي ويمنع

و ما منك بالأمر المؤلم غلظة *** وما فيك للمرء المخالف مطمع

و إن رجالا بايعوك وخالفوا هداك *** وأجروا في الضلال فضيعوا

لأهل لتجريد الصوارم فيهم *** وسمر العوالي والقنا تتزعزع

فإني لأرجو أن تدور عليهم *** رحى الموت حتى يسكنوا ويصرعوا

و طلحة فيها والزبير قرينه *** وليس لما لا يدفع الله مدفع

فإن يمضيا فالحرب أضيق حلقة *** وإن يرجعا عن تلك فالسلم أوسع

و ما بايعوه كارهين لبيعة *** وما بسطت منهم على الكره إصبع

و لا بطيا عنها فراقا ولا *** بدا لهم أحد بعد الذين تجمعوا

على نقضها ممن له شد عقدها *** فقصراهما منه مصانع أربع

خروج بأم المؤمنين وغدرهم *** وعتب على من كان في القلب أشجع

[333]

و ذكرهم قتل ابن عفان خدعة *** وهم قتلوه والمخادع أخدع

فعود علي نبعة هاشمية *** وعودهما فيما هما فيه خروع

[334]

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في التحريض على القتال :

قال : ثم إن أمير المؤمنين (عليه السلام) أنظرهم ثلاثة أيام ليكفوا ويرعوا فلما علم إصرارهم على الخلاف قام في أصحابه , فقال : عباد الله انهدوا إلى هؤلاء القوم منشرحة صدوركم فإنهم نكثوا بيعتي وقتلوا شيعتي ونكلوا بعاملي وأخرجوه من البصرة بعد أن آلموه بالضرب المبرح والعقوبة الشديدة وهو شيخ من وجوه الأنصار والفضلاء ولم يرعوا له حرمة وقتلوا السبابجة رجالا صالحين وقتلوا حكيم بن جبلة ظلما وعدوانا لغضبه لله ثم تتبعوا شيعتي بعد أن هربوا منهم وأخذوهم في كل غائطة وتحت كل رابية يضربون أعناقهم صبرا ما لهم قاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ فانهدوا إليهم عباد الله وكونوا أسودا عليهم فإنهم شرار ومساعدوهم على الباطل شرار فالقوهم صابرين محتسبين موطنين أنفسكم إنكم منازلون ومقاتلون قد وطنتم أنفسكم على الضرب والطعن ومنازلة الأقران فأي امرئ أحس من نفسه رباطة جأش عند الفزع وشجاعة عند اللقاء ورأى من أخيه

[335]

فشلا ووهنا فليذب عنه كما يذب عن نفسه فلو شاء الله لجعله مثله.

فقام إليه شداد بن شمر العبدي فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أما بعد فإنه لما كثر الخطاءون وتمرد الجاحدون فزعنا إلى آل نبينا الذين بهم ابتدئنا بالكرامة وهدينا من الضلالة الزموهم

رحمكم الله ودعوا من أخذ يمينا وشمالا فإن أولئك في غمرتهم يعمهون وفي ضلالتهم يترددون.

[336]

إعذار أمير المؤمنين (عليه السلام) لأصحاب الجمل :

قال ثم إن أمير المؤمنين (عليه السلام) رحل بالناس إلى القوم غداة الخميس لعشر مضين من جمادى الأولى وعلى ميمنته الأشتر وعلى ميسرته عمار بن ياسر وأعطى الراية محمد بن الحنفية ابنه.

و سار حتى وقف موقفا ثم نادى في الناس لا تعجلوا حتى أعذر إلى القوم ودعا عبد الله بن العباس رضي الله عنه فأعطاه المصحف وقال امض بهذا المصحف إلى طلحة والزبير وعائشة وادعهم إلى ما فيه وقل لطلحة والزبير أ لم تبايعاني مختارين فما الذي دعاكما إلى نكث بيعتي وهذا كتاب الله بيني وبينكما.

قال عبد الله بن العباس : فبدأت بالزبير وكان عندي أبقاهما علينا وكلمته في الرجوع وقلت له إن أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول لك أ لم تبايعني طائعا فلم تستحل قتالي وهذا المصحف وما فيه بيني وبينك فإن شئت تحاكمنا إليه ؟

فقال : ارجع إلى صاحبك فإنا بايعنا كارهين وما لي حاجة في محاكمته.

فانصرفت عنه إلى طلحة والناس يشتدون والمصحف في يدي فوجدته قد لبس الدرع وهو محتب

[337]

بحمائل سيفه ودابته واقفة , فقلت له : إن أمير المؤمنين (عليه السلام) يقول لك ; ما حملك على الخروج وبما استحللت نقض بيعتي والعهد عليك ؟

فقال : خرجت أطلب بدم عثمان ; أ يظن ابن عمك أنه قد حوى على الأمر حين حوى على الكوفة وقد والله كتبت إلى المدينة تؤخذ لي البيعة بمكة.

فقلت له : اتق الله يا طلحة فإنه ليس لك أن تطلب بدم عثمان وولده أولى بدمه منك ; هذا أبان بن عثمان ما ينهض في طلب دم أبيه.

قال طلحة : نحن أقوى على ذلك منه , قتله ابن عمك وابتز أمرنا.

فقلت له : أذكرك الله في المسلمين وفي دمائهم وهذا المصحف بيننا وبينكم والله ما أنصفتم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ حبستم نساءكم في بيوتكم وأخرجتم حبيسة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم).

فأعرض عني , ونادى بأصحابه : ناجزوا القوم فإنكم لا تقومون بحجاج ابن أبي طالب.

فقلت : يا أبا محمد ; أ بالسيف تخوف ابن أبي طالب أم والله ليعاجلنك للسيف.

فقال : ذلك بيننا وبينكم.

قال : فانصرفت عنهما إلى عائشة وهي في هودج مدفف على جملها عسكر

[338]

و كعب بن سور القاضي آخذ بخطامه وحولها الأزد وضبة فلما رأتني , قالت : ما الذي جاء بك يا ابن عباس ؟ والله لا سمعت منك شيئا ارجع إلى صاحبك وقل له ما بيننا وبينك إلا السيف.

و صاح من حولها : ارجع يا ابن عباس لا يسفك دمك.

[339]

تكرار الإعذار :

فرجعت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فأخبرته الخبر وقلت ما تنتظر والله ما يعطيك القوم إلا السيف , فاحمل عليهم قبل أن يحملوا عليك.

فقال : نستظهر بالله عليهم.

قال ابن عباس : فو الله ما رمت من مكاني حتى طلع علي نشابهم كأنه جراد منتشر.

فقلت : أ ما ترى يا أمير المؤمنين إلى ما يصنع القوم ؟ مرنا ندفعهم.

فقال : حتى أعذر إليهم ثانية.

ثم قال : من يأخذ هذا المصحف فيدعوهم إليه وهو مقتول ; وأنا ضامن له على الله الجنة ؟

فلم يقم أحد إلا غلام عليه قباء أبيض حدث السن من عبد القيس يقال له مسلم , كأني أراه ; فقال : أنا أعرضه يا أمير المؤمنين عليهم , وقد احتسبت نفسي عند الله تعالى.

فأعرض عنه إشفاقا عليه , ونادى ثانية : من يأخذ هذا المصحف ويعرضه على القوم وليعلم أنه مقتول وله الجنة ؟

فقام مسلم بعينه وقال أنا أعرضه.

فأعرض , ونادى ثالثة , فلم يقم غير الفتى.

فدفع إليه المصحف وقال امض إليهم وأعرضه عليهم وادعهم إلى ما فيه.

فأقبل الغلام حتى وقف بإزاء الصفوف ونشر المصحف , وقال : هذا كتاب الله عز وجل وأمير المؤمنين (عليه السلام) يدعوكم إلى ما فيه.

فقالت عائشة : اشجروه بالرماح قبحه الله.

فتبادروا إليه بالرماح فطعنوه من كل جانب ; وكانت أمه حاضرة فصاحت وطرحت نفسها عليه وجرته من موضعه ولحقها جماعة من

[340]

عسكر أمير المؤمنين (عليه السلام) أعانوها على حمله حتى طرحوه بين يدي أمير المؤمنين (عليه السلام) وأمه تبكي وتندبه وتقول :

يا رب إن مسلما دعاهم *** يتلو كتاب الله لا يخشاهم

فخضبوا من دمه قناهم *** وأمهم قائمة تراهم

تأمرهم بالقتل لا تنهاهم

[341]

مبدأ القتال :

فلما رأى أمير المؤمنين (عليه السلام) ما قدم عليه القوم من العناد واستحلوه من سفك الدم الحرام.

رفع يديه إلى السماء , وقال : اللهم إليك شخصت الأبصار وبسطت الأيدي وأفضت القلوب وتقربت إليك بالأعمال رَبَّنَا افْتَحْ بَيْنَنا وبَيْنَ قَوْمِنا بِالْحَقِّ وأَنْتَ خَيْرُ الْفاتِحِينَ.

ثم دعا ابنه محمد بن الحنفية فأعطاه الراية وهي راية رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال يا بني هذه راية لم ترد قط ولا ترد أبدا قال محمد فأخذتها والريح تهب عليها فلما تمكنت من حملها صارت الريح على طلحة والزبير وأصحاب الجمل فأردت أن أمشي بها.

فقال أمير المؤمنين : قف يا بني حتى آمرك.

[342]

ثم نادى أيها الناس لا تقتلوا مدبرا ولا تجهزوا على جريح ولا تكشفوا عورة ولا تهيجوا امرأة ولا تمثلوا بقتيل.

فبينا هو يوصي أصحابه إذ أظلنا نبل القوم ; فقتل رجل من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام).

فلما رآه قتيلا ; قال : اللهم اشهد ; ثم رمي ابن لعبد الله بن بديل , فقتل.

فحمله أبوه عبد الله ومعه عبد الله بن العباس حتى وضعاه بين يدي أمير المؤمنين (عليه السلام).

فقال عبد الله بن بديل : حتى متى يا أمير المؤمنين تستذري نحورنا للقوم يقتلوننا رجلا رجلا , قد والله أعذرنا إن كنت تريد الإعذار.

ثم قال محمد بن الحنفية رضي الله عنه , فقال لي أمير المؤمنين (عليه السلام) رايتك يا بني قدمها بعث في الميمنة والميسرة ; ودعا بدرع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فلبسه وحزم بطنه بعصابة أسفل من سرته ودعا ببغلته الشهباء وهي بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فاستوى على ظهرها ووقف أمام صفوف أصحابه فوقفت بين يديه باللواء وهو منشور مستعد ; فجاء قيس بن سعد بن عبادة إلى أمير المؤمنين وقال :

[343]

هذا اللواء الذي كنا نحف به *** حول النبي وجبريل لنا مدد

ما ضر من كانت الأنصار عيبته *** أن لا يكون له من غيرها أحد

قوم إذا حاربوا طالت أكفهم *** بالمشرفية حتى تفتح البلد

و صفت أصحاب عائشة صفوفهم وجاءوا بالجمل عليه الهودج وفيه عائشة وخطامه في يد كعب بن سور وقد تقلد المصحف والأزد وبنو ضبة قد أحاطوا بالجمل وعبد الله بن الزبير بين يدي عائشة ومروان بن الحكم عن يمينها والزبير يدبر العسكر وطلحة على الفرسان ومحمد بن طلحة على الرجالة.

فقال محمد بن الحنفية : قال لي أبي حين زحف القوم نحونا قدم اللواء فقدمته وزحف المهاجرون والأنصار فلما رآني القوم قد زحفت باللواء بارزا عن أصحابي رشقوني رشقة رجل واحد فوقفت مكاني واتقيت منهم وقلت ينقضي رشقهم في مرة أو مرتين ثم أقدم فلم أشعر إلا وأمير المؤمنين (عليه السلام) قد ضرب بين كتفي بيده ; ثم أخذ اللواء مني بيده , ونادى : يا منصور أمت فو الله ما سمعت القوم حتى رأيتهم وقد زلزلت أقدامهم وارتعدت فرائصهم وألقي بعضهم ببعض وتزايلوا وقد رأت عائشة موضع كل فريق منهم.

[344]

المبارزات

و تقدم عمار ومالك الأشتر مصلتين سيوفهما نحو القوم ونادى أمير المؤمنين يا محمد بن أبي بكر إن صرعت عائشة فوارها وتول أمرها.

فتضعضع القوم حين سمعوا ذلك , واضطربوا , وأمير المؤمنين (عليه السلام) واقف في موضعه ثم تراجعوا بعد تضعضعهم ورجعت إليهم نفوسهم ونادوا البراز.

فتقدم رجل من بني عدي أمام الجمل وبيده سيف وهو يقول :

أضربهم ولو أرى عليا *** عممته أبيض مشرفيا

أريح منه قومنا عديا

فشد عليه رجل من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) يقال له أمية العبدي وهو يقول :

هذا علي والهدى سبيله *** والرشد فيه والتقى دليله

من يتبع الحق يبن خليله

[345]

ثم اختلف بينهما ضربتان فأخطأه العدوي وضربه العبدي فقتله.

فقام مقامه رجل يقال له أبو الجرباء عاصم بن مرة من أصحاب الجمل فقال :

أنا أبو الجرباء واسمي عاصم *** وأمنا أم لها محارم

فشد عليه رجل من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يقول :

إليك إني تابع عليا *** وتارك أمكم مليا

إذ عصت الكتاب والنبيا *** وارتكبت من أمرها فريا

و ضربه فقتله فقام مقامه رجل آخر من أصحاب الجمل يقال له الهيثم بن كليب الأزدي وهو يقول :

نحن نوالي أمنا الرضية *** وننصر الصحابة المرضية

فشد عليه رجل من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وهو يقول :

وليكم عجل بني أمية *** وأمكم خاسرة شقية

هاوية في فتنة عمية

و ضربه ففلق هامته وخر صريعا.

و برز من بعده عمرو بن يثربي وكان من شياطين أصحاب الجمل فنادى هل من مبارز ؟

فبرز إليه علباء بن الهيثم فاختلف بينهما ضربتان فقتل علباء رحمه الله فقام مقامه هند بن المرادي فبادره بالسيف فاتقاه وضربه عبد الله بن الزبير فشغله بنفسه وثناه عمرو بن يثربي فقتلاه جميعا.

[346]

فبرز مقامه زيد بن صوحان العبدي رحمه الله فتضاربا وجاء فارس من أصحاب الجمل ووقف بجنب عمرو يحميه فطعنه زيد في خاصرته طعنة أثخنه بها وبدر إليه فضربه فقضى منها وبدا عمرو يفتخر ويقول :

إن تنكروني أنا ابن يثربي *** قاتل علباء وهند الجملي

ثم ابن صوحان على دين علي

فبرز إليه مالك الأشتر فضربه على وجهه ضربة وقع بها على الأرض وحماه أصحابه فنهض وقد تراجعت نفسه وهو يقول لا بد من الموت فدلوني على علي بن أبي طالب فلئن بصرت به لأملأن سيفي من هامته.

فبرز إليه عمار رضي الله عنه وهو يقول :

لا تبرح العرصة يا ابن يثربي * حتى أقاتلك على دين علي**

نحن وبيت الله أولى بالنبي

و ضربه ضربة هلك منها وخر صريعا فأكب قومه عليه فاحتملوه إلى معسكرهم.

[347]

تضعضع أصحاب الجمل :

و لما رأى أمير المؤمنين (عليه السلام) جرأة القوم على القتال وصبرهم على الهلاك نادى أصحاب ميمنته أن يميلوا على ميسرة القوم ونادى أصحاب ميسرته أن يميلوا على ميمنتهم ووقف (عليه السلام) في القلب فما كان بأسرع من أن تضعضع القوم وأخذت السيوف من هاماتهم مآخذها فانكشفوا وقد قتل منهم ما لا يحصى كثرة وأصيب من أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) نفر كثير ; وأحاطت الأزد بالجمل يقدمهم كعب بن سور وخطام الجمل بيده واجتمع إليهم من كان أنفل بالهزيمة ونادت عائشة : يا بني ; الكرة ; الكرة , اصبروا فإني ضامنة لكم الجنة.

فحفوا بها من كل جانب واستقدموا حتى دنوا من عسكر أمير المؤمنين (عليه السلام) وألقت عائشة نفسها بردة كانت معها وقلبت يمينها عن منكبها الأيمن إلى الأيسر والأيسر إلى الأيمن كما كان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يصنع عند الاستسقاء ثم قالت ناولوني كفا من تراب فناولوها فحثت به في وجوه أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) وقالت : شاهت الوجوه كما فعل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) بأهل بدر.

[348]

قال : وجر كعب بن سور بالخطام , وقال : اللهم إن أردت أن تحقن الدماء وتطفئ هذه الفتنة فاقتل عليا.

و لما فعلت عائشة ما فعلت من قلب البرد وحصب أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) بالتراب.

قال (عليه السلام) : وما رميت إذ رميت يا عائشة , ولكن الشيطان رمى , وليعودن وبالك عليك إن شاء الله .

شعر أم ذريح العبدية وقتل كعب بن سور :

و أنشدت أم ذريح العبدية وكانت من شيعة أمير المؤمنين (عليه السلام) تقول :

عائش إن جئت لتهزمينا *** وتنشري البرد لتغلبينا

و تقذفي بالحصيات فينا *** تصادفي ضربا وتنكرينا

بالمشرفيات إذا غزينا *** نسفك من دمائكم ما شينا

قال محمد بن الحنفية رحمه الله : قال لي أمير المؤمنين (عليه السلام) تقدم يا بني باللواء وصف أصحابه فجعل الحسن (عليه السلام) في الميمنة والحسين (عليه السلام) في الميسرة وكان في ميمنة أهل الجمل هلال بن وكيع وفي ميسرتهم صبرة بن شيمان وتزاحف الفريقان بعضهم إلى بعض ; قال : فو الله لقد رأيت أول قتيل من القوم كعب بن سور بعد أن قطعت يمينه التي كان الخطام بها فأخذه بشماله وقتل بعد ذلك وقتل معه أخوه وابناه ثم أخذ بخطام الجمل بعده رجل منهم وهو يقول :

[349]

يا أمنا عائش لا تراعي *** كل بنيك بطل شجاع

فما برح حتى قطعت يداه وطعن فهلك.

فقام مقامه آخر منهم فقطعت يمينه وضرب على رأسه فهلك.

فما زال كلما أخذ بخطام الجمل رجل قطعت يداه أو جذ ساقه حتى هلك منهم ثمانمائة رجل.

و قبل ذلك قتل حول الجمل سبعون رجلا من قريش.

و كان آخر من أخذ بزمام الجمل رجل من بني ضبة فجعل يقول :

نحن بنو ضبة أصحاب الجمل *** ننعى ابن عفان بأطراف الأسل

ردوا علينا شيخنا ثم بجل

فبرز إليه الأشتر وهو يقول :

كيف نرد نعثلا وقد قحل *** سارت به أم المنايا ورحل

و ضربه على هامته ففلقها وخر صريعا.

[350]

قصة الأشتر مع ابن الزبير :

فلاذ بالجمل عبد الله بن الزبير وتناول خطامه بيده فقالت عائشة من هذا الذي أخذ بخطام جملي قال أنا عبد الله ابن أختك فقالت وا ثكل أسماء.

ثم برز الأشتر إليه فخلى الخطام من يده وأقبل نحوه فقام مقامه في الخطام عبد أسود واصطرع عبد الله والأشتر فسقطا

إلى الأرض.

فجعل ابن الزبير يقول : - وقد أخذ الأشتر بعنقه - اقتلوني ومالكا واقتلوا مالكا معي.

قال الأشتر رضوان الله عليه , فما سرني إلا قوله مالك , لو قال الأشتر لقتلوني ووالله لقد عجبت من حمق عبد الله إذ ينادي بقتله وقتلي ; وما كان ينفعه الموت إن قتلت وقتل معي ولم تلد امرأة من النخع غيري , فأفرجت عنه فانهزم وبه ضربة مثخنة في جانب وجهه.

فلما تفرق الناس عن الجمل أشفق أمير المؤمنين (عليه السلام) أن يعود إليه فتعود الحرب ; فقال : عرقبوا الجمل.

فتبادر إليه أصحاب أمير المؤمنين (عليه السلام) فعرقبوه ووقع لجنبه وصاحت عائشة صيحة أسمعت من في العسكرين.

[351]

و قد جاءت الروايات من مبارزة القوم وارتجازهم بما يطول شرحه وإنما اقتصرنا على بعضه للإيجاز والاختصار.

[352]

بشر العامري وحذيفة :

و فيما كان من أمر الجمل وقطع أيدي الآخذين بخطامه وجذ أقدامهم ما رواه مسلمة بن عمارة , قال :حدثني بشر العامري : أقبلت من نحو المدينة أريد الكوفة في زمن عثمان فلقيت علجا قد جعل على وجه حماره ورقة فيها قرآن فأعظمت ذلك وأخذت العلج وشتمته.

فقال : ما تريد مني ؟

قلت : ما هذا الذي صنعت ؟ ويلك تحمل على وجه حمارك ورقة من القرآن ؟

فقال : ويحك إن هذا ومثله مطروح على الكناسات والحشوش عندنا ; إن كتب صاحبكم صارت تمزق وتلقى في الحشوش.

قال : فلقيت حذيفة فأخبرته ; فقال : قد فعلوا ذلك كأني بهم وقد ساروا بها والذي بعث محمدا بالحق نبيا والأزد وضبة قد حفوا بها جذ الله أقدامهم.

قال : فحضرت الوقعة بالبصرة فنظرت إلى الأزد وضبة وتميم حول

[353]

الجمل ونظرت إلى الأزد وقد قطعت أقدامهم من العراقيب وأسفل منها.

قال : ولما قتل كعب بن سور تقدم غلام من الحدان يقال له وائل بن عمر وهو يبكي ويقول :

يا رب فارحم سيد القبائل *** كعب بن سور غرة القنابل

و خير حاف منهم وناعل *** وخير مقتول وخير قاتل

يا كعب فلتبشر بخير كامل *** بنصرك الحق وترك الباطل

فخرج إليه رجل يقال له عبد الرحمن بن هاشم وهو يقول :

لا رحم الله ابن سور إذ مضى *** ولا تولاه بعفو ورضى

فقد قضى بالجور فيما قد قضى *** ودان بالكفر ولم يعص الهوى

و اتبع الضلال من أهل العمى *** فصار بالفتنة مع من قد هوى

ثم ضرب وائل بن عمر فقتله وبرز رجل من بني قشير يقال له خيثمة بن الأسود وهو يقول :

نحن صحاب الجمل المكرم *** ومانعو هودجه المعظم

و ناصرو زوج النبي الأكرم *** ذلك دين الله فينا الأقدم

فخرج إليه رجل من شيعة علي (عليه السلام) يقال له عبيد الله بن سالم الربعي وهو يقول :

نحن مطيعون جميعا لعلي *** إذ أنت ساع في الفساد يا شقي

[354]

إن الغوي تابع أمر الغوي *** قد خالفت زوج النبي للنبي

و خرجت من بيتها مع من هوي

ثم ضرب يده بالسيف فقطعها ووقع لجنبه ورام أصحابه تخليصه فازدحموا عليه فوطئوه.

[355]

تحريض أمير المؤمنين (عليه السلام) ابن الحنفية على القتال :

و روى الواقدي قال : حدثني عبد الله بن الحارث بن الفضيل عن أبيه عن محمد بن الحنفية قال : لما نزلنا البصرة وعسكرنا بها وصففنا صفوفنا دفع أبي علي (عليه السلام) إلي اللواء وقال لا تحدثن شيئا حتى يحدث فيكم ثم نام فنالنا نبل القوم فأفزعته ففزع وهو يمسح عينيه من النوم وأصحاب الجمل يصيحون يا ثارات عثمان فبرز (عليه السلام) وليس عليه إلا قميص واحد ثم قال تقدم باللواء فتقدمت وقلت يا أبة أ في مثل هذا اليوم بقميص واحد.

فقال (عليه السلام) أحرز أمرا أجله والله قاتلت مع النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وأنا حاسر أكثر مما قاتلت وأنا دارع.

ثم دنا من طلحة والزبير فكلمهما ورجع وهو يقول يأبى القوم إلا القتال فقاتلوهم فقد بغوا ودعا بدرعه البتراء ولم يلبسها بعد النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إلا يومئذ فكان بين كتفيه منها وهن فجاء أمير المؤمنين (عليه السلام) وفي يده شسع نعل فقال له ابن عباس ما تريد بهذا الشسع يا أمير المؤمنين.

[356]

فقال أربط بها ما قد تهي من هذا الدرع من خلفي.

فقال ابن عباس : أ في مثل هذا اليوم تلبس مثل هذا ؟

فقال (عليه السلام) : ولم ؟

قال : أخاف عليك.

فقال : لا تخف أن أوتي من ورائي والله يا ابن عباس ما وليت في زحف قط.

ثم قال له : البس يا ابن عباس فلبس درعا سعدية ثم تقدم إلى الميمنة فقال احملوا ثم إلى الميسرة فقال احملوا وجعل يدفع في ظهري ويقول تقدم يا بني فجعلت أتقدم وكانت إياها حتى انهزموا من كل وجه.

و روى الواقدي عن هشام بن سعد عن شيخ من مشايخ أهل البصرة قال : لما صف علي بن أبي طالب (عليه السلام) صفوفه أطال الوقوف والناس ينتظرون أمره فاشتد عليهم ذلك فقالوا حتى متى فصفق بإحدى يديه على الأخرى ثم قال عباد الله لا تعجلوا فإني كنت أرى رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يستحب أن يحمل إذا هبت الرياح قال فأمهل حتى زالت الشمس وصلى ركعتين ثم قال ادعوا ابني فدعي له محمد بن الحنفية فجاء وهو يومئذ ابن تسع عشرة سنة فوقف بين يديه ودعا بالراية فنصبت.

فحمد الله وأثنى عليه وقال أما إن هذه الراية لم ترد قط ولا ترد أبدا وإني واضعها اليوم في أهلها.

و دفعها إلى محمد وقال تقدم يا بني فلما رآه القوم قد أقبل والراية بين يديه تضعضعوا فما هو إلا أن الناس التقوا ونظروا إلى غرة أمير المؤمنين (عليه السلام) ووجدوا مس السلاح فانهزموا.

[357]

و روى الواقدي قال حدثني عبد الله بن محمد بن عمر بن علي بن أبي طالب (عليه السلام) عن أبيه قال : لما سمع أبي أصوات الناس يوم الجمل وقد ارتفعت فقال لابنه محمد ما يقولون قال يقولون يا ثارات عثمان قال فشد عليه وأصحابه يهشون في وجهه يقولون الشمس ارتفعت الشمس ارتفعت وهو يقول الصبر أبلغ في الحجة.

[358]

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في حث أصحابه :

ثم قام خطيبا يتوكأ على قوس عربية فحمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه ثم قال :

أما بعد فإن الموت طالب حثيث لا يفوته الهارب ولا يعجزه فاقدموا ولا تنكلوا وهذه الأصوات التي تسمعونها من عدوكم فشل واختلاف إنا كنا نؤمر في الحروب بالصمت فعضوا على النواجذ واصبروا لوقع السيوف والذي نفسي بيده لألف ضربة

بالسيف أهون علي من موت على الفراش فقاتلوهم صابرين محتسبين فإن الكتاب معكم والسنة معكم ومن كانا معه فهو القوي اصدقوهم بالضرب فأي امرئ أحس من نفسه شجاعة وإقداما وصبرا عند اللقاء فلا يبطر به ولا يرى أن له فضلا على من هو دونه وإن رأى من أخيه فشلا أو ضعفا فليذب عنه كما يذب عن نفسه فإن الله لو شاء لجعله مثله.

[259]

تأهب أمير المؤمنين (عليه السلام) للحرب :

ثم دعا بدرعه فلبسه حتى إذا وقع موقعه من بطنه أمر ابنه محمدا أن يحزمها بعمامة ثم انتضى سيفه فهزه حتى رضي به وغمده وتقلده والناس على صفوفهم وأصحاب الجمل قد دنوا فأمر أمير المؤمنين (عليه السلام) بتسوية الصفوف حتى إذا اعتدلت دفع الراية إلى ابنه محمد بن الحنفية وقال تقدم بالراية واعلم أن الراية أمام أصحابك فكن متقدما يلحقك من خلفك فإن كان لمن يتقدم من أصحابك جولة رجع إليك وجعل (عليه السلام) الناس أثلاثا مضر في القلب واليمن في الميمنة عليهم مالك الأشتر وفي الميسرة عمار بن ياسر .

تأهب أصحاب الجمل للقتال :

و صف أصحاب الجمل صفوفهم فجعلوا على حنظلة هلال بن وكيع وعلى بني عمرو من بني تميم عمير بن عبد الله بن مرقد وعلى بني سعد زيد بن جبلة بن مرداس وعلى بني ضبة الرباب عمرو بن يثربي وراية الأزد مع عمرو بن الأشرف العتكي.

[360]

قال محمد بن علي رحمه الله : فالتقينا وقد عجل أصحاب الجمل وزحفوا علينا فصاح أبي (عليه السلام) امض ; فمضيت بين يديه أقطوا بالراية قطوا , وتقدم سرعان أصحابنا فلاذ أصحاب الجمل ونشب القتال واختلفت السيوف وأبي بين كتفي يقول يا بني تقدم ولست أجد متقدما وهو يقول تقدم.

فقلت : ما أجد متقدما إلا على الأسنة.

فغضب أبي (عليه السلام) , وقال : أقول لك تقدم فتقول على الأسنة ; ثق يا بني وتقدم بين يدي على الأسنة ; وتناول الراية مني وتقدم يهرول بها فأخذتني حدة فلحقته وقلت : أعطني الراية.

فقال لي : خذها , وقد عرفت ما وصف لي.

ثم تقدم بين يدي وجرد سيفه وجعل يضرب به ورأيته وقد ضرب رجلا فأبان زنده ثم قال الزم رايتك يا بني فإن هذا استكفاء.

فرمقت لصوت أبي ولحظته فإذا هو يورد السيف ويصدره ولا أرى فيه دما وإذا هو يسرع إصداره فيسبق الدم , وأحدقنا بالجمل وصار القتال حوله , واضطربنا أشد اضطراب رآه راء حتى ظننت أنه القتل.

فصاح أبي (عليه السلام) : يا ابن أبي بكر اقطع البطان.

[361]

فقطعه , وألقى الهودج , فكأن والله الحرب جمرة صب عليها الماء.

و روى الواقدي قال ابن جريج : كان محمد بن الحنفية رضي الله عنه يحمل راية أبيه (عليه السلام) يوم الجمل ورأى منه بعض النكوص فأخذ الراية منه.

قال محمد رضي الله عنه : فأدركته وعالجته على أن يردها فأبى علي طويلا ; ثم ردها وقال : خذها وأحسن حملها وتوسط أصحابك ولا تخفض عاليها واجعلها مستشرفة يراها أصحابك.

ففعلت ما قال لي.

فقال عمار بن ياسر : يا أبا القاسم ما أحسن ما حملت الراية اليوم.

فقال له أمير المؤمنين (عليه السلام) : بعد ما ذا.

فقال عمار : ما العلم إلا بالتعلم .

نهي أمير المؤمنين (عليه السلام) عن قتل أبي سفيان بن حويطب :

و روى إبراهيم بن نافع عن سعيد بن أبي هند قال أخبرني أصحابنا ممن حضر القتال يوم البصرة : أن عليا قاتل يومئذ أشد القتال وسمعوه وهو يقول تبارك الله الذي أذن لهذه السيوف تصنع ما تصنع ونظر يومئذ إلى أبي سفيان بن حويطب بن عبد العزى وهو يسترجع من الخوف وما التحم من الشر.

فقال له أمير المؤمنين : انحز إلى أصحابي ولا تقتل نفسك ويلك.

فانحاز إليهم , إلى أن حمل أصحاب الجمل على أمير المؤمنين (عليه السلام) حملة فإذا هو قد صار في حيزهم فحمل عليه رجل من همدان وعلي يصيح : كف عنه , والهمداني لا يفهم , حتى قطعه إربا إربا.

فقال (عليه السلام) : يا ويحه إن أتلفته السيوف وقد كان مقتله إلي بغيضا.

[362]

حديث ابن الزبير عن حرب الجمل :

و روى ابن أبي الزناد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عبد الله بن الزبير قال : لم يأخذ بزمام جمل عائشة يوم الجمل أحد إلا قتل وكان كلما جاء إنسان ليأخذ بخطام جملها قالت من أنت حتى أتيتها وكنت آخر من أخذه حين لم أر أحدا يأخذه ; فقالت

: من أنت ؟

فقلت : ابن أختك عبد الله.

فقالت : وا ثكل أسماء.

فأقبل الأشتر إلي , فتواجينا , فجعلت أقول : اقتلوني ومالكا اقتلوا مالكا معي ; وجعل يقول اقتلوني وعبد الله ; فلو قال : ابن الزبير ; وقلت : الأشتر , لقتلنا جميعا , فاثقلني الجراح حتى سقطت وأنا مجروح مطروح في القتلى.

فأتاني الأسود بن أبي البختري فوجدني صريعا , فأخذني بالعرض على فرسه وسار بي , فجعل إذا أبصر إنسانا من أصحاب علي ألقاني وإذا لم ير أحدا حملني حتى مر به رجل يعرفني فحمل عليه فأخطأه وأصاب رجل فرسه ثم حملني وانطلق بي حتى أنزلني على رجل من بني الغبراء له امرأتان تميمية وبكرية من شيعة عثمان فغسلت جراحتي وحشتها كافورا فو الله ما فاح منها شيء وجعلت عائشة تسأل عني فلا تخبر عني بشيء حتى إذا برئت جراحتي قلت لصاحب منزلي انطلق إلى عائشة وخبرها

[363]

بي وإياك أن يراك محمد بن أبي بكر , وقلت له : إنه رجل قصير ووصفته له.

فانطلق فأخبرها وقال لها إنه قد أمرني أن لا يراني محمد بن أبي بكر.

قالت : كلا , فانطلق إلى محمد بن أبي بكر فادعه إلي ; وذلك بعد هزيمتنا ووضع الحرب أوزارها.

فانطلق إليه فدعاه , فجاءها , فقالت له : يا أخي ما تراك فاعلا في أمر أمرتك به ؟

قال : ما هو ؟

قالت : انطلق إلى عبد الله بن الزبير فجئني به.

فجاء محمد إلى موضعي فدخل على عبد الله فلما رآه خافه وقال ما لك فعل الله بك وفعل.

فقال محمد : لا تعجل ; ثم أخبر الخبر.

قال ابن الزبير : فخرجت معه فتأخر لي عن عجز الفرس فركبت بين يديه وجعل يكف ثيابه لا تصيبني وأنا أؤخر ثيابي عنه لا تصيبه ولم يزل يسير بي حتى أتينا عائشة ; فسمعت سب عثمان علانية , فبكيت , وقلت : لا أقيم ببلد يسب فيه عثمان علانية.

فامتنعت منهم وأخذت راحلة من صاحبي فإذا على البصرة حرس فامتنعت منهم فإذا رجل يحيد مني وأحيد منه فإذا هو عبد الرحمن بن الحارث.

فأبصرت رجلا مغلولا لفرسه ; فقلت هذا والله فرس الزبير.

فأردت قتله , فقال عبد الرحمن : لا تعجل عليه فإنه لن يفلتنا.

فإذا هو غلام الزبير قد أقبل , فقلت له : أين الزبير ؟

فقال : لا أدري.

فعلمت أن الزبير قد قتل.

[364]

تحذير شباب قريش من الحرب :

و روى محمد بن عبد الله بن عبيد عن عمرو بن دينار عن صفوان قال : لما تصاف الناس يوم الجمل صاح صائح من أصحاب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب يا معاشر شباب قريش أراكم قد لججتم وغلبتم على أمركم هذا وإني أنشدكم الله أن تحقنوا دماءكم ولا تقتلوا أنفسكم اتقوا الأشتر النخعي وجندب بن زهير العامري فإن الأشتر نشر درعه حتى يعفو أثره وإن جندبا يخرم درعه حتى يشمر عنه وفي رايته علامة حمراء فلما التقى الناس أقبل الأشتر وجندب قبال الجمل يرفلان في السلاح حتى قتلا عبد الرحمن بن عتاب بن أسيد ومعبد بن زهير بن خلف بن أمية وعمد جندب لابن الزبير فلما عرفه قال أتركك لعائشة.

و روى محمد بن عبد الله بن عبيد بن أبي وهب قال : قطعت يوم الجمل يد عبد الرحمن وفيها الخاتم فأخذه نثر فطرحه باليمامة فأخذه أهل اليمامة واقتلعوا حجره وكان ياقوتا فابتاعه رجل منهم بخمسمائة دينار فقدم به مكة فباعه بربح عظيم.

و روى محمد بن موسى عن محمد بن إبراهيم عن أبيه قال : سمعت معاذ بن عبيد

[365]

الله التميمي وكان قد حضر الجمل يقول لما التقينا واصطففنا نادى منادي علي بن أبي طالب (عليه السلام) يا معاشر قريش اتقوا الله على أنفسكم فإني أعلم أنكم قد خرجتم وظننتم أن الأمر لا يبلغ إلى هذا فالله الله في أنفسكم فإن السيف ليس له بقيا فإن أحببتم فانصرفوا حتى نحاكم هؤلاء القوم وإن أحببتم فإلي فإنكم آمنون بأمان الله قال فاستحيينا أشد الحياء وأبصرنا ما نحن فيه ولكن الحفاظ حملنا على الصبر مع عائشة حتى قتل من قتل منا فو الله لقد رأيت أصحاب علي (عليه السلام) وقد وصلوا إلى الجمل وصاح منهم صائح اعقروه فعقروه فوقع.

فنادى علي (عليه السلام) : من طرح السلاح فهو آمن ومن دخل بيته فهو آمن.

فو الله ما رأيت أكرم عفوا منه.

و روى سليمان بن عبد الله بن عويمر الأسلمي قال : قال ابن الزبير إني لواقف في يمين رجل من قريش إذ صاح صائح يا معشر قريش أحذركم الرجلين جندب العامري والأشتر النخعي قال وسمعت عمارا يقول لأصحابنا ما تريدون وما تطلبون

فناديناه نطلب بدم عثمان فإن خليتم بيننا وبين قتلته رجعنا عنكم فقال عمار لو سألتمونا أن ترجعوا عنا بئس الفحل فإنه ألأم الغنم فحلا وشرها لجما ما أعطيناكموه ثم التحم القتال وناديناهم مكنونا من قتلة عثمان ونرجع عنكم فنادانا عمار قد فعلنا هذه عائشة وطلحة والزبير قتلوه عطشا فابدءوا بهم فإذا فرغتم منهم تعالوا إلينا نبذل لكم الحق فأسكت والله أصحاب الجمل كلهم.

[366]

سؤال عمار أصحاب الجمل :

و روى عبد الله بن رباح مولى الأنصار عن عبد الله بن زياد مولى عثمان بن عفان قال : خرج عمار بن ياسر يوم الجمل إلينا فقال يا هؤلاء على أي شيء تقاتلوننا فقلنا نقاتلكم على أن عثمان قتل مؤمنا فقال عمار نحن نقاتلكم على أنه قتل كافرا قال وسمعت عمارا يقول والله لو ضربتمونا حتى نبلغ سعفات هجر لعلمنا أنا على الحق وأنكم على الباطل وسمعته يقول والله ما نزل تأويل هذه الآية إلا اليوم يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدَّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ ويُحِبُّونَهُ قال ولما جال الناس تلك الجولة قتل بينهم خلق كثير وسمعت أصوات السيوف في الرءوس كأنها مخاريق قال الراوي والله لقد مررت بعد الوقعة بالبصرة فدنوت من دير القصارين فسمعت أصوات الثياب على الحجارة

[367]

فشبهتها بالأصوات التي كانت من السيوف على الرءوس يومئذ وفي تلك الجولة قتل طريف بن عدي بن حاتم وفقأت عين عدي.

[368]

خذلان عائشة :

و روى محمد بن عبد الله عن عمرو بن دينار قال : قال أمير المؤمنين (عليه السلام) لابنه محمد خذ الراية وامض وعلي (عليه السلام) خلفه.

فناداه يا أبا القاسم ؟

فقال : لبيك يا أبة.

فقال : يا بني لا يستفزك ما ترى ; قد حملت الراية وأنا أصغر منك فما استفزني عدوي وذلك إنني لم ألق أحدا إلا حدثتني نفسي بقتله فحدث نفسك بعون الله بظهورك عليهم ولا يخذلك ضعف النفس باليقين فإن ذلك أشد الخذلان.

قال : فقلت ; يا أبة أرجو أن أكون كما تحب إن شاء الله.

قال : فالزم رأيتك , فإذا اختلطت الصفوف قف في مكانك وبين أصحابك فإن لم تر أصحابك فسيرونك.

قال : والله إني لفي وسط أصحابي فصاروا كلهم خلفي وما بيني وبين القوم أحد يردهم عني وأنا أريد أن أتقدم في وجوه

القوم فما شعرت إلا بأبي من خلفي قد جرد سيفه وهو يقول لأتقدم حتى أكون أمامك فتقدم (عليه السلام) بين يدي يهرول ومعه طائفة من أصحابه فضربوا الذين في وجهه حتى انهضوهم ولحقتهم بالراية فوقفوا وقفة واختلط الناس وركدت السيوف ساعة فنظرت إلى أبي يفرج الناس يمينا وشمالا ويسوقهم أمامه فأردت أن أجول فكرهت خلافه ووصيته لي لا تفارق الراية حتى انتهى إلى الجمل وحوله أربعة آلاف

[369]

مقاتل من بني ضبة والأزد وتميم وغيرهم وصاح اقطعوا البطان.

فأسرع محمد بن أبي بكر رحمه الله فقطعه , واطلع على الهودج.

فقالت عائشة : من أنت ؟

فقال : أبغض أهلك إليك.

قالت : ابن الخثعمية ؟

قال : نعم ; ولم تكن دون أمهاتك.

قالت : لعمري بل هي شريفة دع عنك هذا ; الحمد لله الذي سلمك.

قال : قد كان ذلك ما تكرهين.

قالت : يا أخي لو كرهته ما قلت ما قلت.

قال : كنت تحبين الظفر وإني قتلت.

قالت : قد كنت أحب ذلك ; لكن لما صرنا إلى ما صرنا إليه أحببت سلامتك لقرابتي منك فاكفف ولا تعقب الأمور وخذ الظاهر ولا تكن لومة ولا عذلة فإن أباك لم يكن لومة ولا عذلة.

قال : وجاء علي (عليه السلام) فقرع الهودج برمحه , وقال : يا شقيراء أ بهذا أوصاك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟

قالت : يا ابن أبي طالب قد ملكت فأسجح.

[370]

و جاءها عمار رضي الله عنه فقال لها : يا أماه كيف رأيت ضرب بنيك اليوم دون دينهم بالسيف ؟

فصمتت ولم تجبه.

و جاءها مالك الأشتر رحمه الله وقال لها : الحمد لله الذي نصر وليه وكبت عدوه جاءَ الْحَقُّ وزَهَقَ الْباطِلُ إِنَّ الْباطِلَ كانَ

زَهُوقاً فكيف رأيت صنع الله بك يا عائشة ؟

فقالت : من أنت ثكلتك أمك ؟

فقال : أنا ابنك الأشتر.

قالت : كذبت لست بأمك.

قال : بلى وإن كرهت.

فقالت : أنت الذي أردت أن تثكل أختي أسماء بابنها ؟

فقال : المعذرة إلى الله ثم إليك ; والله إني لو لا كنت طاويا ثلاثة لأرحتك منه وأنشأ يقول بعد الصلاة على الرسول : طالب قد ملكت فأسجح.

أ عائش لو لا إنني كنت طاويا *** ثلاثا لغادرت ابن أختك هالكا

غداة ينادي والرماح تنوشه *** بآخر صوت اقتلوني ومالكا

فبكت , وقالت : فخرتم وغلبتم وكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

و نادى أمير المؤمنين (عليه السلام) محمدا , فقال : سلها هل وصل إليها شيء من

[371]

الرماح والسهام ؟

فسألها , فقالت : نعم وصل إلي سهم خدش رأسي وسلمت منه يحكم الله بيني وبينكم.

فقال محمد : والله ليحكمن الله عليك يوم القيامة ما كان بينك وبين أمير المؤمنين (عليه السلام) حتى تخرجي عليه وتؤلبي الناس على قتاله وتنبذي كتاب الله وراء ظهرك.

فقالت : دعنا يا محمد وقل لصاحبك يحرسني.

قال والهودج كالقنفذ من النبل ; فرجعت إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فأخبرته بما جرى بيني وبينها وما قلت وما قالت ; فقال (عليه السلام) : هي امرأة والنساء ضعاف العقول تول أمرها واحملها إلى دار بني خلف حتى ننظر في أمرها.

فحملتها إلى الموضع وإن لسانها لا يفتر عن السب لي ولعلي (عليه السلام) والترحم على أصحاب الجمل.

[373]

حديث معاذ بن عبيد الله عن حرب الجمل :

و روى الواقدي قال حدثنا هشام بن سعد عن عباس بن عبد الله بن معبد عن معاذ بن عبيد الله التميمي قال : لما قدمنا

البصرة مع عائشة وأقمنا ما أقمنا ندعوا الناس إلى نصرتنا والقيام معنا فالقابل لما ندعوا إليه والآبي له ونحن على ما نحن عليه نقول لا نقاتل ابن أبي طالب أبدا إلى أن قيل قد نزل علي فما أدري متى نشبت الحرب أنشبها الصبيان وأوقدها العبيد وإذا الجمل رحل والناس يهوون إلى القتال وإذا عسكر علي قد تحرك فبادر أصحابنا فرموا وجلبوا وصيحوا وأكثروا فسمعت عائشة تقول هذا أول الفشل وعلي (عليه السلام) وعسكره لا ينسبون ثم صف علي (عليه السلام) أصحابه وولى الرايات مواضعها وأعطى ابنه محمدا الراية العظمى راية بيضاء تملأ الرمح ثم وقف علي (عليه السلام) في القلب وحمل

[374]

سرعان الميمنة والميسرة وحمل سرعان القلب.

فأسمع عليا ينادي ابنه تقدم بالراية وتوسط القلب فينكر من تقدمك فإن جالوا أو دفعوا يلحقك من تأخر عنك وكان خلفك ثم سمعته يقول أصحابك أمامك تقدم تقدم وتقدم علي والراية بين كتفيه وجرد سيفه وضرب رجلا فأبان زنده.

ثم انتهى إلى الجمل وقد اجتمع الناس حوله واختلطوا وأحدقوا به من كل جانب وناحية واستجن الناس تحت بطان الجمل فأنظر والله إلى علي (عليه السلام) يصيح بمحمد بن أبي بكر أقطع البطان وأرى عليا قد قتل ممن أخذ بخطام الجمل عشرة بيده وكلما قتل رجلا مسح سيفه بثيابه ثم جاوزه حتى صرنا في أيديهم كأننا غنم نساق فانصرمنا حينئذ أمرنا وتلاومنا وندمنا.

[375]

حديث عبد الرحمن بن الحارث عن حرب الجمل :

و روى الواقدي قال حدثنا محمد بن عبد الله بن عبيد عن عكرمة بن خالد قال : قال عبد الرحمن بن الحارث بن هشام كنت أنا والأسود بن أبي البختري وعبد الله بن الزبير قد تواعدنا وتعاهدنا بالبصرة لئن لقينا القوم لنموتن أو لنقتلن عليا وعلي وأصحابه لم يكونوا عدلوا صفوفهم ثم نظرنا إليهم وقد عدلوا صفوفهم ميمنة وميسرة قال عبد الرحمن كنت واقفا عند عبد الله بن الزبير والأسود بن البختري فقلت ما وراءكما قالا نحن على ما كنا عليه إلى أن مالت ميمنتهم على ميسرتنا فهزمتهم ومالت ميسرتهم على ميمنتنا ففعلوا مثل ذلك ورأيت عليا وراء ابنه محمد وقد تقدم يحمل علما أسود عظيما وعلي شاهر سيفه فلقي رجلا من ضبة فقتله ثم ضرب آخر فقتله ثم خلص إلينا ووقف عند الرجلين فلاذ كل منا بصاحبه وجعل الأسود يقول هل من مهرب وتقدم ابن الزبير فأخذ بخطام الجمل فكان آخر من أخذه فأنظر إلى علي قد انتهى إلى الجمل وسيفه يرعف دما وهو واضعه على عاتقه وهو يصيح بمحمد بن أبي بكر اقطع البطان فكانت الهزيمة ولم نر أمثل من لزوم السواد الأكبر فلما انهزمنا خرجنا خائفين من مسالح علي فما زلنا نخاف الطلب حتى سرنا مراحل.

[376]

هودج عائشة :

و روى الواقدي عن ابن الزبير قال : خرجت عائشة يوم البصرة على جملها عسكر وقد اتخذت عليه خدرا ودقته بالدروع خشية أن يخلص إليها النبل وسار إليهم علي بن أبي طالب حتى التقوا واقتتلوا قتالا شديدا وأخذ بخطام الجمل يومئذ سبعون رجلا من قريش كلهم قتل وجرح مروان بن الحكم وعبد الله بن الزبير ورأيتهما جريحين فلما قتلت تلك العصابة من قريش أخذ رجال كثير من بني ضبة بخطام الجمل فقتلوا عن آخرهم ولم يأخذ بخطامه أحد إلا قتل حتى غرق الجمل بدماء القتلى وتقدم محمد بن أبي بكر فقطع بطان الجمل وحمل الخدر ومعه أصحابه وفيه عائشة حتى أنزلوها بعض دور البصرة وولى الزبير منهزما فأدركه ابن جرموز فقتله ولما رأى مروان توجه الأمر على أصحاب الجمل نظر إلى طلحة وهو يريد الهرب فقال والله لا يفوتني ثاري من عثمان فرماه بسهم قطع أكحله فسقط بدمه وحمل من موضعه وهو يقول إنا لله هذا سهم لم يأتني من بعد ما أراه إلا من

[377]

معسكرنا والله ما رأيت مصرع شيخ أضيع من مصرعي ثم لم يلبث أن هلك.

و روى الواقدي أيضا عن موسى بن عبد الله عن الحسين بن عطية عن أبيه قال : شهدت الجمل مع علي (عليه السلام) فلقد رأيت جمل عائشة وعليه هودجها وعليه دروع الحديد ثم لقد رأيت فيه من النبل والنشاب أمرا عظيما ثم عقر فما سمعت كصوته شيئا قط ونادى أصحاب علي (عليه السلام) عليكم الجمل فاعقروه فشدت عليه رجال فعقروه فوقع لجنبه.

و روى يزيد بن أبي زياد عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال : نظرت الهودج يوم الجمل وهو كأنه قنفذ من النشاب والنبل.

و روى ابن أبي سبرة عن علقمة بن أبي علقمة عن أبيه قال : جعلنا الهودج من خشب فيه مسامير الحديد وفوقه دروع من حديد وفوقها طيالسة من خز أخضر وفوق ذلك أدم أحمر وجعلنا لعائشة منه منظر العين فما أغنى ذلك عنها من القوم.

[378]

حديث عائشة عن حرب الجمل :

و روى الواقدي عن رجاله العثمانية عن عائشة في ذكر الحال وهزيمة القوم في الحرب وشرح الصورة ورأيها فيما كان من ذلك فقال حدثنا محمد بن حميد عن حميدة بنت عبيد بن رفاعة عن أمها كبشة بنت كعب قالت : كان أبي لقي على عثمان حزنا عظيما وبكاه ولم يمنعه من الخروج إلا أن بصره ذهب ولم يبايع عليا ولم يقربه بغضا له ومقتا وخرج علي (عليه السلام) من المدينة فلما قدمت عائشة منصرفة من البصرة جاءها أبي فسلم على الباب ثم دخل وبينها وبينه حجاب فذكرت له بعض أمر ولم تشرحه له فلما أمسينا بعثنا إلى عائشة واستأذنا عليها فأذنت لنا قالت كبشة فدخلت في نسوة من الأنصار فحدثتنا بمخرجها وأنها

لا تظن الأمر يبلغ إلى ما بلغ.

ثم قالت لقد عمل لي على هودج جملي ثم ألبس الحديد ودخلت فيه وقمت في وسط من الناس أدعو إلى الصلح وإلى كتاب الله والسنة فليس أحد يسمع من كلامي حرفا وعجل من لقينا بالقتال فرموا النبل وصرعتهم القوم فلا أدرك حتى قتل من أصحاب علي رجل أو رجلان ثم تقارب الناس ولحم الشر وصار القوم ليس لهم همة إلا جملي ولقد دخلت علي سهام فجرحتني فأخرجت ذراعها وأرتنا جرحا على عضدها فبكت وأبكتنا قالت وجعل كلما أخذ رجل بخطام جملي قتل

[379]

حتى أخذه ابن أختي عبد الله فصحت به وناشدته بالرحم أن يتجافاني فقال يا أماه هو الموت يقتل الرجل وهو عظيم الغنى عن أصحاب على نيته خير من أن يدرك وقد فارقته نيته فصحت وا ثكل أسماء فقال يا أماه الزمي الصمت وقد لحم ما ترين فأمسكت وكان ممن معنا فتيان أحداث من قريش وكان لا علم لهم بالحرب ولم يشهدوا قتالا فكانوا جزرا للقوم فإنا لعلى ما نحن فيه وقد كان الناس كلهم حول جملي فاسكتوا ساعة فقلت خير أم شر إن سكوتكم ضرس القتال فإذا ابن أبي طالب أنظر إليه يباشر القتال بنفسه وأسمعه يصيح الجمل الجمل فقلت أراد والله قتلي فإذا هو قد دنا منه ومعه محمد بن أبي بكر أخي ومعاذ بن عبيد الله التميمي وعمار بن ياسر وقطعوا البطان واحتملوا الهودج فهو على أيدي الرجال يرفلون به إذ تفرق من كان معنا فلم أحس لهم خبرا ونادى منادي علي بن أبي طالب لا يتبع مدبر ولا يجهز على جريح ومن طرح السلاح فهو آمن فرجعت إلى الناس أرواحهم فمشوا على الناس واستحيوا من السعي فأدخلت منزل عبد الله بن خلف الخزاعي وهو والله منزل رجل قد قتل وأهله مستعبرون عليه ودخل معي كل من خاف عليا ممن نصب له واحتمل ابن أختي عبد الله جريحا فو الله إني لعلى ما أنا عليه وأنا أسأل ما فعل أبو محمد طلحة إذ قال

[380]

قائل قتل فقلت ما فعل أبو سليمان فقيل قد قتل فلقد رأيتني تلك الساعة جمدت عيناي فانقطعت من الحزن وأكثرت الاسترجاع والندامة وذكرت من قتل فبكيت لقتلهم فنحن على ما نحن عليه وأنا أسأل عن عبد الله فقيل لي قتل فازددت هما وغما حتى كاد ينصدع قلبي فو الله لقد بقيت ثلاثة أيام بلياليهن ما دخل فمي طعام ولا شراب وإني عند قوم ما يقصرون في ضيافتي وإن الخبز في منازلهم لكثير ولكني أذهب أعالج الشبع من الطعام فما أقدر فنعوذ بالله من الفتنة ولقد كنت ألبت على عثمان حتى نيل منه ما نيل فلما قتل ندمت وعلمت أن المسلمين لا يستخلفون مثله أبدا كان والله أجلهم حلما وأعبدهم عبادة وأبذلهم عند النائبة وأوصلهم للرحم.

قالت كبشة بنت كعب فرجعت إلى أبي فقال ما حدثتكم به عائشة فأخبرته بما قالت فقال يرحم الله عائشة ويرحم الله أمير

المؤمنين عثمان هي كانت أشد الناس عليه ولقد نزعت وتابت وأرادت أن تأخذ بثأره فجاء خلاف ما أرادت فرحمهم الله جميعا ثم قال رحم الله عمر بن الخطاب كان والله يرى هذا كله قال يوما إن كان يصير اختلاف فإنما يكون بينكم وإن كان بينكم دخل عليكم ما تكرهون.

[381]

حديث مروان عن هزيمة أصحاب الجمل :

و روى الواقدي قال حدثنا محمد بن نجار عن عائشة بنت سعد قالت : اشتكى أبي فدخل عليه مروان بن الحكم يعوده فذكر عائشة فقال مروان يا أبا إسحاق لقد حضرت أمورا فاعتزلت عنها يوم الدار وحصرتها فقاتلت عن أمامي حتى وقعت جريحا ثم حضرت الجمل وإني لأنظر إلى هودج عائشة وعليه دروع الحديد وقد انهزم الناس وما أخذ بخطام الجمل أحد إلا مات فقال له أبي وهو يبكي وعمار وسطها فقال مروان إي والله فبكى أبي ثم قال خرجت يومئذ فحملت جريحا فلم أر يوما أسرع انكشافا من يوم الجمل فقال له أبي ما أحب أن حضرت الدار آمرا ولا ناهيا ولا أحب أن حضرت الجمل آمرا ولا ناهيا ثم خرج مروان وجعل أبي يبكي ويقول ليت شعري ما لقي عمار وأصحابه وأمثاله من أصحابنا رحمهم الله وأسكنهم الجنة.

و روى ابن أبي سبرة عن علقمة عن أمه قالت : سمعت عائشة تقول لقد رأيتني يوم الجمل وأن على هودجي دروع الحديد والنبل يخلص إلي منها وأنا في الهودج فهون علي ذلك ما صنعنا بعثمان وألبنا عليه حتى قتلناه وجرينا عليه الغواة فنعوذ بالله من الفرقة بين المسلمين.

[382]

حديث حبة العرني عن حرب الجمل :

و روى منصور بن أبي الأسود عن مسلم الأعور عن حبة العرني قال : والله إني لأنظر إلى الرجل الذي ضرب الجمل ضربة على عجزه فسقط لجنبه فكأني أسمع عجيج الجمل وما سمعت قط عجيجا أشد منه قال ولما عقر الجمل انقطع بطان الهودج فزال عن ظهر الجمل فانفض أهل البصرة منهزمين وجعل عمار بن ياسر ومحمد بن أبي بكر يقطعان الحقب والأنساع واحتملاه أي الهودج فوضعاه على الأرض فأقبل علي بن أبي طالب حتى وقف عليها وهي في هودجها فقرع الهودج بالرمح وقال يا حميراء أ رسول الله أمرك بهذا المسير ونادى عمار بن ياسر يومئذ لا تجهزوا على جريح ولا تتبعوا موليا وأسر يومئذ سعيد وأبان ابنا عثمان فجيء بهما إلى علي بن أبي طالب (عليه السلام) فلما وقفا بين يديه قال بعض من حضر اقتلهما يا أمير المؤمنين فقال علي (عليه السلام) بئس ما قلتم آمنت الناس كلهم وأقتل هذين الرجلين ثم أقبل عليهما وقال لهما ارجعا عن غيكما وانزعا وانطلقا حيث شئتما فإن أحببتما فأقيما عندي أصل أرحامكما فقالا يا أمير المؤمنين نحن نبايع وننصرف فبايعا وانصرفا.

[383]

باب ذكر مقتل طلحة بن عبيد الله

روى إسماعيل بن عبد الملك عن يحيى بن شبل عن جعفر بن محمد عن أبيه (عليه السلام) قال حدثني أبي علي زين العابدين (عليه السلام) قال قال لي مروان بن الحكم لما رأيت الناس يوم الجمل قد انكشفوا قلت والله لأدركن ثاري ولأفوزن به الآن فرميت طلحة فأصبت نساه فجعل الدم لا يرقأ فرميت ثانية فجاءت به فأخذوه حتى وضعوه تحت شجرة فبقي تحتها ينزف الدم حتى مات.

و روى ابن أبي سليمان عن ابن خيثمة قال قال عبد الملك بن مروان يوما وقد ذكر عثمان وقتلته وطلحة ولو لا أن أبي قتله لم يزل في قلبي جرح منه إلى اليوم وقال عبد الملك سمعت أبي يقول نظرت إلى طلحة يوم الجمل وعليه درع ومغفر لم أر منه إلا عينيه فقلت كيف لي به فنظرت إلى فتق في درعه فرميته فأصبت نساه فقطعته فإني أنظر إلى مولى له يحمله على ظهره موليا فلم يلبث أن مات.

[384]

و روى عبد الحميد بن عمران عن ابن كعب القرظي عن رواح بن الحارث عن عمير قال : لقيت طلحة بن عبيد الله فقلت له يا أبا محمد ما أخرجك إلى هاهنا أ لم تبايع عليا بالمدينة طائعا غير مكره قال دعني والله ما بايعته إلا واللج على عنقي فلما التقى الناس يوم الجمل جاءه سهم غرب قطع نساه فنزف الدم حتى مات.

و روى أبو سهل عن الحسن قال : لما رمي طلحة ركب بغلا وقال لغلامه التمس لي مكانا أدخل فيه فقال الغلام ما أدري أين أدخلك فقال طلحة ما رأيت كاليوم أضيع من دم شيخ مثلي قال الحسن وكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً.

و روى علي بن زيد بن جدعان قال : لما بلغ طلحة أن الزبير قد اندفع ذهب في طلبه وقد التقى وهم لا يعلمون برجوع الزبير فمر مروان بن الحكم فرآه فقال لا أطلب ثاري بدم عثمان بعد اليوم والله وقاتل عثمان بين أعجاز الإبل وصدورها ثم رماه بسهم فقتله.

و روى سفيان بن عيينة عن أبي موسى عن الحسن بن أبي الحسن قال : خرج

[385]

طلحة بن عبيد الله من رساتيق أقطعه إياها عثمان بن عفان أن كان بعضها ينيخ به ألف راكب ثم يروحون فلم يعرف له ذلك حتى سعى في دمه فلما كان يوم البصرة خرج للقتال وقد لبس درعا استجن بها من السهام إذ أتاه سهم فأصابه وكانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَراً مَقْدُوراً ورأيته يقول حين أصابه السهم ما رأيت كاليوم مصرع شيخ أضيع من مصرعي قال الحسن وقد كان له قبل ذلك

جهاد مع رسول الله ووقاه بيده فضيع أمر نفسه ولقد رأيت قبره مأوى السقاءين فيضع عنده أحدهم قربته ثم يقضي حاجته فما رأيت أعجب من هؤلاء القوم وأما الزبير فإنه أتى حيا من أحياء العرب فقال أجيروني وقد كان قبل ذلك يجير ولا يجار عليه ثم قال الحسن وما الذي أخافك والله ما أخافك إلا ابنك قال فاتبعه ابن جرموز في تلول من أتاليل العرب والله ما رأيت مثله أحدا قط فضاع دمه وهذا قبره بوادي السباع مخراة الثعالب خرجا ولما خرجا لم يدركا ما طلبا ولم يرجعا إلى ما تركا فعز علي هذه الشقوة التي كتبت عليهما.

و روى قيس بن أبي حازم قال : رمي طلحة بسهم في ركبتيه فجعل يعدو والدم يفور فإذا أمسكوا رأس الجرح انتفخت ركبته فصاح دعوه فإنه سهم أرسله الله فلم يزل الدم ينزف حتى مات فدفنوه على شاطئ الفرات فرأى بعض الناس في

[386]

النوم طلحة يقول أريحوني من هذا الماء فإني منه في أذى شديد رأى الرجل تلك الرؤيا ثلاث ليال فنبشوه فإذا قبره قد أخضر كأنه السلق فاستخرجوه فأخذ ما يلي الأرض من لحيته ووجهه قد أكلته الأرض فاشتريت له دار من دور آل بكر بعشرة آلاف درهم فدفن فيها.

فهذه الأخبار جملة مختصرة صحيحة في قتل طلحة بن عبيد الله طريقها من العامة من أوضح طريق وأسنادها أصح أسانيد وليس بين الأمة فيها اختلاف وكل يدل على أن طلحة قتل وهو مصر على الحرب غير نادم ولا مرعو وكل غير وفاق لمذهب الحشوية وخلاف على مذهب المعتزلة وشاهد ببطلان ما ادعوه من توبته.

[387]

باب ذكر مقتل الزبير بن العوام

روى المفضل بن فضالة عن يزيد بن الهاد عن محمد بن إبراهيم قال هرب الزبير على فرس له يدعى بذي الخمار حتى وقع بسفوان فمر بعبد الله بن سعيد المجاشعي وابن مطرح السعدي فقالا له يا حواري رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أنت في ذمتنا لا يصل إليك أحد فأقبل معهما فهو يسير مع الرجلين إذ أتي الأحنف بن قيس برجل فقال له أريد أن أسر إليك سرا فقال ادن مني فدنا منه فقال هذا الزبير قد هرب وإني رأيته بين رجلين من بني مجاشع ومنقر أظنه يريد التوجه إلى المدينة فرفع الأحنف صوته وقال ما أصنع إن كان الزبير ألقى

[388]

الفتنة بين المسلمين حتى ضرب بعضهم بعضا ثم هو يريد أن يرجع إلى أهله بالمدينة سالما فسمعه ابن جرموز فنهض ومعه رجل يقال له فضالة بن حابس وعلما أن الأحنف إنما رفع صوته بذكر الزبير لكراهته أن يسلم وإيثاره أن يقتل فاتبعاه جميعا فلما رآهما من كان مع الزبير قالوا له هذا ابن جرموز وإنا نخافه عليك فقال لهم الزبير أنا أكفيكم ابن جرموز فاكفوني ابن حابس

فحمل عمرو على الزبير فعطف عليه فقال يا فضالة أعني فإن الرجل قاتلي فأعانه وحمل ابن جرموز فقتله واجتز رأسه وأتى به إلى الأحنف فبعثه الأحنف إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فلما رآه العسكر أنكروه وقالوا له من أنت قال أنا رسول الأحنف بن قيس فمن قائل يقول مرحبا بك وبمن جئت من عنده ومن قائل يقول لا مرحبا بك ولا بمن جئت من عنده حتى انتهى إلى فسطاط أمير المؤمنين (عليه السلام) فخرج إليه رجل ضخم طوال عليه درع يتجسس فإذا هو الأشتر فقال من أنت قال أنا رسول الأحنف قال مكانك حتى أستأذن لك فاستأذن له فدخل وأمير المؤمنين (عليه السلام) متكئ وبين يديه ترس عليه أقراص من طعام الشعير فسلم عليه وهنأه بالفتح عن الأحنف فقال أنا رسوله إليك وقد قتلت الزبير وهذا رأسه وسيفه فألقاهما بين يديه.

فقال (عليه السلام) كيف قتلته وما كان من أمره فحدثته كيف صنعت به فقال ناولني سيفه فناولته إياه فتناوله واستله قال سيفه أعرفه أما

[389]

و الله لقد قاتل بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) غير مرة ولكنه الحين ومصارع السوء.

و روى منصور بن أبي الأسود عن عطاء بن السائب عن أبي البختري قال : لما بعث الأحنف بن قيس إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) برأس الزبير وسيفه وجاءه الرسول يهنئه بالفتح تلا عليه الَّذِينَ يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِنْ كانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِنَ اللَّهِ قالُوا أَ لَمْ نَكُنْ مَعَكُمْ.

و روى عن زيد بن فراس عن غزال بن مالك قال : لما قتل الزبير وجيء برأسه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) قال أما والله لو لا ما كان من أمر حاطب بن أبي بلتعة ما اجترأ طلحة والزبير على قتالي وأن الزبير كان أقرب إلي من طلحة وما زال منا أهل البيت حتى بلغ ابنه فقطع بيننا.

و روى عبد الله بن جعفر عن ابن أبي عون قال : سمعت مروان بن الحكم يقول لما كان يوم الجمل قلت والله لأدركن ثار عثمان فرميت طلحة بسهم فقطعت نساه وكان كلما سد الموضع غلب الدم وألمه فقال لغلامه دعه فهو سهم أرسله الله إلي ثم قال له ويلك اطلب لي موضعا أحترز فيه فلم يجد له مكانا فاحتمله عبيد الله بن معمر فأدخله بيت أعرابية ثم ذهب فصبر هنية ورجع فوجده قد

[390]

مات وهرب الزبير فارا إلى المدينة حتى أتى وادي السباع فرفع الأحنف صوته وقال ما أصنع بالزبير قد لف بين غارين من الناس حتى قتل بعضهم بعضا ثم هو يريد اللحاق بأهله فسمع ذلك ابن جرموز فخرج في طلبه واتبعه رجل من مجاشع حتى لحقاه فلما رآهما الزبير حذرهما فقالا يا حواري رسول الله أنت في ذمتنا لا يصل إليك أحد وسايره ابن جرموز فبينا هو يسايره

ويستأخر والزبير يفارقه قال يا أبا عبد الله انزع درعك واجعلها على فرسك فإنها تثقلك وتعييك فنزعها الزبير وجعل عمرو بن جرموز ينكص ويتأخر والزبير يناديه أن يلحقه وهو يجري بفرسه ثم ينحاز عنه حتى اطمأن إليه ولم ينكر تأخره عنه فحمل عليه وطعنة بين كتفيه فأخرج السنان من ثدييه ونزل فاجتز رأسه وجاء به إلى الأحنف.

فأنفذه إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) فلما رأى رأس الزبير وسيفه قال ناولني السيف فناوله فهزه وقال سيف طالما قاتل به بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ولكن الحين ومصارع السوء ثم تفرس في وجه الزبير وقال لقد كان لك برسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) صحبة ومنة قرابة ولكن الشيطان دخل منخريك فأوردك هذا المورد.

[391]

طواف أمير المؤمنين (عليه السلام) على القتلى وتكلمه معهم :

و لما انجلت الحرب بالبصرة وقتل طلحة والزبير وحملت عائشة إلى قصر بني خلف ركب أمير المؤمنين (عليه السلام) وتبعه أصحابه وعمار رحمه الله يمشي مع ركابه حتى خرج إلى القتلى يطوف عليهم فمر بعبد الله بن خلف الخزاعي وعليه ثياب حسان مشتهرة , فقال الناس : هذا والله رأس الناس.

فقال (عليه السلام) : ليس برأس الناس ولكنه شريف منيع النفس.

ثم مر بعبد الرحمن بن عتاب بن أسيد , فقال : هذا يعسوب القوم ورأسهم صريعا كما ترونه.

ثم جعل يستعرض القتلى رجلا رجلا , فلما رأى أشراف قريش صرعى في جملة القتلى , قال : جدعت أنفي , أما والله لقد كان مصرعكم لبغيضا إلي ولقد تقدمت إليكم وحذرتكم عض السيوف وكنتم أحداثا لا علم لكم بما ترون ولكن الحين

[392]

و مصارع السوء نعوذ بالله من سوء المصرع.

ثم سار حتى وقف على كعب بن سور القاضي وهو مجدل بين القتلى وفي عنقه المصحف , فقال : نحو المصحف وضعوه في مواضع الطهارة.

ثم قال : أجلسوا إلي كعبا.

فأجلس , ورأسه ينخفض إلى الأرض , فقال : يا كعب بن سور قد وجدت ما وعدني ربي حقا ; فهل وجدت ما وعدك ربك حقا ؟

ثم قال أضجعوا كعبا.

فتجاوزه , فمر , فرأى طلحة صريعا , فقال أجلسوا طلحة.

فأجلس , وقال له : يا طلحة بن عبيد الله , قد وجدت ما وعدني ربي حقا , فهل وجدت ما وعدك ربك حقا ؟

ثم قال : أضجعوه.

فوقف رجل من القراء أمامه وقال يا أمير المؤمنين ما كلامك هذه الهام ؟ قد صديت لا تسمع لك كلاما ولا ترد جوابا.

فقال (عليه السلام) : والله إنهما ليسمعان كلامي كما تسمع أصحاب القليب كلام رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ; ولو أذن لهما في الجواب لرأيت عجبا.

و مر بمعبد بن المقداد بن عمرو وهو في الصرعى , فقال : رحم الله أبا هذا , إنما كان رأيه فينا أحسن من رأي هذا.

فقال عمار : الحمد لله الذي أوقعه وجعل خده الأسفل , إنا والله يا أمير المؤمنين لا نبالي بمن عند عن الحق من ولد ووالد.

[393]

فقال (عليه السلام) : رحمك الله يا عمار وجزاك عن الحق خيرا.

و مر بعبد الله بن ربيعة بن دراج وهو في القتلى , فقال : هذا البائس ما كان أخرجه نصر عثمان والله ما كان رأي عثمان فيه ولا في أبيه بحسن.

و مر بمعبد بن زهير بن أمية , فقال : لو كانت الفتنة برأس الثريا لتناولها هذا الغلام , والله ما كان فيها بذي نخيرة ولقد أخبرني من أدركه أنه يلوذ خوفا من السيف حتى قتل البائس ضياعا.

و مر بمسلم بن قرظة , فقال : البر أخرج هذا , ولقد سألني أن أكلم عثمان في شيء يدعيه عليه بمكة فلم أزل به حتى أعطاه ; وقال لي : لو لا أنت ما أعطيته , إن هذا ما علمت بئس العشيرة , ثم جاء لحينه ينصر عثمان.

ثم مر بعبد الله بن حميد بن زهير , قال : هذا أيضا ممن أوضع في قتلانا يطلب بزعمه دم عثمان ولقد كتب إلي كتبا أوذي عثمان منها فأعطاه شيئا فرضي عنه.

و مر بعبد الله بن حكيم بن حزام , فقال : هذا خالف أباه في الخروج علي وإن أباه حيث لم ينصرنا بايع وجلس في بيته ما ألوم أحدا إذا كف عنا وعن غيرنا ولكن الملوم الذي يقاتلنا.

و مر بعبد الله بن المغيرة بن الأخنس , فقال : أما هذا فقتل أبوه يوم قتل عثمان

[394]

في الدار فخرج غضبا لمقتل أبيه وهو غلام لا علم له بعواقب الأمور.

و مر بعبد الله بن عثمان بن الأخنس بن شريق , فقال : أما هذا فإني أنظر إليه وقد أخذ القوم السيوف وإنه لهارب يعدو

من السيف فنهيت عنه فلم يسمع نهيي حتى قتل.

و كان هذا ممن مقت علي وإنه من فتيان قريش أغمار لا علم لهم بالحرب خدعوا واستزلوا فلما وقعوا ألحجوا فقتلوا.

ثم أمر (عليه السلام) مناديه ; فنادى : من أحب أن يواري قتيله فليواره.

ثم قال (عليه السلام) : واروا قتلانا في ثيابهم التي قتلوا فيها فإنهم يحشرون على الشهادة وإني لشاهد لهم بالوفاء.

[395]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أهل المدينة :

ثم رجع إلى خيمته فاستدعى عبيد الله بن أبي رافع كاتبه وقال اكتب إلى أهل المدينة بسم الله الرحمن الرحيم من عبد الله علي بن أبي طالب سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن الله بمنه وفضله وحسن بلائه عندي وعندكم حكم عدل وقد قال سبحانه في كتابه وقوله الحق إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ وإني مخبركم عنا وعمن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ومن سار إليهم من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير ونكثهما على ما قد علمتم من بيعتي وهما طائعان غير مكرهين فخرجت من عندكم فيمن خرجت ممن سارع إلى بيعتي وإلى الحق حتى نزلت ذا قار فنفر معي من نفر من أهل الكوفة وقدم طلحة والزبير البصرة وصنعا بعاملي عثمان بن حنيف ما صنعا فقدمت إليهم الرسل وأعذرت كل الأعذار ثم نزلت ظهر البصرة فأعذرت بالدعاء وقدمت الحجة وأقلت العثرة والزلة واستتبتهما ومن معهما من نكثهم بيعتي ونقضهما عهدي فأبوا إلا قتالي وقتال من معي والتمادي في الغي فلم أجد بدا من مناصفتهم لي فناصفتهم بالجهاد فقتل الله من قتل منهم ناكثا وولى من ولى منهم وغمدت

[396]

السيوف عنهم وأخذت بالعفو فيهم وأجريت الحق والسنة في حكمهم واخترت لهم عاملا استعمله عليهم وهو عبد الله بن العباس وإني سائر إلى الكوفة إن شاء الله تعالى وكتب عبيد الله بن أبي رافع في جمادى الأولى من سنة ست وثلاثين من الهجرة.

[397]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أم هانئ بنت أبي طالب :

و كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أم هانئ بنت أبي طالب (عليه السلام) سلام عليك أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنا التقينا مع البغاة والظلمة في البصرة فأعطانا الله النصر عليهم بحوله وقوته وأعطاهم سنة الظالمين فقتل منهم طلحة والزبير وعبد الرحمن بن عتاب وجمع لا يحصى وقتل منا بنو مجدوع وابنا صوحان وعلباء وهند وثمامة فيمن يعد من المسلمين رحمهم الله والسلام.

[398]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى أهل الكوفة :

و كتب إلى أهل الكوفة بسم الله الرحمن الرحيم من علي أمير المؤمنين إلى أهل الكوفة سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد فإن الله حكم عدل لا يُغَيِّرُ ما بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأَنْفُسِهِمْ وإِذا أَرادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوْءاً فَلا مَرَدَّ لَهُ وما لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ والٍ وإني أخبركم عنا وعمن سرنا إليه من جموع أهل البصرة ومن سار إليه من قريش وغيرهم مع طلحة والزبير بعد نكثهما صفقة أيمانهما فنهضت من المدينة حين انتهى إلى خبرهم وما صنعوه بعاملي عثمان بن حنيف حتى قدمت ذا قار فبعثت إليكم ابني الحسن وعمارا وقيسا فاستنفروكم لحق الله وحق رسوله وحقنا فأجابني إخوانكم سراعا حتى قدموا علي فسرت بهم وبالمسارعين منهم إلى طاعة الله حتى نزلت ظهر البصرة فأعذرت بالدعاء وأقمت الحجة وأقلت العثرة والزلة من أهل الردة من قريش وغيرهم واستتبتهم عن نكثهم بيعتي وعهد الله لي عليهم فأبوا إلا قتالي وقتال من معي والتمادي في الغي فناهضتهم بالجهاد فقتل من قتل منهم وولى من ولى إلى مصرهم فسألوني ما دعوتهم إليه من كف القتال فقبلت منهم وغمدت السيوف عنهم وأخذت بالعفو فيهم وأجريت الحق والسنة بينهم واستعملت عبد الله بن العباس على البصرة وأنا سائر

[399]

إلى الكوفة إن شاء الله تعالى وقد بعثت إليكم زحر بن قيس الجعفي لتسألوه فيخبركم عنا وعنهم وردهم الحق علينا وردهم الله وهم كارهون والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته وكتب عبيد الله بن أبي رافع في جمادى الأولى من سنة ست وثلاثين من الهجرة.

[400]

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) :

و لما كتب أمير المؤمنين (عليه السلام) الكتب بالفتح قام في الناس خطيبا فحمد الله تعالى وأثنى عليه وصلى على محمد وآله ثم قال :

أما بعد فإن الله غفور رحيم عزيز ذو انتقام جعل عفوه ومغفرته لأهل طاعته وجعل عذابه وعقابه لمن عصاه وخالف أمره وابتدع في دينه ما ليس منه وبرحمته نال الصالحون العون وقد أمكنني الله منكم يا أهل البصرة وأسلمكم بأعمالكم فإياكم أن تعودوا إلى مثلها فإنكم أول من شرع القتال والشقاق وترك الحق والإنصاف.

زهد أمير المؤمنين (عليه السلام) :

ثم نزل (عليه السلام) واستدعى جماعة من أصحابه فمشوا معه حتى دخل بيت المال وأرسل إلى القراء فدعاهم ودعا

الخزان وأمرهم بفتح الأبواب التي داخلها المال فلما رأى كثرة المال قال هذا جناي وخياره فيه ثم قسم المال بين

[401]

أصحابه فأصاب كل رجل منهم ستة آلاف ألف درهم وكان أصحابه اثني عشر ألفا وأخذ هو (عليه السلام) كأحدهم فبينا هم على تلك الحالة إذ أتاه آت فقال يا أمير المؤمنين إن اسمي سقط من كتابك وقد رأيت من البلاء ما رأيت فدفع سهمه إلى ذلك الرجل.

و روى الثوري عن داود بن أبي هند عن أبي حرب بن أبي الأسود قال : لقد رأيت بالبصرة عجبا لما قدم طلحة والزبير قد أرسلا إلى أناس من أهل البصرة وأنا فيهم فدخلنا بيت المال معهما فلما رأيا ما فيه من الأموال قالا هذا ما وعدنا الله ورسوله ثم تليا هذه الآية وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَها فَعَجَّلَ لَكُمْ هذِهِ ... إلى آخر الآية وقالا نحن أحق بهذا المال من كل أحد فلما كان من أمر القوم ما كان دعانا علي بن أبي طالب (عليه السلام) فدخلنا معه بيت المال.

فلما رأى ما فيه ضرب

[402]

إحدى يديه على أخرى وقال : يا صفراء يا بيضاء غري غيري.

و قسمه بين أصحابه بالسوية حتى لم يبق إلا خمسمائة درهم عزلها لنفسه ; فجاءه رجل , فقال : إن اسمي سقط من كتابك.

فقال (عليه السلام) : ردوها عليه.

ثم قال : الحمد لله الذي لم يصل إلي من هذا المال شيء ووفره على المسلمين .

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) بعد قسمة المال :

و روى الواقدي : أن أمير المؤمنين (عليه السلام) لما فرغ من قسمة المال قام خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وقال :

أيها الناس إني أحمد الله على نعمه قتل طلحة والزبير وهزمت عائشة وايم الله لو كانت عائشة طلبت حقا وأهانت باطلا لكان لها في بيتها مأوى وما فرض الله عليها الجهاد وإن أول خطئها في نفسها وما كانت والله على القوم إلا أشأم من ناقة الحجر وما ازداد عدوكم بما صنع الله إلا حقدا وما زادهم الشيطان إلا طغيانا ولقد جاءوا مبطلين وأدبروا ظالمين إن إخوانكم المؤمنين جاهدوا في سبيل الله وآمنوا به يرجون مغفرة من الله وإننا لعلى الحق وإنهم لعلى الباطل وسيجمعنا الله وإياهم يوم الفصل وأستغفر الله لي ولكم.

[403]

كتاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى قرظة بن كعب وأهل الكوفة :

و روى عمر بن سعد عن يزيد بن أبي الصلت عن عامر الأسدي : إن عليا كتب بفتح البصرة مع عمرو بن سلمة الأرحبي إلى أهل الكوفة من عبد الله علي بن أبي طالب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى قرظة بن كعب ومن قبله من المسلمين سلام عليكم فإني أحمد الله إليكم الذي لا إله إلا هو أما بعد فإنا لقينا القوم الناكثين لبيعتنا المفرقين لجماعتنا الباغين علينا من أمتنا فحاججناهم إلى الله فنصرنا الله عليهم وقتل طلحة والزبير وقد تقدمت إليهما بالمعذرة واستشهدت عليهما صلحاء الأمة ونكثهما بالبيعة فما أطاعا المرشدين ولا أجابا الناصحين ولاذ أهل البصرة بعائشة فقتل حولها عالم جم لا يحصي عددهم إلا الله ثم ضرب الله وجه بقيتهم فأدبروا فما كانت ناقة الحجر بأشأم منها على أهل ذلك المصر مع ما جاءت به من الحوب الكبير في معصيتها لربها ونبيها واغترار من اغتر بها وما صنعته من التفرقة بين المؤمنين وسفك دماء المسلمين بلا بينة ولا معذرة ولا حجة لها فلما هزمهم الله أمرت أن لا يقتل مدبرا ولا يجهز على جريح ولا يكشف عورة ولا يهتك ستر ولا يدخل دار إلا

[404]

بإذن أهلها وقد آمنت الناس وقد استشهد منا رجال صالحون ضاعف الله لهم الحسنات ورفع درجاتهم وأثابهم ثواب الصابرين وجزاهم من أهل مصر عن أهل بيت نبيهم أحسن ما يجزي العاملين بطاعته والشاكرين لنعمته فقد سمعتم وأطعتم ودعيتم فأجبتم فنعم الإخوان والأعوان على الحق أنتم والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته كتب عبيد الله بن أبي رافع في رجب سنة ست وثلاثين.

[405]

فصل في سيرة أمير المؤمنين (عليه السلام) في أهل البصرة :

و روى فطر بن خليفة عن منذر الثوري قال : لما انهزم الناس يوم الجمل أمر أمير المؤمنين (عليه السلام) مناديا ينادي أن لا يجهزوا على جريح ولا يتبعوا مدبرا وقسم ما حواه العسكر من السلاح والكراع.

و روى سفيان بن سعيد قال : قال عمار رضي الله عنه لأمير المؤمنين (عليه السلام) ما ترى في سبي الذرية قال ما أرى عليهم من سبيل إنما قاتلنا من قاتلنا ولما قسم ما حواه العسكر قال له بعض القراء من أصحابه اقسم لنا من ذراريهم وأموالهم وإلا فما الذي أحل دماءهم ولم يحل أموالهم.

فقال (عليه السلام) : هذه الذرية لا سبيل عليها وهم في دار هجرة وإنما قتلنا من حاربنا وبغى علينا ; وأما أموالهم فهي ميراث لمستحقيها من أرحامهم.

فقال عمار : أ لا نتبع مدبرهم ولا نجهز على جريحهم ؟

فقال (عليه السلام) : لا لأني آمنتهم.

و روى سعد بن جشم عن خارجة بن مصعب عن أبيه قال : شهدنا مع

[406]

أمير المؤمنين (عليه السلام) الجمل فلما ظفرنا بهم خرجنا في طلب الطعام فجعلنا نمر بالذهب والفضة فلا نتعرض له وإذا وجدنا الطعام أصبنا منه.

قال : وقسم علي (عليه السلام) ما وجده في العسكر من طيب بين نسائنا ; وقال (عليه السلام) : مروا نساء هؤلاء المقتولين من أهل البصرة أن يعتدن منهم ولنقسم أموالهم في أهلهم فهي ميراث لهم على فريضة من الله.

قال : وكان إذا أتي بأسير منهم فإن كان قد قتل قتله وإن لم تقم عليه بينة بالقتل أطلقه ولما قسم ما حواه العسكر أمر بفرس فيه كادت أن تباع فقام إليه رجل قال يا أمير المؤمنين هذه الفرس كانت لي وإنما أعرتها لفلان ولم أدر أنه يخرج عليها فسأله البينة على ذلك فأقام البينة إنها عارية فردها وقسم ما سوى ذلك.

[407]

خطبة أمير المؤمنين (عليه السلام) في ذم أهل البصرة :

و روى نصر عن عمر بن سعد عن أبي خالد عن عبد الله بن عاصم عن محمد بن بشر الهمداني عن الحارث بن سريع قال : لما ظهر أمير المؤمنين (عليه السلام) على أهل البصرة وقسم ما حواه العسكر قام فيهم خطيبا فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله وقال :

أيها الناس إن الله عز وجل ذو رحمة واسعة ومغفرة دائمة لأهل طاعته وقضى أن نقمته وعقابه على أهل معصيته.

يا أهل البصرة : يا أهل المؤتفكة ; ويا جند المرأة وأتباع البهيمة ; رغا فأجبتم وعقر فانهزمتم , أحلامكم دقاق , وعهدكم شقاق , ودينكم نفاق , وأنتم فسقة مراق.

يا أهل البصرة : أنتم شر خلق الله أرضكم قريبة من الماء بعيدة من السماء خفت عقولكم وسفهت أحلامكم شهرتم سيوفكم وسفكتم دماءكم وخالفتم إمامكم فأنتم أكلة الآكل وفريسة الظافر فالنار لكم مدخر والعار لكم مفخر.

يا أهل البصرة : نكثتم بيعتي وظاهرتم على ذوي عداوتي فما ظنكم يا أهل البصرة الآن

[408]

فقام رجال منهم , فقالوا : نظن خيرا يا أمير المؤمنين ونرى أنك ظفرت وقدرت فإن عاقبت فقد أجرمنا وإن عفوت فالعفو أحب إلى رب العالمين.

فقال (عليه السلام) : قد عفوت عنكم فإياكم والفتنة فإنكم أول من نكث البيعة وشق عصا الأمة فارجعوا عن الحوبة وأخلصوا فيما بينكم وبين الله بالتوبة.

و لما فرغ (عليه السلام) من خطبته وكلامه لأهل البصرة ركب بغلته واجتمع إليه جماعة من شرطة الخميس وطوائف من الناس.

[409]

أسباب بغض عائشة لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

و روى عن عمر بن أبان قال : لما ظهر أمير المؤمنين (عليه السلام) على أهل البصرة , جاءه رجال منهم , فقالوا : يا أمير المؤمنين ما السبب الذي دعا عائشة بالمظاهرة عليك ؟ حتى بلغت من خلافك وشقاقك ما بلغت , وهي امرأة من النساء لم يكتب عليها القتال ولا فرض عليها الجهاد ولا أرخص لها في الخروج من بيتها ولا التبرج بين الرجال وليست ممن تولته في شيء على حال.

فقال (عليه السلام) : سأذكر لكم أشياء مما حقدتها علي ; ليس لي في واحد منها ذنب إليها , ولكنها تجرمت بها علي.

أحدها : تفضيل رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لي على أبيها وتقديمه إياي في مواطن الخير عليه , فكانت تضطغن ذلك علي فتعرفه منه فتتبع رأيه فيه.

و ثانيها : لما آخى بين أصحابه آخى بين أبيها وبين عمر بن الخطاب , واختصني بإخوته , فغلظ ذلك عليها وحسدتني منه.

[410]

ثالثها : وأوحى الله تعالى إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) بسد أبواب كانت في المسجد لجميع أصحابه إلا بابي ; فلما سد باب أبيها وصاحبه وترك بابي مفتوحا في المسجد تكلم في ذلك بعض أهله.

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) : ما أنا سددت أبوابكم وفتحت باب علي بل الله عز وجل سد أبوابكم وفتح بابه ; فغضب لذلك أبو بكر وعظم عليه وتكلم في أهله بشيء سمعته منه ابنته فاضطغنته علي.

رابعها : وكان رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أعطى أباها الراية يوم خيبر وأمره أن لا يرجع حتى يفتح أو يقتل فلم يلبث لذلك وانهزم فأعطاها في الغد عمر بن الخطاب وأمره بمثل ما أمر صاحبه فانهزم ولم يثبت فساء ذلك رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) , فقال لهم ظاهرا معلنا : لأعطين الراية غدا رجلا يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله كرارا غير فرار لا يرجع حتى يفتح الله على يديه ; فأعطاني الراية , فصبرت حتى فتح الله تعالى على يدي , فغم ذلك أباها وأحزنه فاضطغنته علي وما لي إليها من ذنب في ذلك فحقدت لحقد أبيها.

خامسها : وبعث رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) أباها بسورة براءة وأمره أن ينبذ العهد

[411]

للمشركين وينادي فيهم فمضى حتى انحرف فأوحى الله تعالى إلى نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) أن يرده ويأخذ الآيات فيسلمها إلي ; فسلمها إلي فصرف أباها بإذن الله عز وجل.

و كان فيما أوحى إليه الله أن لا يؤدي عنك إلا رجل منك وكنت من رسول الله وكان مني ; فاضطغن لذلك علي أيضا واتبعته ابنته عائشة في رأيه.

سادسها : وكانت عائشة تمقت خديجة بنت خويلد وتشنؤها شنآن الضرائر وكانت تعرف مكانها من رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فيثقل ذلك عليها وتعدى مقتها إلى ابنتها فاطمة فتمقتني وتمقت فاطمة وخديجة وهذا معروف في الضرائر.

سابعها : ولقد دخلت على رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم قبل أن يضرب الحجاب على أزواجه وكانت عائشة بقرب رسول الله فلما رآني رحب بي وقال ادن مني يا علي ولم يزل يدنيني حتى أجلسني بينه وبينها ; فغلظ ذلك عليها , فأقبلت إلي وقالت بسوء رأي النساء وتسرعهن إلى الخطاب : ما وجدت لأستك يا علي موضعا غير موضع فخذي.

فزجرها النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقال لها : أ لعلي تقولين هذا ؟ إنه والله أول من آمن بي وصدقني , وأول الخلق ورودا على الحوض , وهو أحق الناس عهدا إلي , لا يبغضه أحد إلا أكبه الله على منخره في النار.

فازدادت بذلك غيضا علي.

[412]

ثامنها : ولما رميت بما رميت اشتد ذلك على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) , واستشارني في أمرها ; فقلت : يا رسول الله سل جاريتها بريرة واستبرئ حالها منها فإن وجدت عليها شيئا فخل سبيلها فإن النساء كثيرة.

فأمرني رسول الله أن أتولى مسألة بريرة وأستبرئ الحال منها.

ففعلت ذلك , فحقدت علي , وو الله ما أردت بها سوء لكني نصحت لله ولرسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ; وأمثال ذلك , فإن شئتم فاسألوها ما الذي نقمت علي حتى خرجت مع الناكثين لبيعتي وسفك دماء شيعتي والتظاهر بين المسلمين بعداوتي للبغي والشقاق والمقت لي بغير سبب يوجب ذلك في الدين والله المستعان.

فقال القوم : القول والله ما قلت يا أمير المؤمنين , ولقد كشفت الغمة , ولقد نشهد أنك أولى بالله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) ممن عاداك.

فقام الحجاج بن عمرو الأنصاري فمدحه في أبيات نكتفي بما ذكرناه من هذه الجملة عن إيرادها.

[413]

استئمان فتيان قريش إلى أمير المؤمنين (عليه السلام) :

قال الواقدي : ولما فرغ أمير المؤمنين (عليه السلام) من أهل الجمل جاءه قوم من فتيان قريش يسألونه الأمان وأن يقبل منهم البيعة فاستشفعوا إليه بعبد الله بن العباس فشفعه وأمر لهم في الدخول عليه فلما مثلوا بين يديه قال لهم :

ويلكم يا معشر قريش علام تقاتلونني ؟ على أن حكمت فيكم بغير عدل ؟ أو قسمت بينكم بغير سوية ؟ أو استأثرت عليكم ؟ أو لبعدي عن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ؟ أو لقلة بلاء مني في الإسلام ؟

فقالوا : يا أمير المؤمنين ; نحن إخوة يوسف (عليه السلام) فاعف عنا واستغفر لنا.

فنظر إلى أحدهم , فقال له : من أنت ؟

قال : أنا مساحق بن مخرمة , معترف بالزلة مقر بالخطيئة تائب من ذنبي.

فقال (عليه السلام) : قد صفحت عنكم وايم الله أن فيكم من لا أبالي أ بايعني بكفه أم بأسته ولئن بايعني لينكثن.

و تقدم إليه مروان بن الحكم وهو متكئ على رجل ; فقال (عليه السلام) : أ بك جراحة ؟

قال : نعم , يا أمير المؤمنين وما أراني لما بي إلا ميتا.

فتبسم أمير المؤمنين (عليه السلام) , وقال : لا والله ما أنت لما بك ميت , وستلقى هذه الأمة منك ومن ولدك يوما أحمر.

ثم بايعه وانصرف.

و تقدم إليه عبد الرحمن بن الحارث بن هشام , فلما نظر إليه أمير المؤمنين (عليه السلام) , قال : والله أن كنت أنت وأهل بيتك لأهل دعة وإن كان فيكم غني ولكن أعفو عنكم ولقد ثقل علي حيث رأيتكم في القوم

[414]

و أحببت أن تكون الوقعة بغيركم.

فقال له عبد الرحمن : فقد صار ذلك إلى ما لا تحب ; ثم بايعه وانصرف.

[415]

إرسال عائشة إلى المدينة :

قال : ولما عزم أمير المؤمنين (عليه السلام) على المسير إلى الكوفة أنفذ إلى عائشة يأمرها بالرحيل إلى المدينة فتهيأت لذلك وأنفذ معها أربعين امرأة ألبسهن العمائم والقلانس وقلدهن السيوف وأمرهن أن يحفظنها ويكن عن يمينها وشمالها ومن ورائها فجعلت عائشة تقول في الطريق : اللهم افعل بعلي بن أبي طالب بما فعل بي بعث معي الرجال ولم يحفظ بي حرمة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ; فلما قدمن المدينة معها ألقين العمائم والسيوف ودخلن معها فلما رأتهن ندمت على ما فرطت بذم أمير المؤمنين (عليه السلام) وسبه ; وقالت : جزى الله ابن أبي طالب خيرا فلقد حفظ في حرمة رسول الله (صلى الله عليه

وآله وسلم).

[416]

اعتراف مروان بالظلم :

و روى أبو مخنف والمسعودي عن هاشم بن البريد عن عبد الله بن مخارق عن هاشم بن مساحق القرشي قال حدثني أبي : أنه لما انهزم الناس يوم الجمل اجتمع معه طائفة من قريش فيهم مروان بن الحكم فقال بعضهم لبعض والله لقد ظلمنا هذا الرجل يعنون أمير المؤمنين (عليه السلام) ونكثنا بيعته من غير حدث والله لقد ظهر علينا فما رأينا قط أكرم سيرة منه ولا أحسن عفوا بعد رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فقوموا حتى ندخل عليه ونعتذر إليه مما صنعناه قال فصرنا إلى بابه فاستأذناه فأذن لنا فلما مثلنا بين يديه جعل متكلمنا يتكلم.

فقال (عليه السلام) أنصتوا أكفكم إنما أنا بشر مثلكم فإن قلت حقا فصدقوني وإن قلت باطلا فردوا علي أنشدكم الله أ تعلمون أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لما قبض كنت أنا أولى الناس به وبالناس من بعده قلنا اللهم نعم قال فعدلتم عني وبايعتم أبا بكر فأمسكت ولم أحب أن أشق عصا المسلمين وأفرق بين جماعتهم ثم إن أبا بكر جعلها لعمر من بعده فكففت ولم أهج الناس وقد علمت أني كنت أولى

[417]

الناس بالله وبرسوله وبمقامه فصبرت حتى قتل عمر وجعلني سادس ستة فكففت ولم أحب أن أفرق بين المسلمين ثم بايعتم عثمان فطعنتم عليه فقتلتموه وأنا جالس في بيتي فأتيتموني وبايعتموني كما بايعتم أبا بكر وعمر فما بالكم وفيتم لهما ولم تفوا لي وما الذي منعكم من نكث بيعتهما ودعاكم إلى نكث بيعتي فقلنا له كن يا أمير المؤمنين كالعبد الصالح يوسف إذ قال لا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ الْيَوْمَ يَغْفِرُ اللَّهُ لَكُمْ وهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ فقال (عليه السلام) لا تثريب عليكم اليوم وإن فيكم رجلا لو بايعني بيده لنكث بأسته يعني مروان بن الحكم.

و روى المسعودي عن هاشم بن البريد عن أبي سعيد التيمي عن أبي ثابت مولى أبي ذر قال : شهدت مع أمير المؤمنين (عليه السلام) الجمل فلما رأيت عائشة واقفة بين الصفين معها طلحة والزبير قلت أم المؤمنين وزوجة الرسول (صلى الله عليه وآله وسلم) وحواريه وصاحبه بأحد فدخلني ما يدخل الناس من الشك حتى كان عند صلاة الظهر كشف الله ذلك عن قلبي وقلت علي أمير المؤمنين وأحق الناس بسيد المرسلين (صلى الله عليه وآله وسلم) وأولهم إسلاما لم يكن بالذي يقدم على شبهة فقاتلت معه قتالا شديدا.

فلما انقضى الحرب أتيت المدينة فسرت إلى بيت أم سلمة رضي الله عنها فاستأذنت عليها , فقيل من هذا ؟

فقلت : سائل.

فقالت : أطعموا السائل.

فقلت : إني والله لم أسأل طعاما , ولكني مولى لأبي ذر رضي الله عنه , جئت أسأل عن ديني.

فقالت : مرحبا بك.

فقصصت عليها قصتي.

[418]

فقالت : أين كنت حين طارت القلوب مطايرها ؟

فقلت : إني بينما أحس ذلك إذ كشف الله عن قلبي فقاتلت مع أمير المؤمنين (عليه السلام) حتى فرغ.

فقالت : أحسنت.

إني سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول : علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض.

[419]

فصل عدد القتلى بالبصرة :

و قد اختلفت الروايات في عدد القتلى بالبصرة فقد جاء في بعضها أنهم خمسة وعشرون ألفا وروى عبد الله بن الزبير رواية شاذة أنهم كانوا خمسة عشر ألفا قيل ويوشك أن يكون قول ابن الزبير أثبت ولكن القول بذلك باطل لبعده عن جميع ما قاله أهل العلم به فإن الأخبار عن عدد من قطعت يده يومئذ ورجله ثم قتل بعد ذلك مشهورة أنهم كانوا نحوا من أربعة عشر ألف رجل.

[420]

استخلاف ابن عباس على البصرة :

و روى الواقدي عن رجاله قال : لما أراد أمير المؤمنين (عليه السلام) الخروج من البصرة استخلف عليها عبد الله بن العباس وأوصاه وكان في وصيته له أن قال :

يا ابن عباس , عليك بتقوى الله , والعدل بمن وليت عليه , وأن تبسط للناس وجهك , وتوسع عليهم مجلسك , وتسعهم بحلمك , وإياك والغضب فإنه طيرة من الشيطان , وإياك والهوى فإنه يصدك عن سبيل الله , واعلم أن ما قربك من الله فهو مباعدك من النار , وما باعدك من الله فهو مقربك من النار , واذكر الله كثيرا , ولا تكن من الغافلين.

و روى أبو مخنف لوط بن يحيى قال : لما استعمل أمير المؤمنين (عليه السلام) عبد الله بن العباس على البصرة خطب الناس فحمد الله وأثنى عليه وصلى على رسوله ثم قال يا معاشر الناس قد استخلفت عليكم عبد الله بن العباس فاسمعوا له وأطيعوا أمره ما أطاع الله ورسوله فإن أحدث فيكم أو زاغ عن الحق فأعلموني أعزله عنكم فإني

[421]

أرجو أن أجده عفيفا تقيا ورعا وإني لم أوله عليكم إلا وأنا أظن ذلك به غفر الله لنا ولكم.

فأقام عبد الله بالبصرة حتى عمل أمير المؤمنين (عليه السلام) على التوجه إلى الشام فاستخلف عليها زياد ابن أبيه وضم إليه أبا الأسود الدؤلي ولحق بأمير المؤمنين (عليه السلام) حتى سار إلى صفين.

[422]

ذهاب أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى الكوفة :

و روى أبو مخنف لوط بن يحيى عن رجاله قال : لما أراد أمير المؤمنين (عليه السلام) التوجه إلى الكوفة قام في أهل البصرة فقال :

ما تنقمون علي يا أهل البصرة ؟ وأشار إلى قميصه وردائه , فقال : والله إنهما لمن غزل أهلي.

ما تنقمون مني يا أهل البصرة ؟ وأشار إلى صرة في يده فيها نفقته , فقال : والله ما هي إلا من غلتي بالمدينة ; فإن أنا خرجت من عندكم بأكثر مما ترون فأنا عند الله من الخائنين.

ثم خرج وشيعه الناس إلى خارج البصرة , وتبعه الأحنف بن قيس إلى الكوفة.

و لما خرج من البصرة وصار على غلوة استقبل الكوفة بوجهه وهو راكب بغلة رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) , وقال :

الحمد لله الذي أخرجني من أخبث البلاد وأخشنها ترابا وأسرعها خرابا وأقربها من الماء وأبعدها من السماء بها مغيض الماء وبها تسعة أعشار الشر وهي مسكن الجن الخارج منها برحمة والداخل إليها بذنب أما إنها لا تذهب الدنيا حتى يجيء إليها كل فاجر ويخرج منها كل مؤمن حتى يكون مسجدها كجؤجؤ سفينة.

[423]

فهذه جملة من أخبار البصرة وسبب فتنتها ومقالات أصحاب الآراء في حكم الفتنة بها وقد أوردناها على سبيل الاختصار وأثبتنا ما أثبتنا من الأخبار عن رجال العامة دون الخاصة ولم نثبت في ذلك ما روته الشيعة في إنكاره إذ كان الغرض فيما أوردناه في هذا الكتاب تفصيل فتنة البصرة وما جرى فيها من القتال والفعال والإبانة عن عناد القوم لأمير المؤمنين (عليه السلام) والقصد لحربه وسفك دمه من غير شبهة في أمره ولا عذر فيما صاروا إليه من خلافه ولنوضح فيما تضمنته الأخبار في

بطلان مقال من ادعى للقوم التوبة من فرطهم الضلال لحرب أمير المؤمنين (عليه السلام) وفساد مذهب من ذهب إلى ذلك من المعتزلة والمرجئة والحشوية.

[425]

خاتمة

في تتمة أسباب بغض عائشة لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

و يدل على ما أثبتناه منه أن القوم مضوا مصرين على أعمالهم غير نادمين عليها ولا تائبين منها وأنهم كانوا يتظاهرون إلى الله بالقربة والدينونة بعداوتهم لأمير المؤمنين (عليه السلام) والتبغض له والتضليل والتبديع له ولولده ولشيعته وأنصاره والبراءة إلى الله من جميعهم وأن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان يبدئ إليهم بمثل ذلك ويرى القربة إلى الله بجهادهم وقتالهم حتى مضى (عليه السلام) لسبيله وأنا مثبت بعد الذي قدمت أخبارا قد سلم لصحتها أهل العقل والنقل على خلافهم في الآراء والمذاهب تؤكد ما ذكرت في هذا الكتاب وتشهد بصحة

[426]

ما زبرت فإني كنت قد جمعتها في موضوع آخر من كتبي وإنما أوردتها في هذا الكتاب لملاءمتها لمعناه وتأييدها لما تضمنته من فوائده وفحواه وبالله أستعين.

فمن ذلك :.

ما رواه أبو بكر محمد بن عمر الجعابي وحدثنا به قال حدثنا أبو العباس أحمد بن محمد بن سعيد بن عقدة عن أبي الحسن علي بن الحسين بن فضال بإسناده في كتابه المعروف بالمنبئ وهو أشهر من أن يدل عليه العلماء عن أبان بن عثمان عن الأجلح عن أبي صالح عن عبد الله بن العباس قال : لما رمى أهل الإفك عائشة استشار رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) عليا (عليه السلام) فيها فقال يا رسول الله النساء كثيرة وسل الخادمة فسألوا بريرة فقالت ما علمت إلا خيرا فبلغ ذلك عائشة فقالت لا أحب عليا بعد هذا أبدا وكانت تقول لا أحب عليا أبدا أ ليس هو الذي خلا وصاحبه بجاريتي يسالانها عني.

و هذا حديث صحيح الإسناد واضح الطريق وهو يتضمن التصريح منها ببغض أمير المؤمنين ع بنصيحته لرسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) واجتهاده في طاعته ومشورته من غير أن يكون ظلمها بذلك واعتدى عليها فيه إذ لو كان ذلك كذلك وحاشاه (عليه السلام) لما سمع رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) مقالته ولا قبل مشورته ولا انتهى فيها إلى رأيه ولما صار بعد ذلك إلى الإصغاء إليه والاعتماد في ذلك عليه فدل على صوابه (عليه السلام) وضلال من مقته لأجله وعاداه فيه.

[427]

و من ذلك :

ما رواه محمد بن مهران قال حدثنا محمد بن علي بن خلف قال حدثنا محمد بن كثير عن إسماعيل بن زياد البزاز عن أبي إدريس عن رافع مولى عائشة قال : كنت غلاما أخدمها وكنت إذا كان رسول الله عندها أكون قريبا منها فبينما رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) ذات يوم عندها إذ جاء جاء فدق الباب فخرجت إليه فإذا جارية معها إناء مغطى فرجعت إلى عائشة فأخبرتها فقالت أدخلها فدخلت فوضعته بين يدي عائشة ووضعته عائشة بين يدي رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فأكل منه فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) يا ليت أمير المؤمنين وسيد المسلمين وإمام المتقين يأكل معي فقالت عائشة ومن ذلك فجاء جاء فدق الباب فخرجت إليه فإذا هو علي بن أبي طالب (عليه السلام) فرجعت إليه (صلى الله عليه وآله وسلم) فقلت هذا علي بالباب فقال (صلى الله عليه وآله وسلم) أدخله فلما دخل قال له أهلا لقد تمنيتك حتى لو أبطأت لسألت الله أن يأتيني بك اجلس فكل معي فجلس معه ورأيت النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ينظر إليه ويقول قاتل الله من يقاتلك وعادى الله من عاداك فقالت عائشة من يقاتله ويعاديه فقال لها أنت ومن معك.

و هذا الحديث يدل على عداوتها له من حيث استفهمت عما تعلمه على وجه الإنكار ودعائه في آخر القول على من يقاتله ويعاديه لعلمه بما يكون منها من القتال أيضا ودعائه على من عاداه ليبين فضيلته وما هي عليه من البغضاء والشنئان له ويزيل الشبهة عن الأمة في حقه وصوابه وباطل عدوه في خلافه له وعناده

[428]

و من ذلك :

ما رواه غير واحد عن الأرقم بن شرحبيل عن عبد الله بن العباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في مرضه الذي توفي فيه ابعثوا إلى علي فادعوه فقالت عائشة لو بعثت إلى أبي بكر وقالت حفصة لو بعثت إلى عمر فأمسك النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وبعثتا إلى أبي بكر وعمر فلما حضرا عنده فتح النبي عينيه فرآهما فقال انصرفا فإن تكن لي حاجة بعثت إليكما.

و من ذلك ما رواه إسحاق عن عكرمة عن عبد الله بن العباس قال : أغمي على النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) ثم أفاق فقال ادعوا لي أخي فأمرت عائشة أن يدعوا أبا بكر فدخل فلما رآه رسول الله أعرض عنه فقالت أم سلمة رضي الله عنها ادعوا له عليا فإنه أخوه وحبيبه فدعي له فجاء حتى جلس بين يديه فلما رآه أدناه وناجاه طويلا.

و هذا الحديث مع استقامته وظهوره وكثرة رواته في الخاصة والعامة يدل على عداوتها له وحسدها عليه.

و من ذلك : ما اجتمع عليه أهل النقل : من شهادتها لأبي بكر في صواب منعه فاطمة فدكا ومباينتها في تلك الشهادة أمير المؤمنين (عليه السلام) فيما ذهب إليه من استحقاقها ومظاهرة أبي بكر على منع فاطمة (عليه السلام) من ميراث أبيها ولم تشركها في ذلك إحدى الأزواج.

[429]

و من ذلك :

ما رواه إسحاق عن الزهري عن عبيد الله بن عبد الله عن عائشة قالت : استشعر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) المرض في بيت ميمونة فدعى نساءه فاستأذنهن أن يمرض في بيتي فأذن له فخرج بين رجلين من أهل بيته أحدهما الفضل بن العباس ورجل آخر تخط قدماه الأرض عاصبا رأسه حتى دخل بيتي قال عبيد الله فحدثت عنها عبد الله بن العباس فقال هل تدري من الرجل قلت لا قال ذلك علي بن أبي طالب (عليه السلام) وما كانت أمنا تذكره بخير وهي تستطيع.

و من ذلك : أن عائشة كانت تذم عثمان وولاته وكانت تقول كل قول بغضا منه وترفع قميص رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) فتقول هذا قميص رسول الله لم يبل وقد أبلى عثمان أحكامه ولما جاء الناعي إلى مكة فنعاه بكى لقتله قوم من أهل ظنه فأمرت مناديا ينادي ما بكاؤكم على نعثل قد أراد أن يطفئ نور الله فأطفأه الله وأن يضيع سنة رسوله فقتله ثم أرجف بمكة أن طلحة قد بويع له فركبت مبادرة بغلتها وتوجهت نحو المدينة وهي مسرورة حتى انتهت إلى سرف فاستقبلت عبيد الله بن أبي سلمة فقالت له ما عندك من الخبر قال قتل عثمان قالت ثم ما ذا قال بايعوا عليا ابن عم رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم)

[430]

فقالت والله لوددت أن هذه أطبقت على هذه إذ تمت الآن لصاحبك فقال لها عبيد الله ولم فو الله ما على هذه الغبراء نسمة أكرم على الله منه فلما ذا تكرهين قوله فقالت إنا عبنا على عثمان في أمور سميناها له ولمناه عليها فتاب منها واستغفر الله فقبل منه المسلمون ولم يجدوا من ذلك بدا فوثب عليه صاحبك فقتله والله لإصبع من أصابع عثمان خير منه وقد مضى كما يمضي الرحيض ثم رجعت إلى مكة تنعى عثمان وتقول هذه المقالة للناس.

فهل يصح رحمكم الله عند أحد من العقلاء دخول الشبهة من بغضها أو يرتاب مكلف في عنادها لأمير المؤمنين (عليه السلام) على ما ذكرناه.

و من ذلك : ما رواه نوح بن دراج عن أبي إسحاق قال حدثني المنهال عن جماعة من أصحابنا : أن طلحة لما قدم إلى مكة جاء إلى عائشة فلما رأته قالت يا أبا محمد قتلت عثمان وبايعت عليا فقال لها يا أماه مثلي كما قال الأول :

ندمت ندامة الكسعي لما *** رأت عيناه ما صنعت يداه

أ ولا ترى أنها تبدي له العداوة في كل حال وتظهر له العناد بكل مقال.

و من ذلك : كتبها إلى الآفاق تؤلب عليه وتخذل الناس عنه من غير شبهة تعرض في الديانة لفعل كان منه (عليه السلام) كتبت إلى زيد بن صوحان على ما اجتمعت عليه نقلة الأخبار:

[431]

بسم الله الرحمن الرحيم من عائشة ابنة أبي بكر أم المؤمنين زوجة النبي إلى ابنها المخلص زيد بن صوحان أما بعد فإذا جاءك كتابي هذا فأقم في بيتك واخذل الناس عن علي حتى يأتيك أمري وليبلغني عنك ما أقر به فإنك من أوثق أهلي عندي والسلام.

فكتب إليها زيد بن صوحان رضي الله عنه :

بسم الله الرحمن الرحيم من زيد بن صوحان إلى عائشة بنت أبي بكر أما بعد فإن الله أمرك بأمر وأمرنا بأمر أمرك أن تقري في بيتك وأمرنا بالجهاد فأتاني كتابك بضد ما أمر الله به وذلك خلاف الحق والسلام.

و من ذلك : ما تظاهرت به الأخبار وثبتت به الآثار في الكتب المصنفة في حرب البصرة وغيرها من كتاب عائشة إلى حفصة على ما رواه عبد الرحمن الأصم عن الحسن بن أبي الحسن البصري قال لما نزل علي (عليه السلام) بذي قار كتبت إلى حفصة الكتاب الذي قدمنا ذكره.

و روى بشر بن الربيع عن عمار الدهني عن سالم بن أبي الجعد قال : ذكر النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) خروج بعض نسائه وعنده عائشة وعلي حاضر , فضحكت عائشة.

فالتفت (صلى الله عليه وآله وسلم) إلى علي , فقال : يا علي إذا رأيت من أمرها شيئا فارفق بها.

[432]

و روى عصام بن قدامة البجلي عن ابن عباس قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) لنسائه ليت شعري أيتكن صاحبة الجمل الأدبب تخرج حتى تنبحها كلاب الحوأب يقتل عن يمينها وشمالها خلق كثير كلهم في النار وتنجو بعد ما كادت.

و رواه أبو بكر بن عياش عن الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس قال المسعودي وفي حديثه : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا علي إذا أدركتها فاضربها واضرب أصحابها.

و روى علي بن مسهر عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت : قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يا عائشة إني رأيتك في المنام مرتين أرى جملا يحملك في سدافة من حرير فأكشفها فإذا هي أنت.

[433]

أ فلا ترى أن رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) نهاها وقد بين ما يكون منها على علم منه في مصيرها وعاقبة أمرها

; ثم نهاها عن ذلك وزجرها ودعا عليها لأجله وتوعدها فأقدمت على خلافه مستبصرة بعداوته وارتكبت نهيه معاندة له في أمره وصارت إلى ما زجرها عنه مع الذكر له والعلم به من غير شبهة في معاندته على أن كتاب الله المقدم في الحجة على ما يعضده من أثر وخبر وسنة قد أوضح ببرهانه على إقدام المرأة على الخلاف له من غير شبهة وقتاله وقتال أوليائه لغير حجة بقوله تعالى لها ولجميع نساء النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) وقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ ولا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ الْجاهِلِيَّةِ الْأُولى وأَقِمْنَ الصَّلاةَ وآتِينَ الزَّكاةَ فخرجت من بيتها مخالفة لأمر الله وتبرجت بين الملاء والعساكر في الحروب تبرج الجاهلية الأولى وأباحت دماء المسلمين وأفسدت الشرع على المؤمنين وأوقعت في الدين الشبهات على المستضعفين.

و من ذلك :.

ما رواه أبو داود الطهوي عن عبد الله بن شريك العامري عن عبد الله بن عامر قال : سمعت عبد الله بن بديل الخزاعي يقول لعائشة : أنشدك الله , أ لم نسمعك تقولين سمعت رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) يقول علي مع الحق والحق مع علي لن يفترقا حتى يردا علي الحوض ؟

قالت : بلى.

قال لها : فلم ذلك ؟

قالت : دعوني , والله لوددت أنهم تفانوا جميعا.

[434]

فدل ذلك على أنه لم يعترضها شبهة في قتاله وأنها في خلاف الله ورسوله (صلى الله عليه وآله وسلم) والأخبار في هذا المعنى كثيرة إن أخذنا في إيرادها طال بها الكتاب.

[435]

سبب عناد طلحة والزبير لأمير المؤمنين (عليه السلام) :

فأما ما جاء في عناد طلحة والزبير لأمير المؤمنين (عليه السلام) وإقدامهما على حربه طمعا في نيل الأمر من بعده بغير شبهة في ذلك وأنهما كانا متوليين لقتل عثمان فلما بايع الناس لأمير المؤمنين (عليه السلام) وفاتهما ما كانا يأملانه من التأمر على الناس عمدا إلى حربه ورمياه بما صنعاه بعثمان وعاناداه في ذلك وكابراه ودفعا به المعلوم.

فروى موسى بن مطير عن الأعمش عن مسروق قال : دخلنا المدينة فبدأنا بطلحة فخرج مشتملا بقطيفة حمراء فذكرنا له أمر عثمان وأمر القوم فقال لقد كاد سفهاؤكم أن يغلبوا عقلاءكم ثم قال أ جئتم معكم بحطب ألا فخذوا هاتين الحزمتين فاذهبوا بهما بابه فأحرقوه بالنار فخرجنا من عنده وأتينا الزبير فقال مثل قوله فخرجنا حتى أتينا عليا عند أحجار الزيت فذكرنا له أمره فقال

استتيبوا الرجل ولا تعجلوا فإن رجع عما هو عليه وإلا فانظروا.

و روى محمد بن إسحاق عن أبي جعفر الأسدي عن أبيه عن عبد الله بن جعفر

[436]

قال : كنت مع عثمان وهو محصور فلما عرف أنه مقتول بعثني وعبد الرحمن بن أزهر الزهري إلى علي (عليه السلام) وقد استولى طلحة على الأمر وقال انطلقا وقولا له إنك أولى بالأمر من ابن الحضرمية فلا يغلبنك على أمر ابن عمك.

و روى الفضل بن دكين عن فطر بن خليفة عن عمران الخزاعي عن ميسرة بن جرير قال : كنت عند الزبير بأحجار الزيت وهو آخذ بيدي فأتاه رجل وقال يا أبا عبد الله إن أهل الدار قد حيل بينهم وبين الماء فقال دبروا وأدبروا وحِيلَ بَيْنَهُمْ وبَيْنَ ما يَشْتَهُونَ كَما فُعِلَ بِأَشْياعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ.

فهذه الأخبار وأمثالها قد جاءت بما فعل طلحة والزبير بعثمان وما أباحاه من دمه.

و أن أمير المؤمنين كان معتزلا لذلك عن عثمان دافعا عنه بحسب الإمكان ثم جاءا بعد ذلك يطلبان بدم عثمان ويدعيان عليه أنه تولى قتله ويقرفانه بما ادعياه ويعملان في قتل أهل الإيمان وإثارة الفتنة في الإسلام وهلاك العباد والبلاد.

و روى إبراهيم بن عمر عن أبيه عن نوح بن دراج : أن عليا (عليه السلام) قال لهما والله ما للعمرة تريدان وقد بلغني أمركما وأمر صاحبتكما فحلفا بالله ما يريدان إلا العمرة.

[437]

و روى الحسن بن المبارك عن بكر بن عيسى : أن عليا (عليه السلام) أخذ عليهما العهد والميثاق أعظم ما أخذه على أحد من خلقه أن لا يخالفا ولا ينكثا ولا يتوجها وجها غير العمرة حتى يرجعا إليه فأعطياه ذلك من أنفسهما ثم أذن لهما فخرجا.

و روت أم راشد مولاة أم هانئ : أن طلحة والزبير دخلا على علي (عليه السلام) فاستأذناه في العمرة فأذن لهما فلما وليا من عنده سمعتهما يقولان ما بايعناه بقلوبنا وإنما بايعناه بأيدينا فأخبرت عليا (عليه السلام) بمقالتهما فقال إِنَّ الَّذِينَ يُبايِعُونَكَ إِنَّما يُبايِعُونَ اللَّهَ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّما يَنْكُثُ عَلى نَفْسِهِ ومَنْ أَوْفى بِما عاهَدَ عَلَيْهُ اللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْراً عَظِيماً ثم قام (عليه السلام) خطيبا فحمد الله وأثنى عليه فقال أما بعد فإن النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) حين قبض كنا نحن أهل بيته وعصبته وورثته وأولياءه وأحق خلق الله به لا ننازع في ذلك فبيننا نحن نقول ذلك إذ نفر المنافقون فانتزعوا سلطان نبينا منا وولوه غيرنا وايم الله فلو لا مخافة الفرقة بين المسلمين أن يعودوا إلى الكفر لكنا غيرنا ذلك ما استطعنا وقد وليتمونا أيها الناس أمركم وقد بايعني طلحة والزبير فيمن بايعني منكم ثم نهضا إلى البصرة ليفرقا جماعتكم ويلقيا بعثكم بينكم الفتنة اللهم فخذهما بغشهما هذه الأمة وسوء بطرهما.

[438]

قال أبو عبد الله وقد كان في منع الحسن (عليه السلام) أن يدفن مع جده (صلى الله عليه وآله وسلم) مما لا خلاف فيه بين العلماء وفيما حاورت به القوم إذ قالت ما لكم ولي تريدون أن تدخلوا بيتي من لا أحب دليل على أنها مبغضة له وكانت مؤذية له في أسباب لا حاجة لنا بذكرها.

و من الله نسأل التوفيق لما يرضيه والعمل بما يقرب منه ونستهديه إلى سبيل الرشاد إنه ولى الإجابة قريب مجيب والحمد لله وصلاته وسلامه على محمد وآله.

***